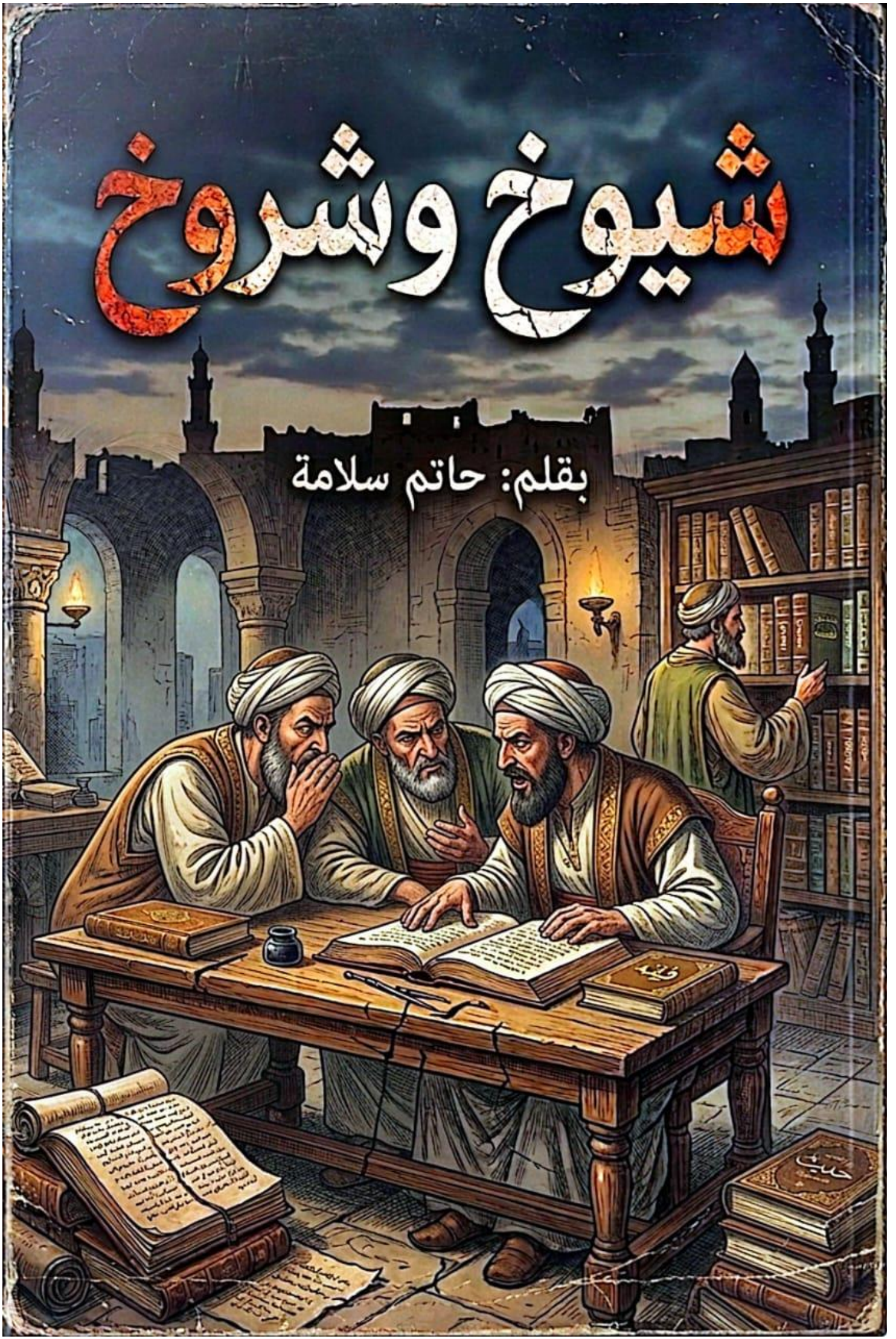
شيوخ وشروخ
بقلم: حاتم سلامة

شيوخ وشروخ

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

مقدمة

منذ بزوغ فجر الرسالات، كان العالم هو القطب الذي تدور حوله رحى الأمة؛ فهو حارس الثغور الفكرية، وملاذ القلوب الحائرة، وضمير المجتمع اليقظ، لم يكن العلماء يوماً مجرد رواة للنصوص، بل كانوا تجسيداً للمقاصد، يمشون بين الناس كأنهم قرآنٌ حيّ، تُرجمت في سلوكهم أبهى صور الصدق والزهد والمسؤولية.

ولكن، حين نُقلب صفحات التاريخ، ونقرأ واقعنا المعاصر، نجد أن هذه الصورة السامقة لم تسلم من "الشروخ". لقد تباينت دروب العلماء؛ فبينما رأينا منهم من حمل هموم الأمة على كتفيه، فكان للحق ناطقاً، وللظلم مواجهاً، وللأمة حافظاً، رأينا في المقابل صنفاً آخر— وللأسف—انحدر بالعلم إلى درك المصالح الشخصية، والظهور الباهت، والمواقف المخذلة التي لا تليق بمن يحمل في صدره آيات الله.

لماذا هذا الكتاب؟

يأتي كتاب [شيوخ وشروخ] لا ليكون حكماً قاضياً، بل ليكون مرآةً كاشفة، بل محاولة لفرز التبْر عن التراب، نحن هنا لا نقدس الأشخاص، بل نعظم مقام العلم الذي أهانه البعض بسلوكيات لا تليق، وبصمتٍ مريب في مواطن القول، وثرثرةٍ مستهجنة في مواطن الصمت، سلطنا الضوء على العالم بمعناه الحق ذاك الذي تتشابك خيوط قلبه مع قضايا العباد والبلاد والوطن. العالم الذي يعي أن الدين ليس في الكتب الموصدة في الأرفف، بل في معالجة آلام الناس، وفي الدفاع عن الكرامة، وفي قول الحق حين يخرس الآخرون، وفي المقابل، لا نتردد في تجريح تلك المواقف المخزية التي جعلت من الشيخ أيقونةً للتهافت،

ومن العلم مطيةً لأغراض دنيوية رخيصة، مما أحدث شروخاً غائرة في جدار الثقة بين الناس وبين أهل العلم.

إن الشروخ التي نتحدث عنها في هذا الكتاب ليست مجرد أخطاء عابرة، بل هي انحرافات في بوصلة الدور التاريخي للعالم، إننا لا نبحث عن المعصومين، فالكل يُؤخذ منه ويُرد عليه، ولكننا ننشد القدوة التي تليق بمقام الوارث للأنبياء.. لم تكن هذه السطور مجرد رصدٍ لتقلبات المواقف، بل هي محاكمةٌ فكرية ومنهجية لكل من تسلح بالعلم ولم يتسلح بالورع، ولكل من لبس عمامة الوقار وخان أمانة الكلمة. إن الشروخ التي نتناولها هنا ليست زلاتٍ عابرة أو اجتهاداتٍ أخطأت وجهتها، بل هي صدوعٌ غائرة في جدار الثقة بين الشعوب ومرجعياتها، أحدثها هؤلاء الذين اختاروا الانزواء في غرف الصمت حين احتيج إلى بيانهم، أو الظهور في مشاهد التزلف التي أهانت قدسية العلم وأسقطت هيبة العالم.

إننا نؤكد في هذا العمل على جملة من الحقائق التي لا تقبل التجزئة وأهمها أن العلمُ موقفٌ قبل أن يكون نصوصاً، فالكتاب لا يحتفي بمن حفظ المتون ونسي صرخة المظلوم، بل بالعالم الذي جعل من فقهه درعاً للأمة، ومن فتواه مخرجاً للناس في ملمّاتهم، مدركاً أن دور العالم الحقيقي يبدأ حيث تنتهي حدود مصلحته الشخصية.

ونحن حينما نتوجه بالنقد لمن خذلوا صورة العلم فهو نقد وليس تشفياً، بل هو ضرورةٌ جراحية لاستئصال الورم الذي أصاب الجسد الدعوي؛ فبقاء الشروخ دون كشفٍ وتفنيد يجعل العامة يظنون أن الدين هو الضعف، وأن العلم هو الانكسار، وحاشا لله أن يكون ورثة الأنبياء كذلك.

ونريد التأكيد أن العالم الحقيقي من يمتزج بتراب وطنه، ويشعر بأنين بلاده، ويهتم بشؤون العباد في معاشهم ومعادهم. هو الذي لا يرى في العلم ترفاً فكرياً أو وجاهةً اجتماعية، بل يراه تكليفاً يلزمه بالوقوف في الصفوف الأولى للدفاع عن قضايا الأمة الكبرى.

أحاول هنا أن أقدم دعوةٌ لاستعادة الصورة المثلى؛ صورة العالم الذي يجسد الإسلام في أخلاقه قبل أقواله، وفي شجاعته قبل خطبه، وفي ثباته حين تزل الأقدام، إنه محاولة لإثبات أن الأمة وإن نكبت ببعض الشروخ، إلا أنها لا تزال تنجب شيوخاً كالجبال، لا تزيدهم المحن إلا رسوخاً، ولا تزيدهم الأيام إلا جلاءً وضياءً.

دعوةٌ لإعادة الاعتبار لصورة العالم الرباني، ونقدٌ شجاعٌ لكل ما يفسد هذه الصورة. هو دعوة لكل طالب علم، وكل داعية، وكل مفكر، ليقف وقفة صدق مع نفسه: هل أنت ممن يرممون بناء هذه الأمة، أم ممن يضيفون شروخاً جديدة في جدارها العظيم؟

نرجو أن تكون هذه السطور نبراساً يهدي الباحثين عن الحقيقة، وصوتاً يوقظ الضمائر التي غفلت عن عظم الأمانة.

حاتم إبراهيم محمد سلامة

سنجرج منوف منوفية

الأحد ٨ مارس ٢٠٢٦

Salama٢٢٧@gmail.com

قمم مهملة

العلمانيون واليساريون والملاحدة يتاح لهم من الظهور الإعلامي والاحتفاء الجماهيري، مالا يتاح لغيرهم من ذوي الهوية الدينية، وأصحاب الفكر الإسلامي القيم الأصيل.

هناك حفاوة زائدة، واهتمام ملموس بالمنحرفين فكريا عن مسار الهوية الإسلامية، التي هي عنوان مصر والتعبير الصادق عن طبيعة شعبها المتدين، إذ يتاح لهم من التلميع الإعلامي الكبير ما لا يستحقونه، ومن العجب أنك لو أسبغت حقيقة هؤلاء، لوقفت على جهل مريع، وضلال عجيب، يقبع ويتوارى خلف جماجمهم الصدئة.

لكن الإعلام يصر على تلميعهم والترويج لهم، حتى يتيح لأفكارهم المنحطة الهابطة، أن تدخل عقول الناس، وتفسد رشدهم.. تحدث هذه المأساة في مصر، منذ زمن بعيد ولا أخص هذا الزمن الذي نحن فيه وحده.

لقد اعتاد الإعلام ومعه الدراما، أن تتجاهل شخصية الرافعي إمام البيان، الذي كان يقلب دنيا الثقافة، ويثير معارك حامية الوطيس، لأن تهمته في انتمائه الديني، ولابد أن يهال عليه وعلى تراثه التراب السميك، أو يدفن في قبور النسيان.

الرافعي الذي لو كان في أمة من الأمم، لأقاموا له التماثيل، وسموا باسمه الجامعات والقاعات، ونسبوا إليه الشوارع والأندية، لكننا في مصر وفي إعلام العلمانيين واليساريين، نعظم نصر أبو زيد، وننادي بعبقرية فرج فودة، ونزعم أن يوسف زيدان فيلسوفا كبيرا، وهم لا قيمة لهم إلا في دنيا الخرف والهرف، وساحة التحريف والتزييف.

إمام كالعقاد، لم يستطيعوا أن يتجاهلوه، لعقله المرموق، لكنهم كانوا في محنة محيرة، إذ كيف يذكرونه وله هذا التراث الديني الخالد في نصرة الإسلام، علينا إذن أن نذكره أديبا وتنويريا، ونتعامى عن إسلاميته، حتى يُظلم في تاريخه هذا الجانب.. أما عظيمهم وإمامهم ونابغة زمانهم، فهو طه حسين، الذي يصورون للعالم كله، أنه لا مثيل له أدبا وفكرا، وقد قرأت مرة لكاتب مهرج، سطر حروفا مجنونة، جعل فيها من طه حسين مجددا للإسلام في القرن العشرين، وعلى ذات الخطى تواصل مصر إهمالها لنوابغها من المفكرين الحقيقين، من أصحاب العيار الثقيل في دنيا الفكر والعلم والقلم.

انظر مثلا لهذه القامة العلمية الضخمة المعاصرة المفكر والناقد الكبير دكتور (إبراهيم عوض) الذي لم يأخذ حقه، ولم ينل مكانته، ولم يجد من يقدر علمه وفكره ورؤاه، من مؤسسات الدولة ومراكزها الثقافية، وفي الوقت الذي يحرم فيه من الظهور الإعلامي وتقدير الدولة، نرى الغثاء يعلو في سماء الإعلام، ونبصر عقولا تهذي بالخرافة والزيف والتهليس، وتحتفي الصحف ومنصات الإعلام بالكذبة الجهلة الذين ليسوا إلا كالعهن المنفوش.

الرجل الكبير والمفكر الضخم، يعيش في بلد تتنكر لمقامه، وهو الباحث الجبار الذي تعددت مؤلفاته، وأثبت بصماته القوية في عالم الفكر والثقافة والنقد والتحليل والتحقيق.

تضيق به بلده وإعلام بلده، بينما ترحب وتستقبل من لا يقاسون به عمقا وفكرا وإنجازا وأثرا.

ولكن للأسف هذه هي مصر دوما، و هذه هي علتها المزمنة.

ولعل السبب في أن مصر تتعامى عنه، ويعزله حماة العلمانية عن الظهور لذات السبب، هو هواه الديني وحفظه للأصالة العربية، ودفاعه عن تراثها المجيد، وهو الهوى الذي يناصبه العلمانيون العداء، ولا يريدون لهذا اللون وأصحابه، أن يكون لهم ذكر وتقدير وتواجد.

أسوة بما فعلوه مع الرافعي، وما يخفونه من سيرة العقاد.

ولك أن تتعجب أن رجلا مثلي قضى ردحًا غير قصير في ميدان الثقافة والتعلم، لم يعرف معالي الدكتور إبراهيم عوض إلا متأخرًا، وهو مما أحزنني كثيرا.

الفيس بوك ومواقع التوصل الاجتماعي تضج بشباب الساحة الأدبية، الذين يعظمون الأقزام، ويكبرون الصغار، وينفشون أقلاما لا ترتقي حتى أن تكون في مصاف أصغر تلاميذ هذا المفكر الكبير، ومن المضحك المفزع حينما تراهم ينعتونهم بالفلاسفة، فأين هؤلاء من رجل كهذا، وهم أمامه في الحقيقة، كحصاة ضئيلة تافهة، أمام جبل شاهق مهول تدوي هامته في السماء.

يكتب أحدهم رواية هابطة وربما جنسية، فيسير حديث المدينة والمدائن التي تجاورها، ويُحدث زلزالا في حياة الشباب التائه، ويخرج عربيد يشكك في القرآن والثوابت فتصفق له الدنيا، ويحتفي به الجميع، بينما تهمل هذه القامة الفكرية وتحرم من التقدير اللائق بها، لأنه دينة أصيلة محافظة.

ويا لها من جريمة نكراء، لا تليق بساحة الثقافة المصرية.

قدر لي أن أقرأ للرجل وأنا المتخصص الأزهري في علوم الدين، ولي نظر في القراءة الأدبية والتراثية، فرأيت رجلا غير عادي، بل رأيت عملاقا يخوض غمار ميادين لا يقوى عليها إلا مارد جبار، يصول

ويجول، ويكشف ويعري، وينقد ويحلل، ويثبت وينفي، ويُخطِّئ ويصوب، ويحقق ويدقق، بعقل ثاقب، وبصر نافذ.

الرجل قيمة كبيرة وعقلية فريدة، وإهدار قيمته وصمة عار في جبين كل مثقف حر، بل مذمة في مسيرة مصر الثقافية، وإذا كان هناك من يردد أسماء البغاث ويشجي بها الآذان، ولا يأتي على ذكرة هذه القامة الفريدة، فهو خلل في ميزان الحكم والتقييم، ودليل واضح على الثقافة الهابطة المتردية، التي يغط فيها هذا الجيل.

حصل الدكتور على درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث عام ١٩٧٤م، ثم سافر في بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٧٦م لمواصلة دراساته العليا في جامعة أوكسفورد، وحصل على درجة الدكتوراه في النقد الأدبي، وله من الكتب أكثر من مائة كتاب ما بين ورقية وضوئية على "النت".

والمطالع لقائمة كتب الدكتور إبراهيم عوض، يرى بوضوحٍ اتساع الرقعة التي يتناولها بالبحث والدراسة من الأدب العربي والنقد الأدبي والفكر الإسلامي، وله أكثر من كتاب تناول فيه بالدراسة النقدية التحليلية، عددا من الترجمات القرآنية التي قام بها فرنسيون وإنجليز، وأغلبهم من المستشرقين، مبينا عيوب تلك الترجمات، ومفندا المزاعم التي ادعاها بعض الدارسين الغربيين عن القرآن.

ورد كذلك على من يسيئون إلى الإسلام متبعا منهجا عقليا صارما،

وله كثيرا من الدراسات النقدية في مجال القصة والمسرح ومناهج النقد الأدبي وفلسفة الفن، كما كتب عن بعض الشعراء القدماء عددا من الدراسات، بالإضافة إلى تحليله لعشرات القصائد من عصور الأدب العربي المختلفة في عدة كتب أخرى.

يتميز مفكرنا الكبير بالتواضع الشديد، وقد حدثني صديقي الكاتب عمرو مدين بقوله: "إن الدكتور إبراهيم عالم متواضع إلى درجة لا توصف.. هل رأيت من قبل عالما ومفكرًا يقول لتلميذه: وجهني؟! أو يقول لتلميذه: أنت تناطحني اليوم ؟! وهل رأيت عالما ومفكرا يمنح طلابه بالهدايا ويحفزهم بالجوائز ليقرؤوا؟ إنك لا تتخيل كيف يطبق هذا الرجل معاني الصوفية الحقيقية في عبادته وبأي صورة، إنه قمة في التقوى الحقيقة وليست المزيفة"

وأمام ما عرضنا من هذه الصورة لهذا الرجل الكبير، والتي أطلقنا عليها محنة مصر، ربما يكون عزاؤنا الوحيد في مواقع التوصل الاجتماعي والفضاء الالكتروني، التي عرفتنا بالمفكر الكبير، وعرضت علينا علمه السيال، وأوقفتنا على مقامه الرفيع، فعذرا معالي الدكتور، فبصماتكم مؤثرة وجهدكم عظيم غير مجهول، وأثركم الكبير سيحفره التاريخ في ذاكرته.

وتحية لمقامكم الرفيع من تلميذكم المحب المخلص.

الصورة التي انبعثت بعد ٤ عقود

انتشرت في الآونة الأخيرة، صورة العالم الجليل، وإمام المسلمين الأكبر الراحل د- عبد الحليم محمود رحمه الله، وهو يرتدي سترة داخلية تحت الكاكولة، لم يظهر منها إلا طراف كمها الأيمن وهو ممزق الأطراف، مهترئة التماسك، متراخية النسيج، دلالة على قدمها وتهالكها، لتعطي حالة من الاعظام والإكبار للرجل الزاهد، الذي تقلد أعظم المناصب الدينية والحكومية، ومع هذا لم يتخل عن الزهد منهجا في الحياة.

وسبحان الله يحيي العظام وهي رميم، فمثل هذه الصورة التي يبلغ اليوم عمرها أكثر من ٤٥ عاما، قدر لها اليوم أن تبعث من جديد، لتعطي رسائل مهمة، لها قيمتها ودلالتها الدقيقة المثيرة.

كان أولها

إظهار طبيعة العالم الديني المحترم الذي يتحلى بالزهد والورع ويكون عزوفه عن مباهج الدنيا أول معالم الترغيب فيه.

كشف حقيقة بعض العلماء والدعاة المخزية، الذين يلهثون وراء الدنيا، ويتقلبون في صور اللباس والزينة ومفاخر الحياة بكل حرص ونهم.

إظهار العجب من طبيعة بعض الصوفية، الذين قبلوا كل شئ في التصوف، إلا الزهد والتقشف، مع أنه أول الملامح التي يتحلى بها هذا العلم ورجاله ومريديه.

روعة المسؤول الحكومي الذي يثبت نقاءه ونظافة يده، ويقدم الصورة المثلى للضمير الحي الذي يزهد في اللباس فضلا عن الزهد في أموال الأمة.

ساقتني الصورة لأضع اليوم مقارنة بين الشيخ الراحل، وبين ما يفعله بعض الشيوخ المهرجين، وما يبتدعونه في مظاهر ثيابهم، لدرجة جنونية مبالغ فيها، حتى لتشك بأنهم يعانون من عقد نفسية، أو أنهم يتعمدون ذلك حتى يهدموا قيمة العالم الديني في أذهان الناس وتصوراتهم.

العالم الزاهد العازف عن بهارج الدنيا هو العالم القوي الجسور الذي يمكنه أن يقول: لا، إذا ما احتدمت الأمور، وفرض الصدام مع السلطة نفسه، وهو ما حدث في قانون الأحوال الشخصية، حيث تحدى الشيخ الدولة والحكومة، وسيدة مصر الأولى، انتصارا للدين والشريعة.

الدكتور علي جمعة عالم دين مصري وهو من هذه الطبقة من العلماء التي تحاول دائما لفت النظر وإحداث بلبلات فكرية ودينية بفتاويه وادعاءاته وتصريحاته الغريبة الشاذة، حتى يكون مسار الحديث بين الناس وضيفا دائما على الفضائيات.

ومن العجب العجاب أن الرجل ينتسب للتصوف والصوفية ، وحينما نذكره ونقارن بينه وبين الراحل الكريم دكتور عبد الحليم محمود، فإني دهشت كثيرا من بعض الصوفية الذين ينزلون الدكتور علي جمة مقاما أكبر وأرقى من الإمام الراحل، ولا شك أن نابع من فرط الجهل بطبيعة الرجل الشامخ، بل هو الجهل الفاضح بطبيعة التصوف نفسه، يقولون إن الدكتور علي جمعة يأتي بالقماش الذي يفصل منه ملابسه من أوروبا، وبغض النظر فإن هذا لا يعيب الرجل لأن أغلب الأقمشة مستوردة من الشرق والغرب، ولكن تأمل ملابس الرجل، فإن حديثنا عنها خارج نطاق أنها قشيبة وجميلة ومهندمة وفخمة، لأنها تخطت هذه المرحلة وبلغت فيها رتبة الهوس والتشكيل اللوني الغريب والمتعمد ظهوره بها في حلقاته المتنوعة، أو كما يقول العامة: (على كل لون يا بتسطا).!!

والصوفية المتشنجون لشيوخهم، ليس لديهم أي استعداد للحكم على انتسابهم للتصوف من مواقفهم وتعبيراتهم، فلمجرد أن يقول إنه صوفي، فهو فوق الشبهات، بل يخيل إلي أن الشيطان نفسه لو قال لهم: إنه صوفي لعظموه ومدحوه، إنهم يجعلون الرد على دعي التصوف ومخلفته والنكران عليه جريمة ترتقي للعدوان على التصوف نفسه، وهي حساسية تضر التصوف كثيرا وتضربه في مقتل.

الأزهري الذي أحبه طه حسين

لم يكن في الدنيا أحد أبغض إلى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين من الأزهر والأزهريين.. عاش جل حياته يبغض الأزهر ورموزه الذين زرعوا في حياته كثيرا من العقبات والمعوقات التي كادت أن تُفشله وترمي به في بحر الضياع والنسيان ليصير إنسانًا لا قيمة له ولا ذكر.

ولولا أن قيض الله للرجل مسارًا آخر عن طريق الجامعة المصرية التي قدرت مواهبه أو تفتقت فيها هذه الموهبه، ووجدت نفسها مؤهلة للنمو والظهور، لما كان أحد يستطيع أن يسمع بهذا الاسم إلى اليوم.

لم ينس طه أبدا في غمرة نجاحه وشهرته هذا الثأر القديم بينه وبين الأزهر، فكان يعرّض به وبعلمائه في كل مجتمع، ويصرح بعداوتهم على الملأ، ومن طريق آخر عمد إلى تشويه صورتهم في سيرته الذاتية الأيام، حتى أن من يقرأ كتاب الأيام يستبشع الأزهر ويحتقر بيئته التي صورها طه حسين.. ولا شك انه امتدح بعض الأزهريين كالإمام محمد عبده والمرصفي الا ان المزاج العام للأيام يذم الأزهر بجملته.

والحق أن الدكتور طه على قدر ما كان فيه من استفزاز وانحراف وقت شبابه، كان يمكن استيعابه لو وجد يدا حانية عاقلة لينة تقدر طبعه وظرفه، لكن النكران والعسف والقسوة التي قوبل بها أججت هذا النفور بينه وبين الأزهر.

وقد أعجبني فضيلة الدكتور النبوي شعلان والذي أُعده أول عالم أزهري يقر بقسوة الأزهر وشيوخه في موقفهم من طه حسين، حين تخلي الشيوخ في معاملتهم له من روح الأبوة الحانية، فقد حكى لي فضيلته وفي موقف مشابه مع أحد الطلاب المشاكسين، أنه اعترض أي قرار متعسف ضده، ولما خوطب في ذلك قال: لا نريد أن نخسر طه حسين آخر.

ولك أن تتخيل مدى هذه الكراهية التي لم تنطفئ نارها أبدا أن يأتي طه حسين ويكن لواحد من الأزهريين كل محبة وتقدير، بل إنه حينما مدحه وأطراه عرض في ملامح الحديث عن إنسانيته وسماحته ورقيه الأخلاقي، وكأنه ينعي على الأزهريين ممن لقيهم تجردهم من معالم الإنسانية والرفق واللين.. إنه الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق الذي مدحه طه حسين في الوقت الذي كان يعمل بقلمه في سمعة الأزهر وينكل به في كل حين.

ها هو يقول عنه: "كان سمحا في جميع أطواره وفي أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف، كانت الابتسامة الحلوة أدل شيء عليه، والحديث العذب ألزم شيء له."

وعن خيريته وإنسانيته وحبه للبر والإحسان ومعونته للمعوزين يقول الدكتور طه: "لم أعرف قط قلبا أبر بفقير ولا نفسا أرق لذي حاجة ولا يدا أسرع إلى العطاء من قلب مصطفى عبد الرازق.. كان أستاذاً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكنت لها عميداً في بعض الأوقات. وكان فقراء الطلبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية في الكلية إذ ذاك، فكان يسعى إلى في بعضهم، فأجتهد له في ذلك حتى لا أجد سبيلا إلى الاجتهاد فأشهد ما تخلف قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد. وكلمته في ذلك ذات يوم وقلت له: توشك ألا تجد شيئاً من مرتبك آخر الشهر؛ فضحك ضحكة حلوة، وقدم إلى سيجارة من نوع جديد، كما كان يقول، ثم ألقى بهذه الكلمة التي لم أنسها قط، والتي ينبغي أن يذكرها كل قادر على العون: وماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى؟"

بُهر طه بشخصية مصطفى عبد الرازق وأعجب بالإنسان الذي تحمله هذه الشخصية وكان من أبرع ما لمسه فيه صفة الوفاء، فذكر أنه عرفه وفيا لكل من أحب من الناس لا يفرق بينهم في ذلك مهما تكن الظروف ومهما يبعد بهم الزمان والمكان ومهما تلم الأحداث وتدلهم الخطوب.. كان وفيا وكان أبيا وكان

برا وكان سمح الطبع والنفس والقلب، ويقول: لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الموت، وكان لهذه الخصال كلها تأثير أي تأثير في حديثه إذا تكلم وفي فنه إذا كتب.

يحكي الدكتور طه فيقول: " عرف الشيخ مصطفى أستاذاً فرنسياً شاباً في إحدى الجامعات هناك -في فرنسا- واشتد الإلف بينهما، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى، ودعي ذلك الأستاذ الفرنسي إلى أداء واجبه العسكري، فاستجاب للدعاء وترك زوجه وليس لها عائل، فكان مصطفى عبد الرازق يؤثرها على نفسه بالنصيب الأوفر مما كان يصل إليه من المال، لا يتردد في ذلك ولا ينقطع عنه حتى عاد إلى مصر، والله يعلم ماذا فعل بعد عودته. وقد عرفت ذلك من الأستاذ الفرنسي نفسه، وقد كلمت فيه مصطفى فغير مجرى الحديث، وظل وفيا لهذا الأستاذ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، ومضى شيء من الوقت، وخلا منصب فني من المناصب في مصر، ولم يكن بين المصريين من يستطيع النهوض بأعباء هذا المنصب، وأخذت الحكومة تبحث عن أجنبي - جد مصطفى حتى اختير صديقه ذاك لهذا المنصب. وسألته عن عنايته الخاصة بهذا الأستاذ وجده في السعي له، فأنبأني بأنه يرى فيه الكفاية لمنصبه أولا، وبأنه فقد زوجه وجزع لفقدها، فمن الخير أن يترك وطنه ومدينته ويشغل عمله ذاك الجديد، عسى أن يجد في ذلك عزاء وتسلية .

وربما جر عليه وفاؤه ذاك بعض ما كان يضيق به من الأمر، ولكنه لم يحفل قط بعواقب الوفاء أتكون خيراً أم شراً، بل لم يحفل قط بعواقب الواجب وما يمكن أن تجر عليه مما يسوؤه أو يرضيه. كان سعد زغلول منفيا عن وطنه وكانت زوجه تعيش في دارها بالقاهرة يبرها المصريون والسعديون منهم خاصة، وكان مصطفى من أسرة تذهب مذهب الأحرار الدستوريين الذين كانوا يخاصمون سعداً أشد الخصام، وكان مفتشاً قضائياً بوزارة العدل، وأقبل عيد من الأعياد، فلم يتردد مصطفى في أن يذهب إلى دار سعد ويترك بطاقته هناك.

وانقضت أيام العيد، وذهب مصطفى إلى عمله، فلم يكد يستقر في مكتبه حتى دعي للقاء الوزير، فلما لقيه قال له الوزير: ألم أعلم أنك ذهبت إلى دار سعد وتركت فيها بطاقتك يوم العيد؟ قال مصطفى: قد كان ذلك. قال الوزير: أو لم تعلم أن سعداً يناوى الحكومة القائمة وأن زيارة داره سياسة محظورة على الموظفين؟ قال مصطفى: تلك مجاملات لا شأن لها بالسياسة ولا بالحكومة. قال الوزير: فأنت مفصول منذ الآن. قال له مصطفى: أنت وما تريد. وعاد مصطفى إلى داره غير حافل بما كان. ولكن رئيس الوزراء ثروت باشا، رحمه الله، علم بالأمر فعاتب الوزير فيه، وترضى ذلك الوفي الذي وشت به الأرصاد فعوقب على الوفاء."

هكذا كان ذكر طه لهذا الأزهري الذي أحبه في الوقت الذي كره فيه كل من ارتدى زي الأزهر والأزهريين أو انتسب إلى أروقته وربوعه.. لكن أنى له أن يكرهه وقد وجد فيه معنى الإنسان المتسامي، الإنسانية التي لم يجدها فيمن عيروه يوما بعلته وعماه، وظهر منهم في أقسى ما يظهر فيه الإنسان طغيانا وجورا؟!

تمنيت التلمذة على يديه

في ٢ نوفمبر عام ٢٠٠٨ كان رحيل الدكتور محمد أحمد المسير رحمه الله والذي كان من أجل العلماء الذين كنت أتمنى التتلمذ على أيديهم، فقد كان الرجل يتمتع بسمت وقبول يندر في لُداته، كان في وجهه نور وجلال، وفي حديثه اتزان واعتدال، وفي منطقه عقل وقوة، كان عفيفا نزيها شريفا، لم يكن رحمه الله من هؤلاء العلماء الذين يعبدون الشو الإعلامي، ويطرحون على الناس كل يوم من عجائب الأقوال والآراء ما يبلبل الساحة الدينية، ويذهل عقول الناس من تراثهم محتارين وجلين متشككين.

كان رحمه الله معتزا بنفسه مهيبا في ذاته، يمثل العالم الأزهري الرباني الصادق أصدق تمثيل، وكنت تأخذ منه الفتوى والمعلومة وأنت واثق مطمئن، يغلف قلبك سياج من اليقين العجيب بما يقوله الرجل، وكما يقولون: (وبضدها تتميز الأشياء) فإن محامد الشيخ المسير تتجلى أكثر وأكثر حينما نقيسه بمن نرى ونشاهد ممن ينتسبون للعلم ودوحة الأزهر الشريف، إذ كان يعف عن مواطن الشبهات، ويدرك أنه مثل أعلى للناس وأنه قدوة ينظر إليه بالمجهر، وأن حفاظه على عقيدته ودينه وهيأته إنما يعني في المقام الأول حفاظا على صورة الإسلام، ولم يؤثر عنه أبدا أن رأيناه في موطن لا يليق أو يخدش ذاته والتزامه وتدينه الأصيل.. وليس الجميع على هذا الصراط الذي التزمه الميسر وخطه لنفسه، فإنك لتعجب من شيخ أزهري كبير، يصاحب الفنانات ويجالسهن، وربما يداعبهن ويضاحكهن، حتى تسائل نفسك: أي عالم هذا، وأي شيخ يكون؟

قيمة الدكتور المسير أنه من هذا النوع من الشيوخ الذي لا يثير القلاقل والخلافات والمعارك والمشكلات، باسم العلم، وإنما تجده دوما محبوبا من الجميع مقبول من كل الأذواق، حتى ولو خالفها الرأي.

كان رحمه الله يعيب على بعض الشيوخ الذين يحيون الآراء الشاذة في القضايا الفقهية، ويقول: أنا أتعجب من فلان وهو عالم، كيف له أن يتشبث برأي شاذ ويقيم له هالة كبيرة وفي الأمر غنية عنه.

ولكن المسير بروحه وفطرته البريئة لا يعلم أن أمثال هذا العالم يتعمدون هذا الصنيع حتى يكونوا حديث الناس صباح مساء، وتستضيفهم الفضائيات والمنتديات والبرامج، ويكونوا ملء السمع والبصر، ويتخيلون أنهم بهذا الهرج والتضليل سينعتهم الناس بأنهم مجددون، وخلفاء الإمام محمد عبده.

يُعدّ الأستاذ الدكتور محمد المسير (رحمه الله) أحد الأعلام البارزين والمفكرين الأزهريين الذين أثروا المكتبة الإسلامية والفكر المعاصر بعطاء غزير ومتنوع، وقد تميزت حياته العلمية والدعوية بالعمق والشمول، تاركاً بصمات واضحة في ميادين العقيدة والفلسفة ومقارنة الأديان والقضايا الفكرية.

تخصص المسير في العقيدة والفلسفة ومقارنة الأديان، وحصل على أعلى الدرجات العلمية بمرتبة الشرف من جامعة الأزهر. لم يكن علمه محصوراً في تخصصه الدقيق، بل كان متشعباً في مختلف العلوم الإسلامية. فقد أثرى المكتبة بأكثر من ٤٠ كتاباً في شتى الفنون، وكانت مؤلفاته تتميز بالمنهجية العلمية الرصينة والقدرة على الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وقد تُرجم بعضها إلى لغات عالمية كالإندونيسية والماليزية والألبانية.

كان للشيخ المسير نشاط واسع في الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، حيث بدأ مقالاته وأحاديثه الإذاعية والتلفزيونية منذ عام ١٩٧٩م، حيث اغتنم هذه المنابر للدعوة إلى: مكارم الأخلاق والاهتمام بالأسرة والمجتمع، إيماناً منه بأن الأسرة هي المنطلق الحقيقي للبناء الحضاري والفكري للأمة، والرد على الشبهات والقضايا المعاصرة، مقدماً العلاج الوقائي للشباب بالتمسك بالمنهج الإسلامي الكامل المتكامل دون إفراط أو تفريط.

تميز أسلوبه بالوضوح والاعتدال، والقدرة على تبسيط القضايا العقدية والفلسفية المعقدة لعموم الناس.

اتسمت مسيرة الدكتور المسير العلمية بالتفوق المبكر الذي عكس عمق موهبته الأكاديمية:

الترتيب الأول: حصل على الشهادة الإعدادية وكان ترتيبه الأول على الجمهورية عام ١٩٦٤م، مما ينبئ بمسيرة علمية فائقة.

لم يكن المسير عالمًا في محراب الجامعة فحسب، بل كان حارسًا للفكر يواجه التحديات التي تهدد الشباب والمجتمع، وعن مواقف الراحل وشجاعته في صلابته الدينية يقول الراحل الدكتور محمد المختار المهدي الأستاذ بجامعة الأزهر والرئيس العام للجمعية الشرعية رحمه الله وهو يصف المسير بأنه رجل المواقف وقد كان معه عضو في الجمعية الشرعية ويذكر من مواقفه الجريئة اعتراضه على بعض مواد قانون الطفل لأنها تمثل انتهاكاً واضحاً للحدود الشرعية وتساعد علي النفخ الأسري بل الخروج علي أحكام الإسلام.

وقال كلمته في وقت آثر فيه الجميع السلام وابتعدوا عن الرد لحسابات تخص كل واحد إلا أنه لم يشتر أحداً بسخط الله.

وقال: إن الدكتور المسير انتقد اتفاقية السيداو التي تبنتها لجنة المرأة بالأمم المتحدة وتحرص علي فرض بنودها على كل الدول الإسلامية وغير الإسلامية وتدعي أن هدفها القضاء علي العنصرية ضد المرأة وهي في الحقيقة تتنافي مع أحكام الشريعة الإسلامية الصحيحة التي تؤكد على الطابع الإنساني حتى تتكامل الحياة ولا تتعارض وكذلك نقده لنصوص اتفاقيات حقوق الطفل وغير ذلك من المواقف التي تثبت أننا قد خسرنا مناضلاً شريفاً ترك من بعده من يهرفون بما لا يعرفون.

وقال الدكتور عبد الرحمن عميرة الأستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر: إنه شاهد بنفسه موقفاً للدكتور المسير يقف بين تلامذته يستمع إليهم ولا ينصرف حتي ينصرفوا جميعاً بل كان الطلاب يطلبون منه كتابه فيأمر صاحب المكتبة أن يمنح أي طالب كتابه إذا ذكر أنه ليس معه ثمنه.

وذكر: إن الراحل ممن نبهوا إلي أن الأزهر يعيش مرحلة الجهاد في الوقت الذي تتكاتف التيارات لضرب الإسلام في مقتل وكان يعتني بالطلاب الوافدين حتى لو استلزم الأمر الإنفاق عليهم من ماله الخاص، باعتبار أن هؤلاء من وجهة نظره حائط الصد ضد الاختراق الغربي للأزهر ومؤسساته.

ـ ويقول الدكتور محمد زناتي عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية إن الراحل أستطيع أن أصفه بأنه صاحب الحضور الطاغي سواء في مواقفه أو في ساحات العلم والرأي والإعلام دون غلو أو تعصب.

تغمده الله بواسع رحمته وفك أسر ابنه من سجون آل سعود.

وذكر أحد أبناء قريته أن صديقا له في العمل أنبأه بقوله: "تصور يا فلان المنطقة -المطرية-عندنا تحكي عن عالم أزهري كان ساكنا ورزقه الله قطعة أرض بناها سكنا له ولأولاده وما كان منه إلا أن جدد الشقة التي كان يسكن بها حتى السيراميك، وسلم مفتاحها لصاحبتها دون خلو ورحل لمسكنه الجديد وهو الدكتور المسير"

ومن حسن الخاتمة أن بعض المقربين ذكر أنه حتى في لحظاته الأخيرة، ظل عضوه الوحيد المتحرك هو السبابة اليمنى، يتحرك كأنه في التشهد، وهي خاتمة تليق بعالم قضى حياته في نصرة العقيدة والتوحيد.

كان الدكتور المسير رحمه الله صوتاً للعقلانية والاعتدال في الفكر الإسلامي، ترك الدكتور المسير فراغاً يصعب ملؤه، لكن إرثه من الكتب والأحاديث والمقالات سيظل نبراسًا هادياً للأجيال في فهم العقيدة والفلسفة والاعتدال المنهجي.

لقد أخطأت يا رشيد

يكون من المؤسف جدًا أن ينخدع عالم دين عن حقيقة رجل فيتخيله ملاكا وهو شيطان، بل المصيبة الأدهى أن يكتب فيه تزكيه علنية للأمة، ويصدره للجماهير على أنه من أعلامها وبناة نهضتها الفكرية والعلمية، وما هو إلا معول من معاول هدمها وتدميرها.

هل تتخيل أن هذا المأساة قد وقع فيها عالم كبير من علماء الاسلام النابهين وثقاته المعدودين، وهو الشيخ محمد رشيد رضا، حينما طلع على العالم الإسلامي في صفحات المنار، عام ١٩١٤م برثاء جرجي زيدان حينما مات بـ ٥ صفحات كاملة، يذكر فيها أن الأمة العربية فقدت بهذا الرجل ركنا ركينا من أركان نهضتنا الحديثة في العلم والأدب، بعد أن نضج علمه واتسعت معارفه، وكملت تجاربه، وصار أقدر على إتقان خدمتها ومساعدة نهضتها، وإن كان أخذ عليه بعض آرائه واتجاهاته.

والعلامة رشيد له مكانة عظيمة وكبيرة وإمام قدير من أئمة الدين العظام وله جهوده التي كانت تعادل جهود المؤسسات الدينية الكبيرة، وقد جاء وقت وكان هو الصوت الاسلامي المسموع في العالم الاسلامي، ولعلي أسوق فيه هذه الكلمات حتى لا يظن ظان أنني أتهجم على الشيخ الكريم، أو أنال منه، وإنما غاية حديثي عن نعيه في جرجي زيدان إنما توصيف واقعي لما حدث أو نقدا ذاتيا لهذه الفعلة التي أعتبرها من هنات العلماء.

والحق أن هذه الصفحات الخمس كانت مصيبة المصائب فهي تزكية من أكبر عالم سني لأكبر متآمر على تاريخ الأمة وتراثها.

نعم تزكية تؤكد أن الشيخ رشيد كان في غيبوبة تامة عما يدبره جرجي زيدان من تآمر على تاريخ الأمة ومسخ ماضيها، طامة كبرى حينما كان يرتبط معه بصداقة وثيقة بينما لا يكتشف بألمعيته مخطط الرجل التبشيري الاستعماري العدواني لماضينا التليد.

وماذا بك حينما تقرأ أمة الاسلام هذه التزكية التي تجسدت في أنكب خمس صفحات نطقت بها المنار، كيف بهم وهم يقرؤون هذه الصفحات، إلا أن يقبلوا بقوة وكثافة على مؤلفات هذا الخبيث الذي كان يدس السم في العسل ليدمر انطباع الأمة عن تاريخها ورجالها ورموزها العظام.

ويبدو أن كثيرين قد استطاع أن يخدعهم جرجي زيدان ببعض دعواه من الكتابة للتراث والتعصب للغة العربية، فإذا رأيته يقاتل من أجل لغة العرب فمحال أن يتسرب لديك شك بأن هذا الرجل من حماتها وفرسانها الميامين.. اقرأ معي هذا النص الذي كتبه في الهلال عام ١٩٠٣م ولن تتخيل أبدًا أنه لجرجي

زيدان حيث يقول فيه: " كفانا من المصائب ما نتحمله من إهمال الحكومة المصرية اللغة العربية في مدارسها، وإغفال هذه اللغة في أشهر مدارس سورية الكبرى، ويكفي الشرق ما يعتوره من أسباب الشقاق، حتى لم تبق جامعة غير هذه اللغة، فبالله إلا أبقيتم عليها"

أرأيت ماذا كتب؟

أرأيت كيف ندد بالحكومات دفاعا عن اللغة وانتصارا لها؟

هل يمكن أن يكون مثل هذا الرجل إلا حارسا عظيما من حراس التراث؟

ولكنها كانت مظاهر المؤامرة التي تجمل بها حتى ينفذ مخططه لضرب تاريخ الأمة ومسخ ماضيها المشرف حتى تكون بلا ماضي ولا تاريخ ولا هوية.

لقد كانت مقالات الواعين الغيورين من الكتاب الاسلاميين تنهال على المنار توضح وتبين للأمة جرائم هذا الرجل وجنايته على التاريخ، وينشرها الشيخ رشيد ويتعامل معها كأنها حكم فقهي له آراء مختلفة، وكان ذهنه وعقليته في تبلد كبير أمام هذه الجرائم البشعة.. فكان شيئا مثيرا للغرابة والدهشة، وهو الذي عرف عنه القوة في الحق والجرأة على أعداء الاسلام.. لكنه في نظرته لجرجي زيدان كان محيرا.

في حضرة الشيخ حسن أيوب

في فترة التسعينات وفي شرخ الشباب وأنا أقيم في قريتي سنجرج مركز منوف، كانت المدينة تبعد عنا مسافة ثلث أو ربع ساعة، وفي هذه الفترة كانت الروح الدينية متوهجة في نفسي، وكنت مرتبطا بالثقافة الإسلامية وحب العلم بحكم نهج أسرتي ودراستي الأزهرية، وكنت أنا وأصدقائي نتسابق في اقتناء الكتب والاسفار الدينية، ونحرص على شراء مجلتي التوحيد والازهر الشريف، ويوما ما سمعنا عن شيخ جليل وعالم كبير اسمه حسن أيوب، رجع من المملكة العربية السعودية، وصار له مسجد يلقي فيه دروس العلم في مدينة منوف وهو مسجد الأنصار بجوار كلية الهندسة الالكترونية، فواظبت على الحضور إليه في خطبة الجمعة، وكذلك كنت أحضر دروسه العلمية التي يلقيها بعد المغرب يومين من كل أسبوع، كان الرجل يهدر بالعلم، وفقيه كبير ومفتيا ضليعا، لا تقف أمامه مسألة، وأي شيء يسأل فيه يجيب، وكنا نرسل له الورقة المحملة بالأسئلة فيجيب عليها في خاتمة الدرس، أما خطبه فكان إلقاءه عظيما قويا رغم كبر سنه، لكنه إذا غضب أو تفاعل مع ما يلقيه كان كالعاصفة التي تلهب مشاعر المتلقين، ومن كثرة الاقبال عليه جرت توسيعات كبيرة في المسجد، فالناس يتدفقون ويفترشون كل مكان.. كان الناس متعطشون للعلم والعالم الرباني الصادق وكان هو الصورة المثلى لذلك.

ويوما بعد يوم أدمنت حضور دروسه خاصة حينما انتقل في مسجد آخر وهو مسجد أولاد غانم بجوار مستشفى المواساة الإسلامي وكنت لا أستريح إلا وأنا أجلس أمامه وأملي عيني من وجهه الذي يشع بالنور، ولو أننا ظللنا في هذا الدرس ساعات وساعات لما مللنا أو فترنا، كنت أشعر أنني في روضة من رياض الجنة، ثم دفعنا حبنا للشيخ أن نقتني كتبه وكانت كتبا مفيدة عظيمة ككتاب السلوك الاجتماعي في الإسلام، وكتاب رحلة الخلود وكتاب تبسيط العقائد الإسلامية وغيرها من الكتب القيمة والكتب الفقهية تحديدا التي نسج وصاغ فيها أحكام الفقه بشكل مبسط ومفيد وهادف.

إلى أن اعتزل رحمه الله أو أقصي لا أعرف تحديدا لكنني ذهبت يوما لأحضر درسه، فإذا بي أجد مكانه رجلا لا طعم له ولا جاذبية، رجل منفر لا تحب الجلوس إليه، وجهه لا يبعث على الراحة والطمأنينة، علمت حينما سألت عنه أنه الشيخ السلفي المدعو محمد سعيد رسلان، جاء مكان الشيخ ليحل محله، ولكن أين الثرى من الثريا؟ أين هذا وأمثاله من عالم مناضل مكين أمين.. وأنا أتعجب اليوم من هذيان بعض المتصوفة وحفاوتهم بشيخهم علي جمعة وكيف يعلون رتبة الرجل إلى مراتب الأنبياء لأقول: كيف بهؤلاء لو حضروا درسا للشيخ حسن أيوب؟ كيف يا ترى ستكون مبلغ فتنتهم به، لقد كان الرجل زاخرا بالعلم والبيان إلى حد يأخذ العقل ويدهش الوجدان، لقد كانت نظرتنا للشيخ حسن أيوب لم تكن على أنه مجرد عالم دين، بل كانت نظرتنا له أننا أمام بطل مجاهد عذبته السجون الناصرية حتى أحدثت له عاهة في قدمه وتسببت له في عرج وإعاقة، وقرأت في مذكرات الأديب الكبير نجيب الكيلاني طرفا من قصة تعذيب الشيخ حسن أيوب مما يحزن النفس على الكرامة التي أهينت والبلاء العصيب الذي تعرض له الرجل النبيل.. وذلك لأنه كان في بداية حياته عضوا في جماعة الإخوان المسلمين نشأ فيها وتربى على يد روادها، لكنه بعد ذلك ترك الجماعة وأخذ يمارس نشاطه الدعوي بعيدا عنها، وصار غير محسوب عليها في شيء.. كان يدرك أن العالم وهي المرحلة التي يمر بها لابد أن يكون لكل المسلمين لا أن يختص بجماعة بعينها أو يمثل طائفة بذاتها.. وصل الشيخ حسن أيوب إلى التليفزيون، وكان الإذاعي الكبير أحمد فراج يستضيفه في بعض الحلقات يسأله في الفقه والفتاوى، كان الشيخ في خصومة مع التيارات السلفية الحرفية وكانوا يحضرون دروسه، وما أن يثير أحدهم أمامه مشكلة ويتحدث بالعلم، يخرسه الشيخ بالعلم الغذير والفهم الواسع والأدلة الدامغة، فقد كان رحمه الله بحرا لا ساحل له.

كان حسن أيوب هو مثال الداعية الناجح والمصلح الذي يعرف كيف يأخذ بزمام المجتمع نحو الهداية، شرح لنا ذلك وعرفنا به الداعية الكويتي الشهير أحمد القطان الذي ذكر لنا قصة هدايته لطريق الدعوة والالتزام على يد الشيخ حسن أيوب..

اعتزل الشيخ وحل محله هذا الداعية العابس البائس رسلان، وظل رحمه الله على اتصال بالجمهور عبر الهاتف، الكل يسأله فيفتيه ويحل مشاكلهم ويهديهم سواء الصراط، وكنت ممن يتصل به كثيرا لاستفتيه في المسائل، حتى وافته المنية رحمه الله عام ٢٠٠٨ وكنت وقتها قد أكملت عامي الثلاثين وهاجرت مصر إلى المملكة العربية السعودية، وهناك سمعت بالنبأ الصاعقة وهو وفاة الشيخ حسن أيوب رحمه الله تعالى، فحزنت حزنا شديدا على الرجل الذي تعلمنا وتربينا على يديه رحمه الله، وكان مما يذكره كثيرا ويردده في حلقات كثيرة، جملة أخذتها وحفظتها عنه وهي: (إن الإنسان بدون دين وبدون خلق هو أقذر وحش على هذه الأرض) كان يقولها وهو يضرب بيده القوية على المنضدة، معلنا سخطه على ما يفعله شياطين البشر من إجرام وطغيان.. هل تصدقني لو قلت لك: إن مدينة منوف قد أظلمت وكللتها سحب اليأس برحيل هذا الشيخ العلم المعلم، وكأنها فقدت نبيا من الأنبياء كان فيها ميزان الهداية والرشاد.

وأنت اليوم إذا سألتني ما هي أمنيتك التي ترجوها مما مضى لأقولن لك: أمنيتي أن يعود بي الزمن لأحضر حلقة من درس الشيخ حسن أيوب رحمه الله، حيث العلم والفقه والبركة والمتعة ووجه يشع بالنور والهداية.

رحم الله الشيخ حسن أيوب.

وأخيرًا هوى النجم

لا أجد أثقل وأفضل من هذا العنوان، لأجسد به صورة هذا النبأ المفجع، الذي نزل علي كالصاعقة المدوية، والزلزال المروع منذ بضعة أيام، يحمل نعي ورحيل قامة الإسلام الكبرى وشيخه المجدد فضيلة شيخنا الدكتور. يوسف القرضاوي.

لم أجد أمثل وأحسن من هذا العنوان الذي اختاره القرضاوي نفسه، يوم أن رحل الشيخ محمد الغزالي في ٩ مارس ١٩٩٦م ليرثيه به في مقالة ضخمة كبيرة، وقد جاء اختياري له بدقة، لأنني شعرت مع وفاته، بنفس الحزن الذي شعرت به حين خُبرت بوفاة الشيخ الغزالي رحمه الله.

لقد سارع أحد المحبين يسألني أين مقالك عن القرضاوي وقد عهدناك سباقا في النوازل.؟

والحق أنه في أحيان كثيرة يغلب الحزن أشواق القلم، فيبدو وكأنه خامل لا نشاط فيه، ولا رغبة له ولا حماسة، حينما يفتر ويشعر أن الموقف أكبر من تعبيراته وحروفه.

ولعل هذا بعض ما انتابني مع رحيل العلامة القرضاوي، الذي ارتبطت به في باكر صباي، وتعرفت عليه في مطالع تكويني الثقافي، وأنا أعترف أنني في هذه السطور لست كما عهدت نفسي حينما أكتب في غيرها، وكأنني قد رُميت في بحر عظيم من اللآلئ والجواهر، لا أعرف أين أذهب ومن أيها أختار.

لقد جاء خبر الوفاة على نفسي ثقيلا، وترك في القلب وخزة مؤلمة، وفي الشعور غصة عميقة، لأن عالمًا صاحَبك بفكره وكتبه وعلمه منذ حداثتك، تقرأ له وتنهل من معينه، لا يعد مجرد عالم تلقيت عنه، وإنما هو بمثابة والد وملهم، وروح واحدة يشترك فيها معك.

لم يكن القرضاوي في شعوري عالم يخص كل الناس، وإنما كنت أشعر مع هذا الاسم أنه يخصني وحدي، وأن بيني وبينه أكبر مما بين الناس وبينه.

تعلمت منه كثيرا من العلم والفهم والوعي، بل إن انتمائي للمدرسة الوسطية، يرجع الفضل فيه إليه.

كنت أعشق كتبه إلى حد الهيام، ومن شغفي بها اقتنيت أغلبها، وكنت أسابق الزمن في قراءتها، وكنت أدخر من مصروفي ما يعينني على شرائها، وإذا كان الصوفية مولعون بكتب أئمتهم وتراثهم، فهكذا كان حالي مع كتب الشيخ القرضاوي رحمه الله، التي مزجت بالعلم والفكر والنور والرؤية والبصيرة، وكان أسلوبها يستوعبه ويتفهمه الكبير والصغير، ولعل من الغريب أن الصدفة أوقعتني في البداية، مع كتب القرضاوي الفكرية العالية، التي كانت تناقش أعتى قضايا الصحوة والفكر الإسلامي، ومع هذا كنت استوعبتها في صغري، وأفهم مراميها ومقاصدها وغاياتها، دون أن أجد صعوبة أو عنتا.

وكان مما يميزه أنه لم يكن رحمه الله ككاتب.. يسمح لوجدانه وشعوره وعاطفته أن تتحدث وتكون سيد الموقف والقلم، وإنما كان العلم وحده هو صاحب الكلمة العليا، على عكس ما كنت أرى في أسلوب مولانا محمد الغزالي، الذي كان يتحول قلمه إلى نار محرقة تأكل كل من خالفه وحارب دينه، وإن كنت في طبعي أهوى أسلوب الغزالي، إلا أن سيادة العلم في كتب القرضاوي، والحكمة العالية والتؤدة واللين، ومنهجية التعامل التي اتبعها مع المخالفين، كان لها أثر كبير من التقدير في نفسي، وصار لونا جديدًا لابد لي من الوقوف عليه أحيانا.

كنت طالبا أزهريا وكان أخي الأكبر يمتلك مكتبة متواضعة، وكانت تضم بعض كتب القرضاوي، ومن ثم تعرفت على هذا الاسم مبكرا، فكان هناك عدد لا بأس من كتبه ورسائله، التي اتجهت لشرح الإسلام وتجديد معانيه في ثوب العصر واختلاف الأزمان.

ومن يومها عرفت الشيخ وتطلعت فيما بعد لشراء كتبه والغوص في علمه، والتبحر في مفاهيمه وقضاياه، فزاد فضله في نفسى وعلت قيمته في نظري، وكان له الفضل الأكبر في تكوين عقليتي وطريقة تفكيري،

وتقييمي لكثير من الأمور، بل كان له المنة في تصويب نظري نحو الاهتمام بالقضايا الكبرى، والموازنة بين فقه المصالح والأولويات، وكيف يبتعد الداعية عن القضايا التي تبدد جهود الأمة، وتشتت عقول الناس.

ولا أذكر أنني قرأت له كتابا لم ينل إعجابي ولم يفد عقلي ولم يعلمني ما جهلت.

ناهيك عن أثره الأدبي كشاعر وأديب ذو عبارة رنانة وبلاغة ضافية وأسلوب قشيب، وشاعر مفطور.

وهب الله تعالي هذا الفتى اليتيم، عقلا حصيفًا، وحافظة قوية، حجة بالغة، ترقت به لمصاف العلماء المجتهدين والأئمة الكبار، فكان عجيبة عصره، وفريد زمانه، خاض كل لجة وكل ملحمة، فكان رأيه هو الغالب ومنطقه هو الأسدَّ.

يزعم بعض من يختلفون معه في التوجه والفكر، أنه لا قيمة له أمام شيوخهم، ولا يبلغ في العلم مقدار ما بلغوا فيه، ولعمري إنها لنكتة سخيفة ممجوجة، لا تصدر إلا من صاحب هوى، وما على أحدهم إلا أن يتتبع آثار علمائه، وينظر إلى ما ترك القرضاوي من أثر وكتب وعلم واجتهاد، لترى البون شاسعًا، والعمق كبيرًا، والأثر نافذا.

كان في زمن مضى قد نشرت إحدى الصحف مناظرة فقهية بين القرضاوي وابن باز، حول حكم الصلح مع اليهود، وابن باز في معتقد قطاعات كبيرة من السلفيين، من هذه الطبقة التي يطلقون عليها: أعلم أهل الأرض، وفور النزول لميدان العلم، رأينا الفرق المذهل بين عالم مفكر محيط بقضايا الأمة، موغل في تفاصيل الشريعة، ملم بفقه الواقع، غائر النظر في خفايا العلم، فوضح الفرق وبان الفارق، مع شيخ أسير النص، غير محيط بجديد الأمور، ونحن هنا لا نعيب الشيخ ابن باز، ولكنّ هذا ما كان، حيث لزم القرضاوي في حديثه مع الشيخ رائق الذوق والأدب والاحترام، الذي أعطى للشيخ ابن باز مكانته وقدره، وعلم غلمان السوء الذين يتطاولون اليوم على القامة الراحلة، كيف يكون الأدب مع العلماء، حتى ولو اختلفوا معهم ولكنهم لا يتعلمون.؟

تخيل.. رجل قضى عمره كله من صباه إلى شبابه وشيخوخته في خدمة الدعوة والإسلام، ثم يأتي بعض الغلمان الأغرار، والأحداث الحمقى، يكفرون الرجل ويحرمون الترحم عليه، كيف يقبل هذا وهم لم يقدموا وشيوخهم، ربع أو ثمن ما قدم القرضاوي لدينه وأمته ودعوته.؟

هاجم القرضاوي أعداء أمته وخصوم دينه في كل مجال وميدان، فقد هاجم العلمانية، ودحر الشيوعية والصليبية، وهزم التغريبيين، وصحح مسار الأصوليين، ولام الصوفية البدعية، كما هاجم جماعات

التكفير التي تكفر المجتمع وتخرج عن هدي الإسلام، وعاب نهجهم وانتقد مسارهم في ضوء العلم والشرع، وكانت له اجتهاداته التي ينتظرها كل العالم، إذا ما عن له أمر، أو أرقته مشكله.

كان القرضاوي يملأ الدنيا برنين صوته وعلمه ورأيه، بينما غيره من العلماء صوتهم خافت، لا يدري بهم أحد، ولا يتجاوزون أتباعهم وأنصارهم.

لا أعرف مكتبة عالم من العلماء أو داعية من الدعاة، لا يوجد فيها كتاب للقرضاوي التي فاقت (١٥٠) كتابا في العلم والفقه والفكر، وإذا حدث هذا فهو إما داعية جاهل أو صاحب هوى، وقد تتلمذت على يديه، وكان شيخي الأثير، الذي تلقيت عنه العلم والفهم والفقه، دون أن ألقاه يوما، لكنه كان في نفسي وروحي، وقريبا إلى عقلي ووعيي، وكم كنت أود لقياه حتى أقبل يديه وأتبرك باحتضانه.

قال عنه الشيخ الغزالي وهوه من هو علما وفقها: القرضاوي من أئمة العصر.. لقد سبق سبقا بعيدا.. الشيخ يوسف كان تلميذي، أما الآن فأنا تلميذه..!

بل قال عن كتابه في فقه الزكاة في الإسلام: لم يؤلف في الإسلام مثله.

وحتى العلامة ابن باز نفسه قال فيه: كتبه لها ثقلها وتأثيرها في العالم الإسلامي..!

وقال عنه الداعية الشهير أبو الحسن الندوي: القرضاوي عالم محقق.. وهو من كبار العلماء والمربين.!

وغير ذلك من شهادات الأعلام الكبار في حقه.

وازن القرضاوي بين كل التيارات والمذاهب والتوجهات بروح العالم الفقيه، فلم يهاجم أو يعنف أو يفسق أو يكفر، وإنما كان كله بمنطق العلم وروح الشرع، وكأنه يعيد سيرة الإمام ابن القيم في زمانه حينما تعامل بنفس الروح مع خصوم أفكاره.

وإذا كان من كلمة لمن يبغضون الرجل اليوم ويحرمون الترحم عليه نقول: هل قرأتم شيئا من كتبه؟ هل نظرتم في شيء من آثاره؟

حتى وإن لم تنظروا وتقرؤوا، فيكفيه أنه إمام الدنيا وفقيه المسلمين الأكبر، لم ينصبه في هذه المكانة محبوه وتلامذته، وإنما هو نفسه من رقى رتبته وصار إلى هذه المكانة العالية بعلمه وفهمه وتبحره.

ونحن هنا لا ندعي العصمة للرجل، ولا نسلم بسلامة اجتهاداته على طول الخط، أو نغالي في تقويمه أو نفرط، كما كان يدعو ويوازن الأمور دائمًا في منهجه ومنحاه، ولكننا وبرؤية منصفة، نحترمه فيما يعجبنا منه، بقدر احترامنا فيما يروق لنا في طرحه، فلكل أخطاؤه وزلاته، وربما تختلف معه في اجتهاد ونظر ورؤية، لكن يظل أثره العظيم وقيمته العلمية الكبرى، ومكانته الفائقة في خدمة الإسلام، التي فاقت

المؤسسات والمنظمات، ليرحل اليوم ولا يوجد من يسد مكانه، أو يحمل دوره بما كان له من علم وفهم وفكر واستواء.

رحم الله الشيخ القرضاوي رحمة واسعة، كما أنني لهذه اللحظة وبعد هذه السطور أشعر أنني مكبل لم أكتب شيئا جديرا بالشيخ رحمه الله، ولكن عزائي أن أدعو له بالرحمة والمغفرة، وسلوتي فيه أن كتبه وصوته، مازال حي فينا ينير دروبنا ويضيء عتمة مسالكنا.

كانت هذه خواطر طالب أزهري وذكريات من صباه نحو عالم أحبه كثيرا واتفق معه كثيرا، وتعلم من كتبه كثيرا، بعيدا عن الخلاف السياسي، والرؤى المغايرة التي قد لا يقبلها البعض، أو لا أقبلها أنا أحيانا، وأحب القول: إن السياسة دائما تنحي بالعالم عن مقامه الحقيقي، وتثير عليه اللغط الذي يثار حول قيمته اللائقة به، ولو أن القرضاوي تخلى عن مواقفه السياسية، لنال أعظم تقدير من الدولة المصرية رتبة ومنصبًا، بل صار له المقام الرفيع ليكون علامة بارزة من معالم مصر التي تتباهى بها وتتفاخر على الدنيا، فتسمي الشوارع والميادين والقاعات باسمه، وتدرس كتبه في مناهج التعليم بالمدارس والجامعات، ولربما صكت صورته على طوابع البريد.

أحترم هذا الرجل

لا أخفي عن القراء عزوف نفسي عن التيار السلفي خاصة حينما ما أرى كثيرًا من بعض أتباعه المتشددين وتياراته ومدارسه المتعنتة التي تتمسك بحرفية النصوص بعيدًا عن روح الوحي وغاية الشريعة، وكذلك شيوخه أعافهم إلا قليلا ممن يستحقون التقدير منهم.

لكني أشهد أن متابعتي الأخيرة للشيخ السلفي [مصطفى العدوي] قد زادتني كثيرًا من الاحترام والإعجاب بشخصه، وسلوكه الذي يعبر عن نفسه السوية ويبرهن عن روحه المتزنة.

[وأنا هنا أتحدث عن سلوك لا فكر، فقد أختلف مع الشيخ في بعض الرؤى لكن ذلك لا يمنعني أن أحمده في خلق رأيته منه، وهذا كما أعرف غاية الإنصاف]

ففي أكثر من مقطع مرئي يحاول أتباع الشيخ ومحبيه أن يغمروه بأوابل من المدح والإطراء، ولكنه يقطع عليهم الطريق بكل حزم وقوة، وفي مرة من المرات عارض المتحدث بقوله: هذا الكلام يؤلمني ويتعبني أنت تذبحني.. ونحن أمام هذا التصرف المثالي نرى الرجل أقرب لروح الإسلام من كثير من شيوخ وعلماء يتيهون بالفخر ويعجبون بالإطراء، ويحبون من المريدين أن يرفعوهم إلى السماء، وينعتونهم بأعظم وأفخم الألقاب والأوصاف، وهو نوع من النقص والغرور والتيه والعجب، لا يمكن أبدا أن يكون

عنوانا لنفس ترجو الله واليوم الأخر، فإن أكثر ما يهلك المرء مدح الأخرين، الذي يملأ نفسه بالعجب والغرور والذي ما غن يحل بها حتى يأكل منها معاني الإخلاص والعبودية لله.

تصرف الشيخ العدوي يعكس جانباً أصيلاً في الشخصية الإسلامية المنتمية للمدرسة السلفية التقليدية، واعتراضه للمادحين ليس مجرد عملية تواضع شكلي، بل هو تطبيق عملي لعمق عقدي وتربوي.

لقد نهى النبي – صلى الله عليه وسلم عن هذا المديح المفرط فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا عبد الله ورسوله " رواه البخاري . ومعنى (لا تطروني) أي: لا تجاوزوا في مدحي(.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة فقال: «أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). (الإطراء): البالغة في المدح.

قال المهلب: " وإنما قال هذا، والله أعلم، لئلا يغتر الرجل بكثرة المدح، ويرى أنه عند الناس بتلك المنزلة، فيترك الازدياد من الخير ويجد الشيطان إليه سبيلا، ويوهمه في نفسه حتى يضع التواضع لله " قال ابن بطال : حاصل النهي هنا أنه إذا أفرط في مدح آخر بما ليس فيه، لم يأمن على الممدوح العُجْب لظنه أنه بتلك المنزلة، فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالاً على ما وُصِفَ به " .

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويحك! قطعت عنق صاحبك..» -يقوله مراراً- «إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا إن كان يُرى أنه كذلك، وحسيبه اللهَّ ولا يزكى على اللهَّ أحد» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

وعن همّام بن الحارث عن المقداد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أن رجلاً جعل يمدح عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فعمِد المقداد فجثا على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك فقال: إن رَسُول اللهَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»" (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

الشيخ العدوي، بصفته محدثاً، يتعامل مع المدح من منطلق شرعي بحت، ويرى في الإطراء المبالغ فيه ذبحاً للممدوح، كما جاء في الحديث الشريف، بل إن هذا الرفض للمدح هو رسالة تعليمية لجمهوره بأن تعظيم الأشخاص قد يؤدي إلى فتنة الممدوح في دينه، وفتنة التابع في متبوعه، مما قد يخدش أصل الإخلاص.

العدوي بتصرفه السوي يعلن بقوة محاربة صناعة الأصنام البشرية، ففي تصرفه كسر لنموذج الشيخ الكاريزمي الذي يحيط نفسه بهالة من القداسة، حين يرفض الألقاب الضخمة أو الثناء المسجوع، هو يعيد توجيه البوصلة نحو النص والعلم لا نحو الشخص، وهو السلوك الذي يغيظ بعض الاتجاهات

والتيارات التي تعتمد على التجييش العاطفي وتقديس القيادات، لأن العدوي يقدم نموذجاً للعالم الذي يرى نفسه طالب علم مهما بلغ من المكانة.

بل إن تكرار هذه المواقف في مقاطع عفوية وليس في مشهد واحد مرتب له، يعطي انطباعاً بالاتساق بين ما يدعو إليه الشيخ في دروسه وبين سلوكه الشخصي يمنحه مصداقية تجعل كلماته نافذة في قلوب مستمعيه؛ فالناس لا يتبعون من يتحدث عن التواضع، بل من يمارسه فعلاً حين تتاح له فرصة الزهو.

إن الشيخ العدوي يربي تلاميذه على أن العلم خشية، وأن الاغترار بثناء الناس هو أول خطوات السقوط، حين يرى الشاب الصغير عالماً كبيراً يرتعد من كلمة مدح، ينطبع في ذهنه أن قيمة الإنسان بما هو عليه عند الله، لا بما تقوله الألسنة.

إن ظاهرة رفض الإطراء هي مصل مضاد لثقافة الاستعراض المعاصرة، ودعوة للعودة إلى بساطة السلف في التعامل مع الذات، ورغم أن البعض قد يراها شدة زائدة، إلا أنها في سياقها الديني تعتبر صمام أمان يحمي العالم من الكبر، ويحمي العامي من الغلو، فغاية العلم العمل، وغاية العمل الإخلاص، والإخلاص ينفر من ضجيج المداحين.

وأحب القول هنا ودون مواربة: إن الشيخ مصطفى العدوي أثبت بتعففه أنه أقرب لمعاني الصوفية أكثر من كثير من مشايخها، الذين سمحوا للناس أن يتغنوا باسمهم ويقبلوا أياديهم ويتمسحون بأطراف أثوابهم.. والصوفية في أدبياتهم إذا غاب فيهم الشيخ قد يضل المريد لأنه ارتبط بشخص، أما عند العدوي، فإنه حينما يلغي ذاته يدفع محبيه للارتباط بالكتاب والسنة وحدهما.

ومن زاوية أبعد وأدق نرى أن تصرف الشيخ العدوي يغلق الباب على العلمانية والتيارات المعادية للدين التي دائماً ما تهاجم رجال الدين بتهمة التكسب بالدين أو حب الرئاسة والظهور، أو الكهنوتية المعاصرة، التي كانت للكنيسة قديما، لقد أغلق الشيخ الباب تمامًا إذ لا يمكن لأحدهم أن يتهمه بالبحث عن مجد شخصي وهو يطرد المادحين من مجلسه.

كرامة يسري أم كرامة البهي؟

لا أدري فبعض الأمور والمواقف قد تحدث ولا يمكن للمرء حيالها إلا أن يجزم أنها أن قبيل التوفيق الالهي أو الكرامات التي يختص الله بها أولياءه وعباده المخلصين، لأنها أمر يصعب أن تُنتجه الظروف أو تصنعه الصُدف، فمنذ أيام حدثني أستاذي فضيلة الدكتور [يسري محمد خضر] وكيل كلية أصول الدين في طنطا، الذي أعده من شيوخ الأزهر المعتبرين الذين أجلهم وأحترمهم وأخصهم بمحبة عاطرة في

القلب، وهو عندي من نماذج العلماء الربانيين الذين يعتز بهم الأزهر ويشرف بتمثيلهم له، فهو رجل يتمتع بأخلاق العلماء وهمم الأتقياء الأنقياء، وأذكر أنه كان من أكثر التلامذة الذين كان يحبهم شيخنا الدكتور محمود عمارة رحمه الله، ويعتز بقربهم منه، وقد ذكر اسمه واسم رسالته للدكتوراه مرة كمرجع في أحد كتبه، فلما سألته عن ذلك وكيف تستشهد باسم طالب صغير في كتابك؟ قال لي: هو من أخص تلاميذي وأحب أن أجامله.. لكن ماذا جرى بيني وبين سيدنا الدكتور يسري في محادثتي معه؟

لقد حدثني عن أيام بحثه في الماجستير ورحلته في كتابة الرسالة، التي كان عنوان موضوعها [الشيخ البهي الخولي وجهوده في الدعوة إلى الله] وذكر لي كيف أنه اجتهد في جمع كتب الشيخ البهي الخولي وآثاره التي تفيد رسالته، وعليها سيقوم مدار بحثه، يقول فضيلة الدكتور يسري: "كنت أتوجه إلى دار الكتب المصرية في القاهرة، وكان بها كتابان للشيخ البهي الخولي، وهما [الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية] وكتاب [المرأة بين البيت والمجتمع] وكنت وقتها في بداية التسعينات ولم أكن ميسور الحال، ولم يكن المقام يسمح أن أشتري الكتابين أو أقوم بتصويرهما، ففكرت في تسجيل الكتابين قراءة عبر آلة تسجيل أصحبها معي إلى دار الكتب، ثم أقوم بعد ذلك بتفريغه في البيت، وحينما ذهبت إلى دار الكتب منعني الأمن أن أدخل وبصحبتي أية متعلقات، شرحت ظروفي لرجال الأمن، وذكرت لهم أني في حاجة إلى المسجل حتى أنقل مادة الكتابين، فرفضوا وأرشدوني إلى تقديم طلب لمكتب الأمن، وفعلا كتبت طلبًا وذهبت إلى مكتب أمن الدولة الذي يترأسه ضابط برتبة لواء، رحب بي وسألني عن أحوالي وظروفي، وذكرت له طلبي وأنني باحث ماجستير وأريد الكتابين حتى أستعين بهما في بحثي ورسالتي، وأن ظروفي لا تسمح بتصويرها ولا بد من استخدام المسجل الذي يمنعون دخوله معي، فطلب مني هذا اللواء أن أكتب أسماء الكتب، فأخذت القلم وكتبت اسم الكتابين، فقال لي: اكتب اسم المؤلف كذلك، فكتبت أمامه للأستاذ البهي الخولي، وإذا بالرجل حينما كتبت اسم البهي الخولي تأخذه دهشة وينظر إلي ويقول متسائلا: البهي الخولي؟ هل تريد شيئًا عن البهي الخولي؟ فقلت له: نعم أريد أي شيء يتعلق به يفيدني في بحثي، أريد عنه أي معلومة مهما كانت صغيرة فلدي بحث عن حياة الشيخ البهي الخولي ولا أعرف كيف أبدأ فيه، وماذا أتكلم عنه؟.

فقال لي: تفضل بالجلوس ثم يتبين لي أمر لم يكن يخطر على البال وهو أن هذا اللواء على علاقة اجتماعية وزمالة وصداقة بأسرة الشيخ البهي الخولي خاصة ابنه مجيد، وكان لواء شرطة سابق بالمعاش، فاتصل به أمامي وقال له: "عندي باحث بيعمل رسالة عن الوالد"، ويريد مقابلتكم والاستعانة بمساعدتكم، فرحب نجل الشيخ البهي ترحيبا كبيرا، وأخذت العنوان عنوان البيت وبالفعل تحدد الموعد في الساعة

الخامسة عصرا، وكنت وقت وجودي في دار الكتب في الساعة التاسعة صباحا، فقال لي الرجل: انتظر في القاهرة حتى تقابل نجل البهي الخولي، وبالفعل ذهبت أقضي كل هذا الوقت، مرة في قهوة ومرة في مسجد ومرة بالتجول في الشوارع، حتى جاءت الساعة الخامسة بالدقيقة وكنت أمام الشقة نجل الشيخ البهي الذي كان في انتظاري، استقبلني ورحب بي وأدخلني شقته التي كانت شقة أبيه، وأخذ يطوف بي في أركانها ويقول لي: هنا كان يجلس الشيخ الباقوري، وهنا كان يجلس فلان وفلان وذكر لي عددًا من أعلام الدعوة الكبار، ثم دلني ولده مجيد إلى ابنه الآخر ماجد، ومنه إلى ابنه الثالث الذي كان الشيخ يعيش معه في الشقة، وهذا الابن الثالث هو من أتاح لي الوقوف على آثار الشيخ من الخطابات والرسائل والمخطوطات البسيطة، الأوراق المتناثرة، ومقالات لم تنشر من قبل، ودقائق ومسودات لبعض المؤلفات له، وأمام هذا العطاء الكبير كدت أطير من الفرح بما حباني الله به، حتى أنني لم أصبر على ما كان بحوزتي ففتحت الأوراق وأنا في المواصلات لأقرأ خط الشيخ البهي الدقيق وأنظر ماذا كتب وماذا دون؟ ثم دلوني بعد هذا كله على تلامذة الشيخ حتى استطعت أن أكتب رسالة علمية استوفت كل أركانها بتمام.. كانت رسالتي تعتمد في بدايتها على ما خلف الشيخ من كتب منشورة، لكنها الان صارت أعمق بكثير من مجرد رسالة لتكون كشفا يقدم الجديد من حياة البهي الخولي الذي لم يكن معلوما"

أما أنا فحينما سمعت هذه القصة من شيخنا الدكتور يسري خضر قلت له: لا أعلم إن كانت هذه كرامة لك أم للشيخ البهي الخولي، أو لعلك يوم خروجك لدار الكتب قد نلت دعوة من والدين صالحين فكتب لك هذا التسهيل العجيب.. والموقف مدهش محير وكأن الله سبحانه قد أراد له هذا التعقيد حتى يسوقه إلى خير ينتظره، ويفتح له آفاقا كان يجهلها، لتعبر الرسالة عن الشيخ البهي تعبيرا يليق به.

محاولة اغتيال داعية

اسمحوا لي ابتداء أن أقول: إن الدفاع عن الشيخ عبد الله رشدي، ليس مجرد دفاع عن رجل دين أو تحيزا لداعية ينتسب للأزهر الشريف.. اسمحوا لي أن أقول: إن التعصب للرجل ليس لأنه ممن يرتدون العمائم ويقولون قال الله تعالى وقال رسوله الكريم.

لا هذا ولا ذاك، ولكن الدفاع عن رشدي يرجع في المقام الأول، لكونه داعية موهوبا قد يصل في ظني إلى درجة الإلهام، وليس هذا الكلام من بواعث الهوى، ولكنه من وحي ما يمتعنا به من دحره للعمانيين وخصوم الملة..

لقد انكسروا جميعا على يديه، وتحطمت هالتهم الفارغة بمطرقته العنيفة، سقطت هيبتهم بقوة أمام أتباعهم ومناصريهم، تشوهت صورتهم وكشف عوار جهلهم أمام ما رماهم به الفتى الداعية من سديد الرأي وحجج المناظرة التي شبهت بأنها قذائف عنيفة قصمت ظهر المارد العلماني وقلمت أظافر أنصاره..

اسمحوا لي أن أبدا كلامي بالضحك، والذي لم يكن نتاج نكتة أو مزحة أو فكاهة، وإنما كان نتاج بلاهة وعبط وسذاجة منقطعة النظير في الاتهام والتلفيق.

طلعت علينا صفحة الصحفي المعروف محمد الباز الذي وللأسف يمثل منصة لإعلام بلادي ووطني، بمنشور يظن أنه قنبلة مدوية وزلزالا مدمرا سينهي حياة ومستقبل الشيخ عبد الله رشدي، الذي لا يؤرقه في أحد في الحياة كما يؤرقه الداعية الصلب.

على صفحة الإعلامي البارز محمد الباز، الذي يمثل صورة من الإعلام الوطني لمصر، ظهر الابتذال والرخص إلى أبعد مداه وعورة وتدنيا، تهمة الجنس هي أقبح التهم التي توجه إلى عالم دين أو داعية إسلامي، أو أي شخص يراد هدمه وتحطيمه، ولمعرفة خصومة ودرايتهم بمدى تأثير هذه التهمة عليه وعلى جمهوره، وإحداث صدمة قوية عنيفة تمنيه بالخسارة الفادحة.

يلجؤون كثيرا لإثارتها وحبكها، واختلاقها وتأليفها.. حتى يشاع عنه بأنه زير نساء.. وبعدها يسقط كل شيء من قيمة الرجل، لن أطيل كثيرا في الموضوع.. ولكنى أقول لمن لا يتمتعون بالمروءة وشرف الخصومة: لقد بذلتهم جدا في عظيما في صناعة هذا السيناريو الأبله، واجتهدتم كثيرا في تحقيق معالم الإدانة والواهية المضحكة..

محادثات واتساب وصفحة فيس بوك لامرأة مجهولة الهوية، ولا يعرف عنها أحد أي معلومة أو هوية.. كلام ومراسلات واعترافات فاضحة، يستطع أي إنسان لديه ولو خلفية بسيطة عن الحاسب الآلي أن يمنتجها ويصممها.

كل الأدلة التي تدين الشيخ عبد الله رشدي متوفرة وواضحة وسخية ولا ننكر ذلك..

لكن قولوا لنا بالله عليكم: ألا يوجد من بين هذه الأدلة مقطع صوت واحد، خاصة وكما أظهرتم هذه العلاقة القوية بين العاشقين، ألا توجد صورة تجمعهما، ألا يوجد ولو فويس صغير في الواتساب يحمل صوت الشيخ خاصة وأنه يحدث معشوقته؟

لكن للأسف.. لا يوجد تسجيل صوتي واحد.

تقول الفتاة لدي أدلة كثيرة ما زالت ومعي وستخرج في وقتها، وأنا أقول لك: أتحداك لو كان معك دليل واحد يدين الرجل ، لأن الهرج ظاهر من بدايته، أخرجي ما في جعبتك يا جيهان لو كنت صادقة.

المرأة باردة إلى أبعد حد فرغم ما رأت من الهجوم عليها إلا أنها تصمم على صفة البرود الذي لا يلهب الهجوم حماسها فتخرج ما لديها، لكن الحقيقة أنه لا يوجد أي شيء، وعلى كل المتربصين أن يتابعوا القصة التي لن تؤول بأي نتيجة.

اسمحوا لي وبقليل من العقل والتأمل، أن أرفض هذا الهراء التافه، الذي من الأساس لا يوجد عليه أي دليل

الصحفي الشامخ (محمد الباز) كم بدى صغيرا صغيرا وهو ينشر مثل هذا البله والعبط والخطل على صفحته، الذي يضحك عليه كثيرا من العقول.

وحدهم هم من يشبهون الباز، ويحقدون على رشدي، من صدقوا مثل هذه الفرية، وصفقوا لها وأسعدتهم جدا ورددوها في كل مكان.

ولا يدري هؤلاء الحمقى، أنهم يضعون أنفسهم في مرمى البُله المغيبين

كل من يردد هذه الفرية ويصدقها، إنما هو ساقط منحل القيم فاقد المروءة لا يعرف معنى الإنصاف ولا شرف الخصومة.

مت بغيظك أيها الكاذب، فلن تصنع شيئا في تغيير مكانة الشيخ رشدي، وجماهيريته الهائلة التي تحقدون عليه بسببها.

كل من يهلل للحادثة فتش في قلبه، تجده أحد رجلين، إما حاقدا على الإسلام، أو جاهل يحركه المزاج والهوى، ويحب تصيد الشبهات للمشاهير حتى يكون في نظر نفسه من أصحاب الرأي.

حاولت كثيرا وعلى مدار أشهر متتابعة، أن أعرف لماذا يكره البعض عبد الله رشدي وخصوصا ممن لا يحسبون على التوجه العلماني.

فرأيت أراء هاوية وحججًا صبيانية، وكلاما خاويا، لا قيمة له ولا اعتبار في تقييم الرجل وتكوين الحقيقة عنه.

ملحوظة مهمة جدا، ليس عبد الله رشدي أول من لفقت له مثل هذه التهمة فقد سبقه إليها كثير من العلماء وأصحاب المواقف الدينية المتينة، فهي ليست جديدة على خصوم رتعوا في خسة النزال، وحقارة المعركة.

ولا أجد أروع من تعليق معالي اللواء والكاتب الأديب رؤوف جنيدي حينما قال:

"عندما تفلس العقول فى المحاججة الفكرية . يلجأ أصحابها إلى استخراج التهم المعلبة وأقذرها التهم الجنسية التي تجد رواجاً على ألسنة السفهاء وانتشاراً فى عقول الحمقى والبلهاء . فو الله لرشدي بنزواته

التي أنكرها عليه جملةً وتفصيلاً . أفضل عندي من الواقفين على سجادة النفاق والرياء . هم اللاهثون إن حملت عليهم واللاهثون إن تركتهم "

أجزم مع كل يوم يمر من هذا الزمان، أنه عجيب غريب يرمينا كل لحظة بالمدهشات، التي كان آخرها تلك الدعوة لتشويه صورة الشيخ الأزهري، والشاب النابه الموهوب، (عبد الله رشدي) الذي يجسد اليوم وحده، مدفعية ثقيلة تصب لهيبها على خصوم الإسلام، بل يجسد وحده بما أوتي مقدرات العلم، جهدا عظيما يعدل كبرى المؤسسات العلمية، وجيشا عرمرما يرعد جحافل العلمانيين والملحدين.

وقبل الخوض كثيرا في عمق هذه السطور، أحب أن ألفت لشيء مهم في قصة الشيخ عبد الله رشدي، وهي أنني ومن خلال متابعتي الدائمة له في محاوراته ومناظراته مع العلمانيين واللادينيين، تبين لي أن هذا الفتى ليس شيخا عاديا، ولا أزهريا تقليديا، فهو عقلية حباها الله عز وجل قوة الحجة، ودقة البرهان، والقدرة الفائقة الغائرة على قهر الخصوم الذين أعيوا كثيرا من العقول، بل ووضعهم في صورة محرجة، أضحكت الدنيا عليهم.

شاهدت هذا ولمسته في عبدالله رشدي، حتى تأكد بحس العلم، أن هذا الفتى ملهم حباه الله بسداد ومعية من عنده، لا تتوفر لدى الكثيرين.

هذا ما رأيت.. ونأتي هنا للخيبة الثقيلة، حينما أرى متدينين يمقتون الشيخ ويعادونه، وينعتونه بصفات الشر، ويظنون فيه ظنون السوء، ويعدونه ضمن منظومة المؤامرة على الإسلام، إي والله هكذا يعدونه.

فمنذ أيام ناقشت كاتبا محسوبا على فريق التدين، ممن يمقتون الشيخ عبد الله، وحاولت جاهدا أن أصل لعين الخطأ الذي ينتقده فيه، فتبين لي أن المشكلة نفسية لا أكثر، لكنني دهشت به حينما أكد لي في فلسفة كسيحة مهترئة، أن الشيخ رشدي طرف من أطراف مؤامرة الإلهاء، فإبراهيم عيسى ينتقد ويثير الشبهات، ورشدي يقوم بالرد، حتى يتلهى الناس ويتيهون، وتأخذنا دوامة الشبهات.

وهنا قلت: سبحان الله، أحينما يشمر الرجل عن ساعد الجد، ويؤدي دوره كداعية وعالم، يحصن المجتمع المسلم من رِيب المرجفين، ويؤدي دوره في رد المنكر والامر بالمعروف، أيكون ساعتها شريكا في المؤامرة؟!!

هذا تفسير عجيب، ونقد لا يرضاه الله ورسوله، ولا يقره الفهم المنصف السليم لواقع داعية يؤدي رسالته على أتم وأكمل ما تكون.

ويبقى سؤال مهم لمن أثار هذه الشبهة: ماذا لو لم يرد الشيخ رشدي؟ ماذا لو لم يبدع في دحر خصوم الإسلام؟!

هل يرضيك أن يستمع الناس لهذه الشبهات، ويؤمنون بها لتصدهم عن سبيل الله؟!!

بل ماذا لو صمت الشيخ عبد الله، وأراد كاتب مثلي أخذته الغيرة على دينه ليرد عنه، أتتهمني ساعتها بأنني ضمن مؤمرة؟!!

أترى يا صاحبي إليّ الآن؟

انظر إليّ هذه اللحظة، فأنا هنا من أتهمك أنت بأنك شريك في المؤمرة على الإسلام، حينما تريد أن تُخرس صوتا صداحا من أصوات الحق.. بعض أصحاب العقول الخفيفة، إذا ذكر الشيخ رشدي، يرمينا بصورة له أيام الانتخابات، وهو يؤيد مرشحا ضد تيار لا يروق له.. فماذا تقول إذن لو أن الشيخ قد غير الآن رأيه ووجهته؟ ماذا تقول لو أن الظروف مثلا قد فرضت على الشيخ وقتها وأكرهته أن يفعل ذلك؟!

بل هل ترى الشيخ رشدي اليوم من جملة الشيوخ الذين ينافقون و-يطبلون- ويداهنون، حتى تريد إسقاطه الآن من ساحة الحق، وهو فارسها الأول.؟!

في رثاء أديب الدعاة

شعور كبير بالغصة والألم حينما يرحل عالم من علماء الدين المعتبرين المحترمين، الذين يوقرون علمهم فلا يبيعونه بعرض الدنيا الزائف الزائل أو يبتغون به وجه سلطان أو يتزلفون به لحاكم من الحكام..

حزن كثيف ينتاب كل غيورٍ على دينه يحمل همومه ويعيش لقضيته حينما ينقص الإسلام بصوت من أصوات الحق المؤثرة ، التي تهب حياتها للدعوة والدفاع عنها وبعث نور الإسلام في ربوع الدنيا ..

ولعل هذا المشاعر كلها ما وجدت أثرها في نفسي حينما أتانا النبأ المفجع قبل عام بوفاة شيخنا وأستاذنا العلامة الدكتور (محمود عمارة) طيب الله ثراه ..والذي افتقدته كثيرا وشعرت في موته أن الدعوة حقا قد تيتمت وسقط رائد من روادها الكبار ومنظر من منظريها الأفذاذ .. مر على رحيل عالمنا الكبير أكثر من عام ومن يومها وقلمي ينازعني أن أكتب عنه وأعبر عما يجيش به وجداني تجاهه .. لكن نفسي من جهة أخرى كانت تتمنع علي.. لأنها تدرك أنني مهما كتبت ومهما أبدعت.. فلن أصور حقيقة الرجل الكبير أو حتى مجرد الحوم حول ملامحها المضيئة.. ولكن ما عساي إلا أن أكتب شيئًا صغر أم كثر.. لأثبت وفائي وحبي لشيخي الجليل ..لقد شاءت لي الأقدار أن أقترب من الراحل العظيم، وهو شرف كبير أن يحظى الإنسان بصلة وقرب هذا العالم الكبير والداعية الأصيل ..ولكوني أزهري الدراسة وأمتهن العلم وأمارس الدعوة ..ولكوني أنتمي لشباب الصحوة الإسلامية وجماعاتها الدعوية ،فقد كانت حفاوتي وتقديري به أعظم وأعمق.

دنوت من هذا الاسم الفذ الذي كان ملء السمع والبصر ، ويعرفه القاصي والداني ، وتعرفت عليه من قرب وجلست إليه كثيرًا وصحبته في دروسه وحلقاته العلمية، ولزمته بكلية أصول الدين في مجالس علمه بين طلبته ومحبيه ، فما وجدت إلا أبا حنونًا ، ورجلا راقيًا، وخلقًا عاليًا وذوقًا رفيعًا وفكرًا ثاقبًا وعلمًا غزيرًا وقارئًا حكيمًا وأديبًا عظيمًا لا يشق له غبار.. لم يكن الدكتور عمارة رحمه الله عالمًا كهؤلاء العلماء التقليديين الحرفيين الذين يخرجهم الأزهر، وإنما كان مفكرا بمعنى الكلمة ، يحمل بين ضلوعه قضية ، ويقدم في حديثه رسالة ، ويبعث بين تأملاته غاية ..استطاع أن يصوغ الفكر ويقدم العلم ويعرض الدعوة في أسلوب أدبي فريد أخاذ، وتناول العلم الذي كان بين أيدينا وتعرفه عقولنا فإذا به يخضعه لعملياتٍ من التحليل والاستنباط ويعيد كشفه مرة أخرى ..ليقدم إلينا شيئا لم نسمعه من قبل ، ونسير معه كالعميان الذين يمتلكون بين أيديهم كنوزا لا يدرون عنها شيئا ..حتى يأتي هو ويكشف عنها الغبار ويرينا بريقها الخافي.. امتلك رحمه الله صوتا قاهرا جذابا جعل كل من سمعه أو تلمس مخارجه أن يقف عنده منصتا مأخوذًا في دهشة وجلال، هذا الصوت الندي الذي امتزج بأدب البيان فأخرج صورة أسرت لب السامعين فطرقت مشاعرهم وأيقظت وجدانهم..!

ولعلي هنا لا أبالغ إن قلت: إن إذاعة القرآن الكريم في مصر والمملكة العربية السعودية تعد محظوظة لأنها تملك أرشيفًا ضخمًا لهذا المفكر الكبير والأديب الفريد صاحب الصوت العذب والأسلوب الرشيق المؤثر، الذي كان من أوائل من عرض الدعوة بأسلوب أدبي وبيان ندي ،فكان له تميزه وإشراقه وإطلالته التي رفعته عن غيره من العلماء الكبار ..وحينما بدأت أحاديثه تنساب في إذاعة القرآن الكريم بمصر بدأ الناس يعرفونه وبدأ عشاق الإذاعة ينتظرونه ويحرصون على متابعته والانصات لهذه الموهبة المتألقة التي يحملها لهم هذا الأثير.. حتى أن بعضهم ذكره يومًا أمام أديب الأزهر الأكبر وشاعره الضخم الدكتور (حسن جاد حسن) رحمه الله فرد قائلا : إنني أعرفه وأتابعه وأستمع إليه في الإذاعة.. إنه ليذكرني بالأدباء الكبار ..يذكرني بالرافعي وطه حسين..!

رحم الله شيخنا الجليل فما زلت أتذكر هذا التكريم الكبير الذي كان يمنحني إياه ويخصني به حينما كان يتصل بي ويطلب مني أن أبحث له في شيء معين من قضايا العلم لأنه يكتب فيه مقالا أو يعد فيه بحثا ..أو كتابا نادرا لا يتوفر لديه ويريد مطالعته ..كنت أرى هذا تقديرا كبيرا وثقة غالية ، ولابد أن أكون على قدرها فآتيه بما طلبه مني.. كما كنت أسبق الناس حصولا على الطبعات الأولى من كتبه، ومن أوائل من يقرأها لأناقشه فيها وأنعم بحواره وأستزيد من معين علمه ..

لقد كان تأثري كبيرًا به رحمه الله في العلم والفهم والقراءة والتعامل مع النصوص والطريقة في الكتابة.. وأذكر أن أول كتاب ألفته كان تحت عنوان (الرفق واللين طريق الداعين إلى قلوب الغافلين) كان بنفس الطريقة التي يصيغ بها الراحل كتبه ومؤلفاته في الدعوة، حتى أن أحدهم تصفحه يومًا وقال لي: إن فيه قبس من روح الدكتور عمارة رحمه الله..!

ولعل هذا هو حال كل من تتلمذ على يديه رحمه الله حيث يتجاوز التلميذ مرحلة التلقي على يديه، لينتقل بسرعة إلى مرحلة التقليد والمحاكاة والرغبة الملحة التي تدفع النفس إليها دفعًا لتقليده في طريقته وأسلوبه .. ولكن أنى للمقلدين وهيهات للمحاكين ..فقد كان الراحل ألمعيًا عبقريًا في كل شيء.. في حديثه وصوته وتصانيفه وصياغته وأدبه وعناوينه وتأمله للنصوص ورؤيته لما وراء السطور..!

عاصر رحمه الله موجة التطرف والإرهاب التي ضربت مصر فملأت ساحة الدعوة بالشباب المتشدد والعناصر التي بدلت منهج الدعوة وكفرت المجتمع وحملت السلاح على الأبرياء وعنفت الأمة في الأمر والنهي ..!فما كان منه إلا أن قام بدوره الكبير في التصدي لهذا الانحراف الذي ضر بالإسلام وشوه طريقه ولم يقدم له مكانة أو يحرز له نصرًا ..فأخرج رسائله القوية التي ترفض هذا المنهج وترد أصحابه لجادة الحق والصواب وتطالبهم بالكف عن أفكارهم التي تخالف الاسلام وتؤذي دعوته، فألف كتابه القيم (من الذي يغير المنكر وكيف؟) ثم أتبعه بكتابه (من أجل حوار لا يفسد للود قضية) وثالث سماه (نحو أسلوب أمثل للدعوة إلى الله).

وربما يظن بعض الناس أن (محمود عمارة) كان عدوا للتيار الاسلامي وجماعاته الدعوية أو أنه كان أداة للسلطة في ضرب هذا التوجه.. وأبدا ما كان هذا ولا ذاك.. ومن يدعي ذلك جاهل بقدر الرجل مفتر على مواقفه وتاريخه بدعوى لا سناد لها ..فلقد كان رحمه الله تلميذا لشيوخ هذا التيار ومحبا لرموزه وأكثر الناس تقديرا لمكانتهم ودورهم في سبيل الله ..لكن الاشكال كله أن جل انزعاجه ورفضه وحربه كانت على أولئك الشبان المتشددون المتنطعون الذين ينتسبون لهذه الجماعات حين أخذهم الحماسة فنفروا الناس من دينهم وأهالوا التراب على أئمة وعلماء لهم في خدمة الدين سبق عظيم وبلاء كبير ..!

كان رحمه الله يعشق تفسير الظلال للشهيد سيد قطب ويقول أمامي: (إن مؤلفه عظيم وشهيد وتفسيره أكثر التفاسير تأثيرًا في نفسي) وكان رحمه الله في المحنة الأخيرة التي ضربت التيار الاسلامي بعد ثورة ٢٥ يناير مناصرا مؤيدا مصوتًا للحق وأهله، ولم يمنعه مانع أن يعلن رأيه أو يخفي توجهه ..وهو ختام من الله عظيم لهذا الرجل المخلص في الوقت الذي ضل فيه أئمة كبار ومعممون مشهورون..!

كان رحمه الله يؤمن إيمانا قوية بالكلمة وأثرها في الهداية والتوجيه والتأثير ونفعها للإسلام تماما كنفع المجاهدين الذين يحملون السلاح ويواجهون أعداءه ويوسعون رقعته حيث يقول : (إن داعية ما قد يلقي عليك محاضرة ممتعة عن فضائل الجهاد فتسمع.. بل تستمع.. بل تستمتع ثم تشرع قلمك أو لسانك لتكتب ما أفدت منه من صور البيان وروعة الأسلوب ، ولكن داعية آخر يحملك بحرارته وحسن سيرته ..ونقاء سريرته علي أن تبحث عن السلاح لتنطلق إلي ساحة المعركة حاملا روحك علي كفيك.. إن الداعية الاول والداعية الثاني شركاء في أصل الإيمان ..لكنهما يختلفان في طريقة الدعوة فواحد يعتمد علي بيانه وآخر يعتمد علي عمله.)

كما كان يؤكد دومًا على مسؤولية الدعاة والعبء الملقى على أكتافهم وما يجب أن يكونوا عليه بما يليق من أمانة الدعوة والعلم فيقول : (ما أكثر الدعاة الذين ينزلون ساحة المعركة اليوم ...غير مسلحين بما يجب عليهم من الحكمة والفطنة ..فكانوا عبئا عليها بما مكنوا الماكرين الأذكياء منهم ..ولقد خدع بهم الدهماء خداعا يتحمل وزره الأدعياء.)

وإذا أردنا الاقتراب أكثر وأكثر من شخصية الراحل الكبير دكتور محمود عمارة والتعرف على هواه ومنهاجه.. ما علينا إلا أن نتعرف على شيوخه ونسأله عنهم ..فقد كان أحبهم إلى قلبه وأقربهم إليه هو المجاهد الكبير فضيلة الشيخ (محمد الغزالي) رحمه الله ،والذي كان عمارة يعتز لأخر رمق في حياته بتلمذته على يديه ويعبر في كل مناسبة بيده عليه وحبه له وأثره فيه.. وأذكر أنه قال لي يومًا : كنا ونحن طلاب إذا سمعنا أن الشيخ الغزالي سيلقي في محاضرة في بلد من البلدان أو محافظة من المحافظات البعيدة نشد إليه الرحال، ونتجشم عناء السفر البعيد حتى نحظى بسماعة والإنصات إليه ..كما حدثني يومًا عن سعادته بثقة الشيخ الغزالي العلمية فيه فقال لي : كنا نعمل معًا في جامعة أم القرى بمكة المكرمة وكان الشيخ الغزالي يؤلف الكتاب ثم يعطيني إيه ويقول لي: أريد ملاحظاتك عليه، فكنت أقرأ وأجد أشياء ربما تجلب بعض الضرر أو الحديث عن شيء يجب اجتنابه، أو تثير مشكلة ربما تكون الدعوة في غنى عنها.. فأتصل به وأقول له: يا مولانا أرى أن النقطة الفلانية قد تأتي بكذا و هذه قد تثير كذا ..فما كان منه إلا أن يقول لي: يا محمود احذف احذف.. كما أخبرني أيضا بقوله: حينما أسند إلي مجمع البحوث الاسلامية (هيئة كبار العلماء) مراجعة المواد العلمية لبعض المنتجات الفنية وشرائط الكاسيت للدعاة والمحاضرين الدينيين ، كنت وعلى الفور لا أعترف بأي مادة علمية و ألغي أي صوت ينتقد الشيخ الغزالي أو يسيء إليه.. أما المرة الوحيدة التي رأيت شيخنا وقد بلغ به الفرح مبلغه.. وذلك حينما أهديته كتاب الدكتور يوسف القرضاوي الذ ألفه عن الشيخ الغزالي تحت عنوان (الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن) وأقسم

بالله أنني ما زلت أتذكره في هيئته وصورته وهو في قمة فرحه وهيامه بهذا السفر الرائع عن شيخه وأستاذه، والذي لم تقع عليه عينه من قبل فكان يحمل الكتاب في رقة وحنان تماما كما تحم الأم رضيعها الصغير في حنان وإشفاق وعطف كبير ...رأيته بهذا الإشراق وكنت حريصا على ترقب ملاحه ، فما وجدته إلا وقد غاب عنا بفكره وشرد بخياله موغلا في صفحات الكتاب ، ثم استأذن منا حتى ينفرد به ويعيش مع سطوره ...أما أنا.. فكنت أرى نفسي قد صنعت شيئًا عظيمًا حينما أدخلت السرور على قلبه وأتيته بما تهواه نفسه ويعشقه هواه.

لقد كان رحمه الله في أواخر حياته يسابق الزمن في عمله الدعوي، كان يدرك أن النهاية قد قربت، وأن الطريق قد أوشك على الخلاص .. فكان يجتهد في خدمة الدعوة في كل مكان وبكل لون فيسارع لبث الاحاديث الإذاعية ويلبي الدعوة للمحاضرات والخطب الدينية ، ويعكف على إنجاز كتبه ونشر ما لديه من أضابير العلم والفكر التي سجلها منذ شبابه ، ثم يواصل القراءة المتأنية العميقة بالساعات الطوال. كان يريد ويتمنى أن يترك شيئا ينفع الناس ويكون ذخرا له عند الله سبحانه ..ولعلنا نشعر بهذا حينما نقرأ ما كتبه يومًا وقال فيه:

)هذه الحياة كتاب ضخم.... لم يقرأ الطفل منه الا سطراً واحداً.. أو هي رحلة طولها ألف ميل ..لم يمش منها إلا خطوة واحدة ...فلا بد من العمل ..)

كنت أراه رحمه الله يمشي في الشارع ويحمل بين يديه أوراق كتبه و مقالاته قاصدا مكتب التصوير، فكان ما أبهاه وما أجمله وما أجله ..كنت أتمثله نبيا يمشي على الأرض، ولو أدرك الناس قيمته كما ينبغي لحملوه على هاماتهم فلا يقترب من الثرى، بل لبادروا بتقبيل قديمة قبل يديه .. !

وها هو يرحل عن دنيانا ولا يترك من يسد فراغه أو يتناول تناوله ويكون صورة أخرى مثله ..تماما كما رحل شيخه الغزالي ولم يترك شبيها له في قوته وعلمه وغيرته على الحق ...! ولعلنا نجد لأنفسنا عزاء حينما نقول : أن الدكتور (محمود عمارة) لم يمت وأنه موجود بيننا بعلمه وتراثه وصوته وكتبه القوية النافعة، التي طلعت على طلاب العلم فشغلتهم وأفادتهم وأثرت فيهم بما حوت من رؤية جديدة واستنباط فريد.. لقد كان الشيخ رحمه الله مدركًا لعلل الدعوة بقوة والأخطار التي تواجهها من داخلها قبل خارجها وكثيرا ما أشار إليها ولفت لضررها ونوه بآثارها السلبية المجحفة ، وكانت كل كتبه تحمل هذه الهموم وتشير إليها وتعالجها تواجه منابعها بعيدا عن العنف والتوبيخ والتجريح ، مؤمنا بالحوار كأبلغ أسلوب يعرض الداعية من خلاله مقصده ويبين غايته ..وهو ما جعل كثير من الشيخ المشهورين يوصون بكتبه لتلاميذهم حتى يبصرونهم بعلل الطريق ولا ينجرفون إلى سبل تضر دعوتهم ودينهم..

وبعد هذه الرحلة الطويلة مازال هناك بعض الكتب لم تر النور للراحل الكبير مخطوطة بخط يده.. منها تفسير دعوي كامل للقرآن الكريم ، وكتاب قوي التأثير تحت عنوان (من مواقف العلماء والأمراء) نسأل الله أن يتم طباعتها ونشرها حتى نتم رسالة الرجل ونوصل آخر قطرات من فكره وعلمه إلى تلامذته ومحبيه في كل مكان...

رحم الله شيخنا الدكتور وقدس روحه ونور ضريحه ونفع بعلمه وأمد ثوابه.

رحيل المقاتل الجسور

تلمح بدقة أن من يتخرجون من كلية اللغة العربية الأزهرية يكونون في كثير من الأحيان، أشد وأقوى من ينافح عن الإسلام ويصد عنه، يتفوقون في هذا الميدان حتى على العلماء الذين تخرجوا من كلية أصول الدين أو كلية الشريعة.

تلحظ هذا حينما تتعرف على أحدهم فتعلم أنه خريج كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وكان منهم العلامة الكبير محمد رجب البيومي والإمام الراحل محمد متولي الشعراوي، وكان اليوم خاتمتهم فضيلة العالم الجسور وسيف الله المسلول د- إبراهيم الخولي رحمه الله، الذي شاء القدر أن نعاصره ونرى على يديه مصارع القوم من بني علمان.

وأنت يا مسكين قد تحسب أن موت الدكتور إبراهيم كموت رجل عادي، لكن زمرة الضلالة تعلم وتدرك بعمق فداحة النبأ وجلبة الحدث، وأنهم اليوم في قمة انتشائهم، لأنهم يبصرون الساحة الإسلامية وقد فقدت ركنا أصيلا من أركانها وحارسا يقظا من حراسها، وجنديا شديد المراس عنيف الطعان من جنودها المخلصين.

فقد حبا الله سبحانه الدكتور إبراهيم قوة الحجة، وصولة البيان، وترتيب الأفكار، وطلاقة التعبير، والثقافة الواسعة الغزيرة، التي أعجزت خصومة، وهم يرون أنفسهم أمام عملاق كبير. وفوق ما كنت ترى من قوة حجته، وروعة علمه، كنت تشعر بروعة الاستماع إليه بما يأسرك به من نبرة الصوت التي تشع قوة وثقة وصقلاً وحضورًا.

وصدق سيدنا الدكتور النبوي شعلان، والذي حدثني بقوله: إننا في مناسبة اليوم العالمي للأزهر انتشرت جملة (أزهري وأفتخر) ومع مناسبة موت الدكتور إبراهيم لعلنا نقول: لا يكفي أن تفتخر بالأزهر، بل ما أجدى أن يفتخر بك الأزهر. وصدق شيخنا النبوي، فالعلامة الخولي من الشخصيات العلمية الفريدة، والعقليات الفكرية النادرة التي يعتز بها ويفخر بها الأزهر.

الدكتور إبراهيم الخولي لم يكن من الشخصيات الشهيرة شهرة الشيخ الشعراوي مثلا، ولا يعرفه الكثيرون من أبناء مصر، لكنك ومع الاستماع له ولو بحلقة واحدة تدرك أنك أمام شيء هائل جبار، وأمام رجل ليس بهين، وأمام كتيبة من العلم والفهم يصعب هزيمتها أو التغلب عليها من أعدائها.

ولقد كان من عوامل دهشتي الكبيرة هذا التحول الكبير في حياة هذا الرجل العملاق، وكذلك تصيبك الدهشة حينما تعلم أن هذا الرجل الذي يمثل اليوم سيفا حادا من سيوف الإسلام القاصمة، كانت له وجهة أخرى ومأرب مغاير.

يحكي أستاذنا الجليل دكتور محمود خليل في إحدى لقاءاته مع الدكتور إبراهيم فيقول:

"ومن أطرف هذه اللقاءات.. أنني قسوت مرة بشدة علي الجليل العلامة الفارس د إبراهيم الخولي.. إذ قلت له: إنك كنت أحد أمهر العرابين لكل ما تهاجمه وتسحقه اليوم؟!

فانتبه بكل تحفز، وأشار بسبابته التي مدّ بها ذراعه إلي السماء متسائلا: كيف ياغلام؟!

(لقد تزببت وأنت حصرم)؛!!

فقلت له: لقد كنت محاضرا تثقيفيا ماهرا بالتنظيم الطليعي، وكان من طلابك المناوشين لك الطيار صلاح شعيب (ابن شقيقة الأديب عبد العال الحمامصى) وكذلك أخبرني أخي الأكبر المهندس فتحي خليل ، أنك وحسين كامل بهاء الدين المعيد بكيلة الطب، ورفعت المحجوب المدرس بالحقوق، وجمال هدايت.. كنتم جميعا من الكوادر التثقيفية بالتنظيم الطليعي، وأنتم الذين حقنتم الشباب، ودجنتموهم بما تحاربونه فيهم اليوم، فإذ بالجليل العلامة الفارس.. يشيح بظهر يده ملوحا في الهواء، قائلا بصوته النحاسى العذب الجهير:

كنا حميرا كباراً، أيها الجحش الصغير

وضجت الجلسة بالضحك المشبع القرير

وأبى الكبير إلا أن يكون كبيرا."

ودعك من روحة الطيبة وجميل فكاهته في تعقيبه على كلام الدكتور محمود، ولكن انظر واشخص ببصرك لمراد الله وفضله على هذا الرجل، حينما خرج من هذا المستنقع الآسن فلم تتلوث نفسه بشبهاته وأمراضه وقذاراته، ومن عليه بإخلاص الوجهة والعمل في سبيل الله، وخدمة دينه والدفاع عن هويته.

كنت أتمنى من الأزهر أن ينعيه ببيان خاص، لكن حسنا فعل رئيس جامعة الأزهر د- سلامة داوود في نعيه ورثائه الذي فاض حبا و وفاءا من تلميذ لأستاذه.

من الذي أهان العمامة؟

سعيد أنا جدًا أن يخرج في الأزهر من يُمثل واجهة مشرفة لعلمائه ويعبر عنه أمثل تعبير فيتكلم باتزان وحكمة ويعرف ما يقال وما يقصد وما يراد منه وما يريده هو.

كان هذا هو الانطباع العام الذي قرأته لأحد كتاب جريدة الوطن تلك الجريدة التي تنتهج خط روز اليوسف في الاستهانة بالدين وشيوخه على يد الكتاب المتغربين المنفلتين، مما يجعلني أقر بأن ما نقرأه على صفحاتها من إشادة بعالم أزهري شيء مبهر وتطور كبير وإنجاز غير مسبوق.

الكاتب هو الأستاذ (حسين القاضي) أحد كتاب هذه الجريدة المعروفة، وقد جاء مقاله تحت عنوان "المفتي في ضيافة صالون حداد" الذي تديره الدكتورة آيات حسين حداد عضو مجلس النواب.. أقيم الصالون في رحاب مسجد عمرو بن العاص، ودار النقاش حول الفتوى ودورها في تحصين الأفكار، كان الكاتب معجبًا جدًا بالخطاب المتزن للمفتي الدكتور نظير عياد، ورأى من وجه نظره أن ما نطق به يمثل عقلا فريدًا يمكن أن يجسد أفضل صورة للعالم الأزهري.

ثم طرح نقطة مهمة حينما قرأتها وجدت في نفسي انفعالا كبيرًا ورغبة جامحة في التعليق والرد.

يقول الكاتب الألمعي: " وأول ما لفت نظري هو حرص فضيلة المفتي على الحضور في موعده، وسمته الجميل، وأسلوبه اللين، الذي يليق بالعلم والعلماء، وهذا يعطي انطباعا إيجابيا، في التأكيد على إعادة الثقة في المؤسسات الدينية، لا سيما أن الجماعات المتطرّفة تحاول هدم الثقة بين الناس وبين مرجعياتهم الدينية، وهي محاولات فاشلة".

ثم يقول: "وهو ما يدعونا لأن نكرر الدعوة إلى الحفاظ على مرجعية الإفتاء، لأن الحفاظ عليها نوع من الحفاظ على الوطن"

وهنا ومن هذه النقطة تحديدًا كان لابد لي من التعليق والحديث وتوجيه اللوم في وجهته الحقيقية لا الوهمية الزائغة، فنقول للكاتب المحترم: الجماعات الإرهابية لم تكن وحدها من هدمت مرجعيات الناس الدينية وعملت على تشويه صورتهم كما تقول، فمن قبلهم وكان أنجح منهم أثرًا هو الإعلام والدراما المصرية ومنذ عقود مضت، حينما كان الشيوعيون والملحدون يحتلون منصات التوجيه والإرشاد في بلادنا، فعملوا على إظهار شيوخ الدين وعلمائه بمظهر السخرية والاستهزاء.

ففي كل فيلم أو مسلسل يعرض تستبيح مشاهده عرض العلماء وتنال من شرف العمامة وتهين شموخها في الوحل، حتى صارت العمامة رمزا للمسخرة والهزأة لكل من يرتديها، وإذا لبسها العالم تبادر إلى ذهن

العامة ممن يرونه في الشارع صورة الممثلين أمثال حسن مصطفى وعبد المنعم إبراهيم والذي تخصص ببراعة في ربط العمامة والزي الأزهري بأوضاع كوميدية ساخرة، استطاعت أن تسقط هيبة الزي والعلماء في أنظار المشاهدين.

وأنا أتساءل دومًا هل يمكن للمسيحيين أن يفعلوا ذلك بزي القسيس ويظهرونه بمظهر السخرية والاحتقار؟ إنني أرى منهم كل توقير واحترام إلى حد لم ينل علماءنا نصفه أو ربعه.!

كيف سمحنا للسفلة الفجرة أن يهينوا الزي الأزهري في الأفلام الساقطة والمسلسلات الهابطة التافهة؟

كان الأجدر بالأزهر قديمًا أن تكون له وقفة حازمة ضد هذا الهزل الذي يمس شرف العمامة وكبرياءها.

بل انظر مؤخرا للمنحطين -الحوش- الذين تعمدوا إهانة الشيخ الشعراوي ومس مكانته في قلوب الجماهير، ونعته بأقبح الألفاظ والنعوت غيرة منهم وحسدا على الحب المتدفق الذي علق في قلوب الناس تجاه الشيخ.. ألا يلفت نظرك أيها الكاتب أن هذا أيضا هدم للمرجعيات والرموز الدينية وذبح لمكانتهم العالية؟ ألا يستحق هؤلاء الهمل كلمة نقد منك؟!

ولكن دعك من الإعلام وغيره الآن، ولننظر أيها الكاتب المجيد للجريدة التي تكتب فيها هذه السطور الطيبة، انظر إليها وهي تضم أحقر الأقلام التي تناصب الدين العداء، ويمكن لها أن تسمع الرعد ولا تستمع إلى عالم دين، وتُسخِر مدادها ومقالات كتابها ليل نهار في الكيد للدين وعلمائه.. كان الأولى أن توجه اللوم لمثل تلك الجريدة، قبل أن توجهه للجماعات الإرهابية! في الحط من هيبة رجال الدين والمرجعيات.

كان الأولى أن توجه اللوم للإعلام المصري العريق الذي غذى أدمغة المصريين بصور السخرية والاستخفاف والاحتقار والاستهزاء بالشيوخ.

الجماعات الإرهابية لا تتحمل ثمن أو سدس إهانة الإعلام المصري للرموز الدينية، لكننا الآن بدأنا نفيق وندرك على قولك أن احترام الفتيا والمرجعيات الدينية نوع من الحفاظ على الوطن.. سيعد أنا جدا بهذا الكلام.

قبلت اليد المعجزة

مما اعتز به أنني قبلت يد المفكر العظيم الدكتور محمد عمارة، وقبلت يد العالم الداعية الأديب الدكتور محمود عمارة، وقبلت يد سيدنا الجليل العلامة القرآني الدكتور محمد بكر إسماعيل، وقبلت يد مولانا فقيه المسلمين العلامة حسن أيوب.

وقبل كل هؤلاء قبلت يد أبي، الذي هو صاحب الفضل على في كل شيء.

وما من عالم أحببته حبًا واعيًا إلا وأول شيء يتبادر من عاطفتي وأرتجيه تجاهه، أن أقبل يده إكراما له .. لكنني كنت ألمس في كل هؤلاء حينما أهم بتقبيل أياديهم جزعا أو إن شئت قل هربا من هذا الطقس العاطفي، فيسحبونها بشدة وكأن نارا لسعتها، أو أن أسدا متوحشا يوشك أن يلتهما، فالعالم منهم كان كان يفر من مشاعر العجب والغرور فرار الأولياء الأصفياء، ولم يكن يمد يده بسهولة لطلبته ومحبيه ممن يعرف توقيرهم له.. ولذلك فطنت أن تقبيل يد العالم من هؤلاء، كان له فن وحرفة ويعد من صنوف الذكاء والدهاء، فكنت أقْبل على أحدهم أولا بالسلام مستويا مستقيما، حتى إذا اطمأن قلبه إلى سلامة يديه من التقبل، أهوي بسرعة خاطفة لأقبلها دون أن أعطيه فرصة التفكير والتدبير فإذا به يجذب يده بقوة، محاولا منع الفعل الذي يمكن أن يشعره بعُجب في النفس لا يرضاه.

الدكتور محمد عمارة، حينما هممت بتقبيل يده خطفها مني بسرعة وقال لي: أستغفر الله أستغفر الله بارك الله فيك، ولكن مُصر.. وكان من يرانا من بعيد يتخيل أن هناك عراكا دار بيني وبينه، أو أنني لص أراد أن ينتشل سيئا من يده، رفع يده لأعلى وفمي وراءها لا يتركها حتى تظن أن بيني وبينه شد وجذب، لكنني استطعت تقبيلها وأن تلامس يدي هذه اليد المعجزة التي دكت حصون العلمانيين واليسار وخصوم الإسلام، قبلت اليد العملاقة التي كتبت ببنانها أعظم كتب خدمت الإسلام ونافحت في قيمه وتعاليمه ووجوده وصارت حصنًا من حصونه المنيعة عبر الزمان.. المشكلة هنا ليست في تقبيل اليد، وإنما فيمن تُقبل يده، هل هو فعلا بالمكانة التي يستحق عليها أن تقبل عليها يده؟ هل هو فعلا ذلك العالم الرباني الذي يُكافأ من الجماهير، أن تتبارك بتقبيل يديه؟

ربما يكون هناك عالم، لكنه ليس بالمكانة التي نمارس معه عَبرها هذا الطقس العاطفي ولا يستحق هذا التشريف.

ثم هناك فرق كبير بين عالم يسحب يده وتراه ينزعج من تقبيلها فيقابلها بحرج وانزعاج وهروب، ومن يمدها لكل الراغبين مع ارتفاع قامة وانتصاب جبين وعلو أنف وانتفاخ عين وكأنه إمبراطور الدنيا.

كان الشيخ محمد الغزالي يخطب في جامع عمرو بن العاص، وبعد الخطبة، وأثناء خروجه حاول البعض تقبيل يده، فاعتذر بأدب، وامتنع بلياقة، وفي الجمعة التالية، وفي نهاية الخطبة تناول هذه النقطة برفق، وعبر عن تقديره لحب الناس له، لكنه لا يروقه أن يأخذ هذا الحب ذلك المنحنى الخطير.

ولا تحسبن أن الصوفية يربون مريديهم على هذا التصرف التوقيري، فمؤخرًا زرت سيدنا الجليل عميد كلية اللغة العربية الأسبق فضيلة الدكتور محمد عبدالرحمن خضير، وهممت بتقبيل يده فمنعها عني بقوة، واحتضنني بصدره، وهو يردد أستغفر الله أستغفر الله.

وهكذا دومًا سلوك كل عالم رباني قرأ كثيرًا في الزهد ومعانيه واحتقار الدنيا وخطورة العجب بالنفس على حاله مع الله أن يفسده.. وأنا هنا لا أناقش حكم تقبيل يد العلماء من عدمه، لكنني أقول: هل فعلا أن من تقبل يده ممن خدموا الإسلام، وكافحوا على جبهاته، ووقفوا في وجه أعدائه، أم هو مجرد شيخ لا يبرح محارب الذكر ولم يقدم للإسلام شيئا أكثر مما قدمه إمام مسجد متواضع.

انظر لهذا الرجل العجيب وهو العالم الأزهري الكبير الذي رحل عن دنيانا منذ شهور قليلة، وهو من رجال العشيرة المحمدية الصوفية، فضيلة الدكتور الجليل محمود توفيق سعد، لقد تكلم الرجل في مطلع محاضرته، وحذر من تقبيل يد التلاميذ لشيخهم، لخطورتها على نفس العالم الزاهد الرباني الورع أن تفسد شعوره بالإخلاص، وذكر للمريدين أنك إذا أردت بر شيخك، فعليك أن تبره لا بتقبيل يديه، ولكن باقتفاء سلوكه وانتظام أخلاقه.

أرسل لي صديقي الدكتور محمد عشماوي صورة من الذكريات القديمة، حينما كان في رسالته للدكتوراه التي نالها بتفوق، وكنت ممن شهدوا ذلك اليوم، وهم إلى شيخنا الدكتور محمود عمارة ليقبل يده، فحاول الدكتور عمارة أن يسحبها سريعا لكن محمدا كان أسبق إليها منه، فإذا بالدكتور عماره، يهوي بيده على يد تلميذه عشماوي في لطف وعاطفة وامتنان، وكنت تشعر وأنت ترى المشهد، أن ولدًا يقبل يد أبيه، والأب يقبل على يدي ولده بحنو بالغ وإشفاق حميم.

وحينما قبع في مرضه الذي رحل فيه وظل مدة عامين جالسا لا يقوى على الحراك وبه كثير من ذهول، كنت أسحب يده لأقبلها، ولم يكن يستطيع منعها أو قبضها لأن الوهن تملك منه رحمه الله رحمة واسعة.

المشهد المنكور عندي ليس من الطلاب والمريدين الذين ألفوا ذلك الفعل وتدربوا عليه، ولكن الريبة تعتريني من مشهد العالم نفسه حينما يده بصورة تحمل كثيرا من الظن بشبهة زهو، أو كأن تقبيل يده صار واجبا دينيا وفرضا طقوسيا لابد للطلاب والمريدين أن ينفذوه، وإلا كانوا مقصرين في تقديره.

مهندس الدعوة في اليابان

في مثل هذا اليوم ٨ نوفمبر من العام الماضي ٢٠٢٤ رحل عن عالمنا الداعية العملاق والمجاهد الكبير الدكتور صالح مهدي السامرائي، وكان مما حباني الله به حينما كنت أقيم للعمل في المملكة العربية

السعودية، أن تعرفت على الفقيد رحمه الله، ولم تكن علاقتي به مجرد علاقة عابرة، أو معرفة ثانوية، بل توثقت صلاتنا حتى كنت الأقرب إليه، والمطلع على كل أحواله وخصائصه، وربما أسراره ومهماته وطموحاته ورغائبه، كنت أذهب معه في كل مكان ويصحبني معه في كل لقاء.. في مقابلة السفراء والمنتديات ولقاء كبار رجال الأعمال الذين يدعمون المشاريع الدعوية، وكان يعتز كثيرًا بمعرفتي ويكبر من مكانتي، ويقدمني إلى كل من عرفه بأنني من خدام الدعوة الإسلامية بحكم عملي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وإذا ما حاولت أن أصف الدكتور صالح السامرائي فليس لي إلا أن أقول: إنني ما رأيت رجلا يعيش للإسلام ويسعى لخدمة الدعوة والتمكين لها، كما رأيت منه رحمه الله، كان مبهورا بالسوشيال ميديا ويرى أنها أعظم إنجاز عصري يمكن استخدامه في خدمة الإسلام، كان محبًا للتراث الإسلامي منقبًا عن درره الثمينة وخاصة تراث المسلمين في روسيا والأمريكتين وغيرها من البلدان التي بها أقليات إسلامية.. كان يحب الثقافة والعلم، ومولعا بالتاريخ الإسلامي، ومحييا لسيرة رجال الإسلام في العصر الحديث، كان يهديني كثيرا من الكتب والمجلدات القيمة النادرة، ويعيب علي كثيرا في جهلي بالانجليزية، ويدعوني لتعلمها وإتقانها لتنفتح أمامي كثير من الافاق.

لم يكن من السهل أبدا ان يقترب أحدهم من الدكتور صالح، ولا أن ينال ثقته ويسلم له ويطمئن، على على نحو ما وثق في واطمأن لشخصي، حتى أن كثيرا من الناس في الندوة العالمية وكان دائم الوجود بها بصفته مستشارا لها، يتعجبون ويقولون لي: كيف استطعت التقرب من الدكتور صالح إلى هذه الدرجة.

كان الدكتور صالح يحكي لي كثيرا من مشاهد الحياة وتجاربها وخبراته فيها، بل لديه تراث ضخم من هذه المعارف والعجائب التي حصلها عبر رحلاته في الشرق والغرب، لقي كل الزعماء الدينيين والدعاة المسلمين في كل مكان في العالم، وكانت لديه خبرات أكثر في معرفة الرجال وقدراتهم ونواياهم وتحليل مواقفهم، كان شجاعا طيبا ذو مروءة وإنسانية وذوق كبير.

قدم نموذجاً فريداً للعالم المسلم الذي يجمع بين التخصص الأكاديمي الدقيق والهم الدعوي العميق، ورغم تخصصه العلمي في مجال العلوم الزراعية، إلا أن بصمته الدعوية كانت أعمق وأكثر تأثيراً، خاصة في اليابان التي قضى فيها سنوات طويلة.

ولد الدكتور السامرائي في العراق عام ١٩٣٢م وحصل على أعلى الشهادات في تخصص الزراعة من أرقى الجامعات، بما في ذلك حصوله على الماجستير والدكتوراه في العلوم الزراعية من جامعة طوكيو باليابان، هذا التواجد المبكر في المجتمع الياباني هو ما شكل محور رحلته الدعوية.. أرسله الملك فيصل بن عبد العزيز عام ١٩٧٣، إلى اليابان للدعوة فيها، ولتعليم مسلميها أحكام دينهم. فأسهم في تأسيس المركز

الإسلامي في طوكيو، وتعهَّده بالرعاية، وتولى رئاسته عام ١٩٩٦، واستمرَّ في النشاط الدعوي الدؤوب هناك على مدار عقود. ويُعَدُّ المركز أقدمَ مؤسسة دعوية في اليابان، وأولَ من نشر الكتاب الإسلامي والدعوة ورقيًّا ورَقْميًّا (بوساطة الإنترنت)، وأسلم من طريقه آلافُ اليابانيين، ورعى المركز كلَّ التجمُّعات الإسلامية في اليابان على اختلافها وتنوُّعها. وهو هيئة مستقلَّة غير تابعة إلى حكومة أو سِفارة أو حزب أو جماعة، وإنما خُصِّص للدعوة إلى الإسلام الوسطي، كما كان الدكتور السامرائي أحد المؤسسين الأوائل لـ جمعية الطلبة المسلمين في طوكيو عام ١٩٦١م. ولم تقتصر جهوده على الجانب الدعوي فحسب، بل عمل على بناء جسور التواصل بين المسلمين والمجتمع الياباني، مقدماً صورة حضارية ومنفتحة للإسلام.

لم تنحصر جهود الدكتور السامرائي داخل اليابان، بل كان داعية رحالة طاف أرجاء المعمورة لنصرة قضايا الإسلام والدعوة إليه. فقد شملت رحلاته الدعوية معظم بلدان آسيا وأوروبا وأستراليا والأمريكيتين.

كما كان له دور فاعل في مؤسسات إسلامية دولية كبرى

ترك الدكتور السامرائي إرثاً علمياً ودعوياً مميزاً، تجسد في مؤلفات وبحوث وثقت تاريخ وحاضر الدعوة في اليابان وغيرها من المناطق.

حياة الدكتور صالح مهدي السامرائي كانت مثالاً للعالم الذي سخر علمه وتخصصه، رغم بعده عن العلوم الشرعية البحتة، في خدمة رسالة الإسلام ونشر قيمها النبيلة في أصعب البيئات وأبعدها، لتبقى جهوده في اليابان والعالم شاهداً على عطائه العظيم.

رحم الله الدكتور صالح وجزاه عنا وعن الإسلام خيرا، وجعل ما قدم في ميزان حسناته.

حينما تخدعنا السطور

ما أيسر أن تقبع خلف مكتبك لتصف سطورًا عن البطولة والمروءة، ليصفك الناس بأنك مثال ما تكتب عنه، وشارة ما تسطره يمينك، إن صناعة الرجال ليست بالأمر الهين البسيط، ولا تأتي بها الكتب، أو تخلقها سطور الأدب والبيان، بقدر ما يوجدها مصلح ملهم، وقدوة إمام.. كان أحد الأئمة قد شغله هذا المعنى وأدركه، حينما قال له أبوه: يا بني ألف كُتبًا لأتباعك، فقال له: يا أبت لقد انشغلت بتأليف الرجال.

كثيرًا ما ينخدع الناس في أصحاب السطور، فيتصورنهم شجعانًا وهم جبناء، ويتخيلونهم كرامًا وهم أهل خسة، وترسمهم عقولهم ملائكة وهم شياطين، وعدولا وهم ظلمة، ومن هنا كانت المواقف والمحن هي الكاشفة، التي تجّلي الحقيقة واضحة بينة، ليظهر كل إنسان بحقيقته وأصله أمام الأعين غير مكذوب أو مخدوع في أمره.

وأمامنا اليوم بطل من أبطال المداد، أبت المواقف والشدة والمحنة أن تبرهن على بطولته في دنيا الجهاد.

كان ظاهره كباطنه، وسريرته كعلانيته، وما يكتبه على صفحات الورق، يكتبه على صفحة الواقع غير مبدل أو محرف.

لقد نشأ ابن تيمية صغيرا وهو يرى الفزع في قومه وأهله فرارًا من التتار المتوحشين، الذين يقتربون بهولهم يوما بعد يوم، كان وقتها في الثانية والثلاثين من عمره، حينما دق هذا الزحف الغاشم أبوابه على الشام عام ٦٩٩هـ، لم يفر ولم يجبن، وإنما نظر إلى دوره وواجبه حتى يؤديه، وكما أسهم في نصيبه في جهاد العلم، فليسهم بنصيبه في جهاد العدو، كان رحمه الله من ذلك الطراز الذي لا يفرق بين السيف على عاتقه والقلم بين أصابعه، ونحن اليوم نُعلّم المتحدثين والكاتبين والقراء، ماذا يتناولون من حياة هذا الرجل إذا أرادوا أن يتناولوا ويتحدثوا، إنها صورة الرجل الكامل صاحب المروءة والإقدام والجلد والشجاعة، إنها صورة بطل من أبطال العلماء بل أبطال الأمة، الذين وافقت أعمالهم أقوالهم، فكان مثالا في صدق الجهاد كما كان صادق المداد، وإني لأعلم أن بعض المريبين يثيرون اليوم شكوكهم ويرمون شبهاتهم، حول بعض الآراء الفقهية التي لم يفهموا قصده فيها، حتى يعموا أعين الناس عن هذه البطولة الفذة، وإدراكهم لهذه النموذج الرباني من العلماء، حتى إذا جاءت سيرته تناسى الناس كل شيء من عظمة الرجل ولا تبقى في النهاية إلا الريبة والشكوك.

جمع ابن تيمية الناس حوله، واتفق أن يذهب معهم إلى لقاء قائد المغول حتى يثنيه عن دخول دمشق.

فدهش التتار وقائدهم من جسارة الرجل، ورباطة جأشه، فهابه هيبة كبيرة، وتأجل دخولهم لدمشق، إلا أنهم عاثوا في الأرض فسادًا كبيرا.

فعزم أن يذهب إليه مرة أخرى، فأولم لهم القائد وليمة، فأكل الناس إلا ابن تيمية، فلما سأله عن ذلك، قال: كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجارهم.

وجاءت اللحظة الحاسمة لحظة دخول دمشق، وقد أخذ الناس يفرون ويهربون، لكنه وقف يحث الناس على الجهاد، ويمنعهم من الفرار، ويرغبهم في إنفاق المال لحماية الأمة، ويحيى فيهم النخوة والشجاعة.

ظل يشعل الثورة في النفوس، حتى اجتمع جيش مصر والشام، فإذا به يمتطي الجواد ويخرج للميدان فارسًا مقاتلا، ليضرب المثل في اقتران العلم بالعمل.

يحكي التاريخ أنه كان في معركة (شقحب) وكان من أبطالها البارزين.

فيا من تهينون رمز العلم والجهاد، لماذا تغفلون عن هذه الصفحات المضيئة من حياة هذا الفذ العظيم، الذي كادكم وغاظكم مكانته في قلوب المسلمين، وتأثيره على كل من سلك طريق العلم.

الفارس الذي لا يذكره أحد

أحزن كثيرا حينما يموت عالم أو داعية كان له في الناس أثر، وفي دينه جهد وبلاء، ثم يندرس اسمه وتنطوي ذكراه، وهو ما ينطبق على هذا الداعية الرباني والعالم الصادق الذي كان من أجدر من صعد المنابر في مصر.. إن البر بهؤلاء العظماء يستدعينا أن نتذكرهم ونتحدث عنهم ونذكر الدنيا بهم وبما كانوا عليه من حسن البلاء وصادق العمل للدين والدعوة.

قدر لي والحمد لله أن أراه وأستمع إليه حينما جاء محاضرا في مطالع التسعينات بمدينة شبين الكرم، لكنني كنت صغيرا جدا لا أستوعب كثيرا مما يقول، لكن الحشود حولة كانت كبيرة مستمتعة بعلمه وحضوره وجلاء وعيه وفقهه، وما زلت أتذكر معلومة منه أعجبني ونالت منالها مني، لا أتذكر من المحاضرة الطويلة العريضة غيرها وهي قوله: (إن الإمام أحمد بن حنبل كان يحفظ مائة ألف حديث مكذوبة) هذا في المكذوب فما بالنا في الصحيح؟

إنه الشيخ الرباني والداعية الكبير الرحل فضيلة الدكتور عبد الرشيد صقر رحمه الله، الذي اشتُهر بخطبه فوق منبر مسجد صلاح الدين بمنطقة المنيل في القاهرة، والذي كان يقصده آلاف المصلين من مختلف أنحاء العاصمة للاستماع إليه وتميز بأسلوب يجمع بين الفصاحة اللغوية، والعمق الإيماني، وربط الدين بالواقع المعاصر، كانت خطبه تتسم بالحماسة والغيرة الشديدة على قضايا الأمة الإسلامية.

ولقد حزنت جدا حينما قرأت هذه العبارة لأحد مريدي الشيخ الدكتور عبد الرشيد صقر وهو يقول عنه: "عاش فقيرا يقاوم المرض ويجهر بالحق، وعندما بحثت عن خطبه ومحاضراته لم أجدها، ولا أعرف: هل أخفى الله ذكره في الدنيا ليكون ذكره عند الله وحده، أم قوله للحق أغضب الجميع منه."

ومثل الدكتور عبدالرشيد من الرموز الإسلامية الدعوية، التي لا يمكن أبدًا أن تغيب من ذاكرة التاريخ الدعوي، اشتهر رحمه الله في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي وعُرف بأسلوبه الخطابي القوي، وشجاعته في قول الحق، وقدرته الكبيرة على التأثير في جمهور الشباب بصفة خاصة، وكان رحمه الله من

أرقي وأبرع من صعد المنبر في القاهرة وكان له دويه الدعوي الصاخب، فاستطاع أن يخدم الدعوة ويؤدي دوره في مسيرة الوعي الإسلامي على أقدر ما يكون الداعية الفاقه الوعي الحصيف.

ولكن هل ترك تلاميذ يذكرونه ويحيون ذكره؟

هل ترك كتبا خلفته علمه؟

هل يعرفه أبناء هذا الجيل؟

لقد بحث في الانترنت عليه فلم أجد ما يوفيه قدره ويبقي للأجيال أثرا يُعرف به! وأذكر أنني اقتنيت كتابا من أروع كتبه وهو كتاب (أشواك في الحقل الإسلامي) وحينما قرأت الكتاب وجدته قمة في فهم الدعوة وسلبيات العمل فيها والخبرة الدقيقة بأدوائها وتقديم الأدلة الشافية لعلاجها، وإصلاح الدعاة وتصحيح مسارهم، لكن الجانب الأعظم في حياة الدكتور عبد الرشيد هي خطبة المدوية التي كانت تجذب الألوف فيهيمون بها وبصاحبها.

وكانت أبرز القضايا التي يتناولها تدلل على رجل يمثل أمته التي يعرف عللها ويعيش آلامها ويعرف مسؤولية الداعية التي ألقيت على كاهله، فركز كثيراً في دعوته على بناء الشخصية المسلمة، والتمسك بالهوية الإسلامية، والدفاع عن المسجد الأقصى، ومواجهة التيارات الفكرية التي كان يراها تهدد قيم المجتمع.

تميز الدكتور عبد الرشيد بالبلاغة الضافية إذ تأثرت كتاباته بدراسته الأزهرية العميقة، فكان يستخدم لغة عربية رصينة وجذابة، وكذلك الروحانية فلم تكن كتبه مجرد سرد للمعلومات، بل كانت "رسائل قلبية" تهدف إلى تزكية النفس، وكان يسعى دائماً إلى الواقعية بربط النصوص الشرعية بمشاكل الشباب والتحديات اليومية التي يواجهها المسلم.

قال عنه معاصروه: "كان عبد الرشيد صقر رجلاً يخطب بقلبه قبل لسانه، وكانت كلماتُه تخرج كالقذائف التي لا تعرف المداهنة." كان الدكتور عبد الرشيد صقر (بجانب الشيخ كشك) أحد أعمدة "دولة الكاسيت" وكانت أشرطته تُباع في الميادين وأمام المساجد وتُسمع في الحافلات والمحلات التجارية، وهو الانتشار الذي جعل صوته يصل إلى القرى والنجوع في مصر وإلى دول الخليج والمغرب العربي، مما جعل فكره الإصلاحي عابراً للحدود الجغرافية."

عُرف عنه الزهد في الدنيا؛ فرغم شهرته الواسعة، عاش حياة بسيطة جداً، ولم يسعَ خلف مناصب رسمية أو مكاسب مادية من وراء دعوته، مما زاد من مصداقيته عند الناس.

ترك رحمه الله ثروة كبيرة من التسجيلات الصوتية (أشرطة الكاسيت) التي انتشرت بشكل واسع جداً في مصر والعالم العربي قبل عصر الإنترنت، ومن أشهر سلاسل خطبه:

سلسلة "قصص الأنبياء" سلسلة "الدار الآخرة". وخطب الجمعة التي تناولت أحداثاً سياسية واجتماعية هامة في وقتها، ولكن هل يظهر من يمتلك هذه الشرائط ويدرجها على الإنترنت حتى يسمع الناس رجلا كانت له في القلوب محبة وفي الضمائر معزة؟

تميزت كتبه بأنها تجمع بين الوعظ الديني والتحليل الاجتماعي، ومن أشهرها: سلسلة "مواقف إيمانية" كتاب "المرأة في جو الإسلام" كتاب "تحت لواء الحق" كتاب "في ظلال القصص" كتاب "مع المصطفى صلى الله عليه وسلم"

لكن هذه الكتب كلها للأسف لا تجد من يعيد طباعتها أو يدرجها في روبط إلكترونية لتصل إلى كل يد ويعد كتاب "أشواك في الحقل الإسلامي" من أهم وأجرأ الكتب التي ألفها الدكتور عبد الرشيد صقر، وهو يمثل جانباً نقدياً هاماً في مسيرته الفكرية، والكتاب لا يوجه سهام نقده إلى الإسلام كدين، بل يوجهها إلى "الممارسات الخاطئة" وبعض السلوكيات التي رآها الدكتور عبد الرشيد صقر داخل أوساط العمل الدعوي والإسلامي في وقته، إذ يعد محاولة لـ "النقد الذاتي" من داخل الحقل الإسلامي بهدف الإصلاح، وقد وضع يده على مجموعة من "الأشواك" (أي المشكلات والعقبات) التي تعيق مسيرة الدعوة، ومنها: التشدد والتنطع، والفرقة والتحزب، والانفصال عن الواقع ويُعتبر الكتاب مرجعاً هاماً لكل مشتغل بالدعوة، لأنه يمثل وقفة مع النفس، والدكتور عبد الرشيد صقر من خلال هذا المؤلف أراد أن يقول: إن قوة المسلمين تبدأ من إصلاح صفوفهم وتطهير بيوتهم من الداخل قبل مواجهة التحديات الخارجية.

ومما قاله فيه: "إن أخطر ما يواجه العمل الإسلامي اليوم ليس عدواً خارجياً يتربص به، بل هي تلك 'الأشواك' التي نبتت في قلب الحقل؛ حين صار بأسنا بيننا شديداً، وحين انشغلنا بمعارك جانبية حول فروع الفقه، وتركنا الأصول تنهار تحت أقدام العلمانية والتحلل."

لقب الدكتور عبد الرشيد صقر بلقب "فارس المنابر"، ولم يكن هذا اللقب لمجرد فصاحته، بل لشجاعته النادرة ومواقفه التي دفع ثمنها من حريته وراحته، كان لا يخشى في الله لومة لائم، سواء في مواجهة أصحاب النفوذ أو في مواجهة الانحرافات داخل المجتمع، كان الرجل حرًا عزيزًا يعشق قول الحق، ولا يرهب في سبيله المخاوف، ولله در من وصفه: [كان حرا لا يخشى في الله لومة لائم، لم يكن لديه حسابات أو مصالح يخشى عليها، كان كالجبل الشاهق، المرتفع عن شهوات الدنيا ودناياها.]

أرسل له مرة وزير الأوقاف محمد علي محجوب فرفض الشيخ في كبرياء الداعية وقال بل هو من يأتي إلي، فكانت الجمعة التالية للشيخ محمد عبد الواحد أحمد ومنع من الخطابة.

بل كان شجاعاً في النقد الذاتي كما جاء في كتابه "أشواك في الحقل الإسلامي"، وقف ضد "قدسية القيادات" داخل الجماعات الإسلامية، وهاجم "التحزب" المقيت الذي يفرق المسلمين، وقال كلمة الحق في وجه رفاقه عندما رأى انحرافاً في السلوك أو غلواً في الفكر، وهو موقف يتطلب شجاعة أدبية كبيرة لأن الناقد في هذه الحالة قد يخسر أنصاره، ويُنقل عن الذين عاصروه في السجن أنه كان صابراً محتسباً، يلقي الدروس على المعتقلين ويثبتهم، ولم يتراجع عن مواقفه أو يقدم "تنازلات" مقابل خروجه، بل ظل متمسكاً بما يراه حقاً حتى خروجه بعد اغتيال السادات بفترة، وكانت قضية فلسطين هي "همّه الدائم"، وكان يخصص لها خطباً نارية يهاجم فيها التطبيع ويدعو الشعوب للاستيقاظ، في وقت كانت فيه هذه المواضيع شديدة الحساسية.

توفي الدكتور عبد الرشيد صقر في أوائل التسعينيات (١٩٩٣م) وهو في الخمسينيات من عمره، أي في قمة نضجه الفكري، وكانت جنازته مشهودة، حيث خرج فيها الآلاف من محبيه وتلامذته في مشهد مهيب يعكس مكانته في قلوب المصريين.

فقط لأنه عالم دين

لعلنا جميعا نذكر جريمة التحرش والسرقة لفتاة المعادي مريم محمد ،التي أودت بمقتلها وتصريحات الشيخ الدكتور عبد الله رشدي حول الحادثة، التي أدان فيها فعلة التحرش، وعقب على هذه الإدانة بأن الملابس غير المحتشمة للفتيات، قد تكون أدعى الأسباب لوقوع مثل هذه الجريمة.

وبهذا التصريح.. تعرض رشدي لموجة عنيفة من النقد والهجوم، والادعاء بأنه يعادي المرأة ويقيد الحرية، فللمرأة أن تفعل ما تشاء وكان الأولى به أن ينصب لومه على جريمة التحرش وحدها دون أن يفرض على المرأة هيئة معينة.

وردا على هؤلاء كتب رشدي يقول: "عدم احتشامك حرام.. بس دا مش مبرر لأن حد ينظر لك أو يقرب منك. لما نتكلم عن الاحتشام فدا لأنه واجب شرعي ولأن الخلاعة والملابس الفاضحة حرام.. مش معنى دا إننا نُبيح لحد إنه يلمسك. تصريحاتي كلها بقول فيها: التحرش جريمة غير مبررة. كون إن بعض العقول تتخيل عكس كلامي فدا عيبهم وليس خطئي"

لكن هذا الكلام والتوضيح لم يعجبهم، وأصروا على اتهامه والهجوم عليه.

ما الذي دعاني اليوم لتذكر هذه الواقعة التي حدثت منذ عامين؟

الذي دعاني لها هي قراءاتي التي تستجلي الحاضر بمنظور الماضي، فبين يدي الآن مقالا لكاتب من الكتاب ليس أي كاتب، وليس مجرد صاحب قلم ورأي ، بل هو من فرسان التنوير، ورمز من رموز الثقافة المصرية ورائد من روادها الكبار، وهو شخصية معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠١٨م، إنه الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه (مختارات من مقالات الأهرام) الذي طبعته له مكتبة الأسرة والهيئة المصرية العامة للكتاب، فماذا يقول الشرقاوي بهذا الصدد؟

يقول الشرقاوي في مقال بعنوان خواطر حرة عن التلفزيون والصحافة: " لاريب أن القضاء قد وجد في مظهر أو في سلوك النساء الضحايا ما يشجع على الجريمة !! أهو ذلك حقا؟ إن كان ذلك كذلك فليعلنها القضاء ليعتبر الآباء والأزواج وأولياء أمور النساء فلا تخرج واحدة من بيتها متبرجة أو في ملابس غير محتشمة، ولا تترك واحدة تمشى في الطريق على نحو مثير !!

ففي مظهر بعض النساء ما هو دعوة صارخة للخطف والفتك والاغتصاب !! أرجو أن يقرأ المهتمون والمختصون وأهل الغيرة ما نشر الأستاذ الكبير جلال الحمامصى يوم الجمعة الماضي ففيه ما يثير التفكير وما يجب أن يكون موعظة للنساء! فقد نشر رسالة من فتاة تصف أحوالها حين كانت تخرج في ملابس غير محتشمة وما تعرضت له من مضايقات بعض الشباب ثم ذكرت بعد ما لقيته من احترام حين ارتدت الزى الإسلامي، فوجدت من الشباب من يترك لها مكانه في وسائل المواصلات احتراما لها بعد أن كانت وهي غير محتشمة الشباب لا تجد إلا المضايقات ومحاولات هتك العرض !!

حقا إن من اهم وسائل القضاء على هذه الجريمة المزرية احترام النساء لأنفسهن بالتزامهن الحشمة في الملبس والمشية وبعدهن عن التبرج ! وفي ذلك كله سد الذرائع !!"

ويبقى السؤال هل يعاب على الشرقاوي ويلام بنفس اللوم والهجوم الذي قوبل به رشدي؟

أعتقد أن ذلك لا يحدث أبدا وذلك لسبب بسيط وهو أن الشرقاوي ليس عالم دين، ولا داعية ينطق باسم الدين، وما تكالب المتكالبون على رشدي إلى لأنه يعبر عن هذا الدين.

لاشك أن اسم الشرقاوي الذي تحدث من معين الأصالة والقيم والعادات، سيخرس الجميع، ولن يجترئ أحدهم على التفوه بنصف كلمة أمام الإسم الرنان، لكن أوباشا حلا لهم أن يفجروا القضية ويتجنوا على الشيخ، ليصطادوا في الماء العكر ، ويظهروا كيف يكبت الدين حرية المرأة.؟

أوقفوا هؤلاء المردة

لن يغفر التاريخ أبدًا، ولن تغفر الأمة في مستقبلها ما فعله ويفعله هؤلاء المهرجين الذين يشتطون كل يوم في طرح الفتاوى الغريبة والأقوال الشاذة، ليبلغوا مآربهم في الشهرة والصيت، ويحاولون تشويه الدين وتقزيم صورته، وإحاطته بمشاعر الاستهزاء والاستنكار، ومساعدة الملحدين في السخرية من تراثنا وفقهنا وشريعتنا.

هؤلاء المردة، بدلا من أن يصرفوا جهودهم في ترسيخ معالم الهداية والإصلاح بين الناس، وتقويم ما فسد من دنياهم، ودحر كل ما يقف حجر عثرة في سبيل سعادتهم وهنائهم، راحوا يهذون بما يفسد على الناس دينهم، ويهون أمره في صدورهم.

فلا تمر سبعة أيام مما نسميها أسبوعًا، حتى يخرج علينا من ينطق بلسان الإسلام وينتسب لعلمائه، بما يحار فيه العقل، ويصفق له المنفلتون من أهل الباطل.

إن هؤلاء المهرجين لهم أخطر على دين الناس من الكفار والملحدين، لأن الكافر والملحد يقف أمام ديننا كارها منكرا، ليجد في النفوس إيمانًا راسخًا يصد كل جحوده وإنكاره، أما هؤلاء فيظهر أحدهم وهو ينتمي لدوحة العلماء وقد ينتسب إلى الأزهر الشريف، ليخدع الناس بعمامته، التي لا تروج للهداية ولا تبتغي وجه الله، وإنما يهدف من ورائها أن يكيد لهذا الدين ويضربه في الصميم، وأحدهم كالأبله المخبول، أو المسعور المنهوم، وراء شهرة ينالها أو منصب يحظى به، أو دعما من منظمات تكره الإسلام، لا يهمه دينه واستقرار عقيدته، وانتشار دعوته، وإظهار محاسن هذا الشرع العظيم، أمام لعابه النجس الذي يلهث به وراء المنافع والمصالح.

إن الجاهل منهم يتصور نفسه مع ما يأتي به من هذيان وخرف، أنه عالم مصلح مجدد، ويتخيل نفسه أمام ما يأتي به من غرائب الفتاوى والآراء، أنه فذ عبقري لوزعي قد وصل إلا مالم يصل إليه أنداده من العلماء، أما صورة الدين ومكانة الشريعة، فلا قيمة لها عنده ولا اعتبار، وهي تسقط في أعين الضعفاء، ويتوارى منها الجهلاء، الذين يشعرون أن دينهم يسبب لهم المهانة والخرافة والشعوذة، ويلبسهم ثوبا لا يستقيم مع العصر الحاضر من الرقي الفكري والحضاري بين الناس.

ميادين الإسلام وجماليات شريعته فسيحة منيرة مضيئة، يمكن منها أن يثبتوا لهذا العالم الحائر، عظمة الإسلام وسماحته في دنيا الإنسان، ولكنهم وقد عميت أبصارهم وبصائرهم لا ينقبون إلا على ما يثير السخرية من أقوال بعض الفقهاء التي قيلت في أزمان وظروف تختلف عن واقعنا وأيامنا.

ومن المحزن أن تجد صوت هؤلاء عاليًا، أما أن يوجد من يقمع افتراءاتهم وضلالاتهم، فيتم كبته ومنعه من أن يرد عليهم بالحق والصواب.

وجب على المنظومة الأزهرية أن ترد هؤلاء عن غيهم، وأن تطردهم من زمرة العلماء، وتعلن ذلك على الدنيا حتى يعلم الناس أن هؤلاء مشكوك في عقولهم، مرفوض طرحهم، ومن واجب الدولة أن تمنع هؤلاء من العبث بدين الناس، ومحاولاتهم الدؤوبة في تشويه ترثنا وفقهنا والإساءة لديننا.

إن أمر الملحدين يكفينا إلحادهم في ردعهم، أما هؤلاء فهم من طبقة الخونة العملاء، الذين يندسون في الصفوف فتتاح لهم الفرصة في الكيد والتدبير.

بين هوجو والحكيم

تأمل حال العلمانيين والتغريبين على الدوام، لتجد أن من أكبر غاياتهم، وأهم أهدافهم، والذي يمثل مناط رسالتهم، وركيزة ما يصبون إليه، إصرارهم على هدم هالة رجل الدين في نفوس المصريين، والقضاء على أي احترام له في ذواتهم.

كان هذا جهدهم الدائم ودأبهم المستمر، في أعمالهم الفكرية والأدبية والدرامية، وهم يتصورون أنفسهم في هذا أنهم أصحاب رسالة، تهاجم الرجعية والتخلف، وتتصدى لدعاة الظلام، وتكشف حقائقهم للناس، ليزول سلطان الدين في المجتمع حينما يزول من يمثله من علمائه والداعين إليه.

يتصور التغريبيون أنهم يحاكون في هذه الهجمة سادتهم من مفكري أوروبا، وأنهم يريدون لمجتمعاتنا أن تحاكيها في ثورتها على رجال الدين، وهذا كذب مفضوح، فمازالت أوروبا إلى اليوم، تحترم رجل الدين، وتعظم القساوسة، وتقدمهم في كل ميدان، وتبارك مستقبلها بحضورهم وصلواتهم.

لكن القصة كلها تكمن لا في هدم هذه الرموز أو كشف مخبوئها، بدعوى أنهم تجار دين ومنافقين، ولكن الغرض المعروف، هو القضاء على الدين نفسه، حينما تفرغه من قدواته، وتميت بين الناس من يحيي قيمه ويهتف بتعاليمه.

لفت أحد مفكرين الي تلك المقارنة بين الواقع الغربي الذي يوقر رجال الدين، وبين واقعنا العربي المسلم الذي يزدري علماء الدين ورموزه علي يد المتغربين الصاغرين، فقد أشار إلي قصة البؤساء التي كتبها الأديب الفرنسي الكبير فيكتور هوجو، حينما جعل رجل الدين المسيحي من أبطال الرواية، "وجعله في أرفع مكان حينما تجلى في أنبل المواقف الإنسانية وأقربها إلى معاني الإيثار والكرامة والتضحية والإحسان، حين صوره المؤلف الكبير في صورة الإنسان المثالي، الذي يلقي كلمة الله فيواسي المنكوب، ويعمل على

إسعاد الفقير ويمسح دموع الأيامى والثواكلٰ وهو بهذا يقدم رحمة الله للبائسين والتعساء وقد رسمه الكاتب في عدة مشاهد تنطق بهذه المعاني لا في مشهد واحد !! ومنها موقفه الرائع حين ولج الكنيسة لص مجرم أخذ يجمع التحف ويسرق السجاد والبسط، وقد عثر عليه الخدم في لحظاته الأخيرة فاقتادوه إلى الشرطة مكبلًا، وعلم رئيس الكنيسة بالأمر فبادر إلى المجرم وفهم من قصته أنه فقير لا يجد القوت لأطفاله، فسعى إلى العفو عنه وقدم له من العطاء الجزل ما يفي بحاجته ثم أخذ يقدم له نصائح الحياة، في وعظ عملي مؤثر حتى رده إلى دنيا العفة والكرامة، وهكذا شاء الأديب الفرنسي أن يقدم لقرائه ومشاهديه رجل الكنيسة في أعطرِ أُفُقِ وأوسم مرأى وكأنهم عندهم ملك لا إنسان.

تمت المقارنة بين هذه الإطلالة الغربية في تصوير ورسم صورة رجل الدين المسيحي، وبين ما فعله توفيق الحكيم في مسرحية السلطان الحائر حينما جعل من العالم الجليل العز بن عبد السلام عاشقا لغانية، يلين لها ويتوسل!! وما هكذا كان العز ولن يكون، وقد كان هذا الانحدار الشائن مدعاة غضب عنيف من الفاقهين، حتى أن المغفور له الأستاذ أمين الخولي قد نقد هذا الإسفاف بجريدة الأهرام نقدًا ساطع الدليل، واضطر الحكيم أن يلتمس من يدافع عنه، فقال من يبرر مسلكه: إن الروائي لا يتقيد بالتاريخ، وإنما يريد أن يصور النفس البشرية، ولكل نفس مهما ارتقت مثالب ومحرجات والعز وإن لم يكن في تاريخه ما يوحي بهذا المسلك، فهو بشر ينتظر أن يحدث فيه وإن لم يحدث."

وهؤلاء التغريبيون يعز عليهم أن يفهموا أو يستوعبوا أن من عاش في أجواء الطهارة والنقاء، يصعب عليه أن ينحدر إلى مهاوى السفه والتبذل، ويدافعون عن تصوراتهم الغبية بأنهم بشر يصيبون ويخطئون.

ناهيك عن أن حياة هؤلاء الأطهار لم يأتنا منها خبر يؤيد هذا الزيف، ويروي هذا الزور الذي يلصقونه بهم.

يعيب علينا بعض القراء حينما نتناول نقيصة من نقائص التاريخ حدثت ووقعت، بحجة أننا يجب أن نظهر المحاسن وحدها ولا نظهر المساوئ، حتى وإن ثبتت ووقعت، ولكن كيف يناقشون من تخصصوا في اختلاق الأكاذيب بحجة الفن تارة، وبحجة البشرية تارة أخرى؟!

اكتب أيها الأديب ما شئت أن تكتب في دنيا الخيال، واستحضر ما شئت من الأسماء والشخوص التي تحركها بقلمك وإلهامك، كيفما تشاء، لكن احذر أن تمس شرفاء هذه الأمة الذين نباهي بهم، وكانوا في دروب ظلمائها أنجما مضية هادية.

نحن لا ندعي العصمة لعلماء الدين، ولكننا نؤمن أن الله تعالى حفظ هؤلاء الأولياء عن مسالك الفجار والساقطين، فلا يمكن أن ينشأ إنسان في محاضن الهداية، وينهل من معين الشد، وقضى كل حياته جهادا

وكفاحا من أجل ربه، أن يكون كغيره ممن ألفوا السقوط والتردي، ثم يذهب منا من يهين تاريخه بالكذب والافتراء.

وهو التصور الذي تعمدت الدراما المصرية دوما أن تسم به علماء الدين، حينما تجسدهم في صورة هازئة حتى يضحك عليهم الناس، وتسقط هيبتهم من أعينهم، فلا يقيمون لهم بعدها أي احترام أو وزن وتقدير.

أنا أذهب إليه

أقرأ معي هذا النص، وانتظر معي ما أقوله لك وأناقشك فيه.

"وفي جامع الغمري تشرف، السلطان سليم، بمقابلة الشعراني سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، حين فتح مصر وأقام بقلعة الجبل ، ووفدت عليه الوفود، حتى أزمع على الرحيل إلى تركيا، فقال: هل بقى أحد من العلماء أو الأولياء لم نره ؟ فقالوا له: ما بقى إلا رجل عظيم ولكنه صغير السن، لم تجر عادته أن يقابل أحدًا من الولاة أو يحضر مجلسهم، فقال السلطان سليم: أنا أذهب إليه

وذهب السلطان سليم وقابل الشعراني، وأحبه وأعتقده، وقبل شفاعته في العفو عن القاضي "محيى الدين عبد القادر الأزبكي " رأس الكتاب بديوان القلعة، وكان قد غضب عليه السلطان وتوعده وأخذ منه السجلات، ويقال انه أهدر دمه، فخشي على نفسه ولجأ إلى الشعراني فاستجار به، فأمنه الشعراني وانتهز فرصة زيارة السلطان سليم له، فكلمه في شأنه فأجابه ورده إلى سابق عمله."

هنا يا أخي انتهى الخبر، ولكن

إياك أن تظن أنني هنا أتحدث عن التصوف، وأريد أن أثبت المكانة العالية لشيخ من شيوخه المرموقين، أو أنني أحوم بالحديث حول عفة العلماء عن بلاط السلاطين والتزلف إليهم، كما يفعل كثير من العلماء الذين رخصوا أنفسهم وجعلوا من دينهم وذمتهم مطية للحكام.

أبدًا أبدًا فالخطب أعظم من هذا بكثير، والإشارة التي أريد تناولها أدق من هذا وأعمق.

أرأيت السلطان سليم، الذي شُنت عليه الغارة منذ وقت قريب، فظهر من يحاول تصويره للناس بأنه سفاح ولص ومغتصب سفاك للدماء مهدر للأرواح، وأرادوا أن يصوروا لنا أنه في ذاكرة التاريخ أبشع وأشد فظاعة من جنكيز خان وهولاكو وستالين، ليأتي هذا الخبر ليعطيك لمحة عن حاكم كان يُعظم العلماء، ويحترم الأولياء، بل ويذهب إليهم هو بدلا من أن يأتوا إليه، احتراما لهم وإجلالا لمكانتهم.

كان يمكن لسليم أن يرسل رسلا إلى الشعراني يأمره بالمجيء إليه، فهو السلطان الغالب والمنتصر، وولي الأمر المسلم، وما أعتقد أن الشعراني كان يمكن أن يتخلف عن رغبة ولي الأمر، ولكن السلطان المهذب، احترم رغبة الشعراني وأجل حاله، ولم يشأ أن يرغمه على شيء يكرهه.!

ما فعله سليم أمر نادر جدًا في تاريخ الحكام والخلفاء المسلمين، فلم يؤثر أن أحدهم ذهب لعتبات العلماء إلا قليل جدا ممن ذكرهم التاريخ، ليكون سليم بهذا الصنيع دليلا على أمة تحترم علماءها، واليوم الذي تحترم فيه الأمة علماءها الربانيين، لهو ترجمة واقعية على قوة هذه الأمة وسطوتها بين الشعوب، وهو بالضبط ما كان من حال بني عثمان.

لقد فعل سليم هذا مع شيخ صغير السن، وكذلك سمع له بالتدخل في قرارات السلطنة، وهو إن دل فلا يدل إلى على تعظيم مفرط لقول العلماء.

السيوطي والشعراني من علماء مصر الذين اشتهر عنهم عزوفهم عن أبواب السلاطين، وكانوا في عزلة عنهم، لا يقربون مجالسهم، وكانوا يتمثلون قول الشافعي رحمه الله:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا* فلا يكن لك في أبوابهم ظل

ماذا تؤمل من قومٍ إذا غضبوا* جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً*إن الوقوف على أبوابهم ذل

بل كان الشعراني كلما أرسل إليه حاكم من الحكام مالا أو أعطية، ابتدرها على الفقراء والمساكين وطلاب العلم، ولا يرى أبدًا لنفسه حظًا فيها.

وأنا أعتقد أن حاكمًا بهذه النفسية وهذه المبادرة وهذه الأخلاق، وهذا التعظيم للعلم وأهله، لا يمكن أبدًا أن يكون بهذا السوء الذي ظهر وتبدى، وحاول المزيفون للتاريخ تصويره وتجسيده، وسارع كتاب العلمانية لتأييده وإقراره، والرجل بريء مما نسب إليه من زيف وزور، بل هو التاريخ الذي عَلِمَه الشعب المصري، وسارعت كل العائلات لتسمية أبنائهم باسم سليم، ولعل الشعب المصري، هو أكثر الشعوب التي خضعت للترك العثمانيين استخدامًا لهذا الاسم، ولا أعرف، هل يهوى المصريون تسمية أبنائهم بأسماء الظالمين، أم أنهم فعلوا ذلك لسيرته الجلية، ومقامه المحمود، وأخباره النقية، وآثاره الطيبة.؟

الجواب لكم.

نسف القصة السخيفة

العداء الصارخ بين جماعات التيار الديني وتوجهاته المختلفة، شيء جاوز العدل والإنصاف في كثير من حالاته، ومما ألحظ من معايبه العظيمة أن الصوفي إذا اختلف مع السلفي، والسلفي إذا اختلف مع الصوفي، فإن الاختلاف يخرج من حيز المختلفين ودائرتهم ليطال أعلام الطرفين بالتحقير والتوهين والازدراء.. فإذا أراد الصوفي أن يغلب السلفي، طعن في ابن تيمية وابن عبد الوهاب وكل من كان ذو وجهة سلفية من العلماء.. وكذلك السلفي إذا أراد تحطيم خصمه الصوفي، فإنه يفتح النيران عليه وعلى أعلام الطريق مسفها محقرًا مهينًا كائدًا.

والحق أن هذا الصراع المؤرق لا يفيد العلم أو الإسلام في شيء، وإنما يضر به أعظم الضرر، فليس من الرشد أن أقف أمام عالم له في خدمة الإسلام حظ وافر وبلاء محمود، ثم أنهال عليه بهذا التجريح الفج، وإنها لسفاهة تنم عن قلة إدراك وضيق أفق وبلاهة تفكير.

قد أختلف مع الصوفي لكن هذا أبدًا لا يمنع أن أوفي علماء طريقه حقهم وقد كانوا لهم صوت يمثل الإسلام ويدعو إليه، وقد أختلف مع السلفي لكنني أبدا لا يمكن أن أهيل التراب وأخذل عمرا مديدا من الانتصار للسنة قام به علماء أجلاء لهم قيمتهم واعتبارهم.

في الآونة الأخير شاع منقول من الكلام سخيف لا حظ له من التثبت والرواية، وغير مقبول شكلا وموضوعا في الفاعل والمفعول به، لكن قوما يبغضون التيار السلفي أو يبغضون بعض أتباعه من الشباب الجامد المتشدد، قد استهواهم المنشور لأنهم يرونه يحطم قامة سلفية ويزري بها ويسفه مكانتها، كان هذا المنشور على ما أنقله هنا بنصه ورسمه.

"الالباني ناقشه الشيخ عبد الفتاح ابو غدة الحلبي المحدث والعالم الاصولي في علم الحديث صار بينهم محاورة نقلها اخي الشيخ محمد منير رحمه الله قبل وفاته في شهر شعبان عندما قدم الى المدينة المنورة قال لي بالحرف الواحد تناقش معه في مدينة الرياض

قال له الشيخ عبد الفتاح: هل انت محدث وعالم بعلم الحديث

فرد قائلا: هكذا يقولون.!

فقال له: انت على من تلقيت الاسانيد من أي العلماء

فقال: من الكتب فقال له: هذا لا يكون محدثا مالم يأخذ من اهل الحديث من لم يتلقاه عن أهله

فهل أنت عالم بعلم النحو والصرف وباقي العلوم لو سمحتم هاتوا لنا صحيح البخاري

فأتوا بصحيح البخاري ففتح الشيخ عبد الفتاح على حديث في إحدى الغزوات قال رسول الله صل الله عليه وسلم للصحابة بما معناه اذهبوا وأِربعوا بالكسر

فأعطى الكتاب للألباني وقال له اقرا علينا هذا الحديث، فبدأ الألباني بقراءة الحديث ووصل الى كلمة اربعوا فقال: أَربعوا بفتح همزة الالف

ومعنى اربعوا بالفتح بان امشوا على اربع ولكن بكسر همزة الالف بمعنى امشوا اربعا بالعدد

فقال له كفى انت تمشي على أربع كفاك جهلا يامن تمشي على أربع اذهب وتعلم اللغة وبعد ذلك اشتغل بالحديث فمن أين طلع فلتة عصره

لكن آل سعود ليس لديهم من يعرف علم الحديث فوضعوه مدرسا لمادة الحديث في الجامعة الاسلامية لفترة من الزمن"

ولعل هذا الكلام وهذه الصيغة وهذه الطريقة لا يستوعبها عقل، لأنها أولا لا يمكن أن تصدر من الشيخ أبو غدة، فلا يليق به هذا أن يحقر أي منتسب إلى العلم أمام الناس، أو أن يقلل منه أو ينصحه على الملأ بما يشبه الفضح.

ثانيا يستحال في أمر الألباني أن يخطئ في اللغة وناهيك عن قراءة الحديث، فالقدر اللغوي الذي يمكن المحدث ليكون محدثا ليس بالأمر المعجز الذي يمنع الألباني أن يكون عارفا به حتى يجاز في الحديث.

ثالثا: لو كانت النصيحة مسددة لحثه أبو غدة أن يضبط أسانيده عند المحدثين بصحبتهم والأخذ عنهم، لا أن يجري له اختبارا في اللغة العربية ونحوها وصرفها.

وإذا كان السعوديون هم من فعلوا ذلك ونصبوا الألباني أستاذا في للحديث في الجامعة الإسلامية، فهذا مما يحمد لهم أن عرفوا قدر الرجل وصدروه، على خلاف من يريد امتهان رجل فريد في طرازه وجهده.

وأمام يا ينتشي به أعداء السلفية من هذا النقل المبهج لأساريرهم أقول من باب الإنصاف: أبو غدة والألباني كلاهما من الأعلام الموقرين، لكن معذرة من أكثرهم خدمة للإسلام والعلم والسنة؟

من أعمقهم أثرا لدى كل طبقات الباحثين والدارسين؟

من الذي وللآن يتردد اسمه مع كل حديث يروى أو أثر يذكر وتطمئن إليه النفس إذا شهد له وأقر بصحته أو ضعفه؟

بل من أعلى كعبا في خدمة الإسلام وأبقى مجدا وإخلاصا للدين الشيخ الغزالي أم الشيخ أبو غدة مع تقديري لعلمه الشاهق وعلو مكانته في التحقيق.

لا شك أن الشيخ الغزالي يحسب اليوم من المجددين، ولكن هذا الشيخ الغزالي نفسه له شهادة عظمى في الشيخ الألباني يجب أن توضع في النظر لكل من يروي هذه القصة الواهية عن الشيخ الألباني مع أبو غدة.

يقول الشيخ الغزالي في مطلع تحقيق كتابه فقه السيرة: " الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني صاحب قدم راسخة في علوم السنة فشكر الله له جهده في المحافظة على تراث النبوة"

هذه هي المعاني التي يجب أن تصدر وتروى للأجيال من المتدينين، أما أن نروي خيالات وخرافات ومعاني فاسدة لا نجني من ورائها إلا تحطيم علمائنا ورجال خدموا تعاليم الله ورسوله، فهذا مما أراه انتحارا وقضاء بأنفسنا على أنفسنا.

ومما ذكره لي شيخنا عز الدين دياب عن شيوخ الألباني بقوله:

شيوخ الألباني :

١-والده الشيخ نوح الألباني، وقد أخذ عنه القرآن الكريم والنحو والصرف والفقه الحنفي.

٢-الشيخ سعيد البرهاني ، وقد أخذ عنه الفقه الحنفي وبعض علوم اللغة.

٣-العلامة بهجة البيطار، وكان يحضر مجالسه .

٤- الشيخ محمد راغب الطباخ ، وله منه إجازة في الحديث.

٥-الشيخ علي الطنطاوي ، وقد درس عليه أصول الفقه.

لا مانع أن أختلف معك كصوفي أو سلفي، لكن خلافي معك، لا يقودني إلى كرهك إلا إذا كنت تستحق الكراهية، ولا يقودني خلافي معك أن أحقر علماءك إلا إذا كانوا قد استحدثوا ما يستحق التحقير.

علينا أن نفصل بين نوازعنا النفسية العاطفية، وبين الحق الذي يجب أن نتبعه والإنصاف الذي يجب أن نمتطي جناحه.

هذه هي المعاني التي يجب أن تصدر وتروى للأجيال من المتدينين، أما أن نروي خيالات وخرافات ومعاني فاسدة لا نجني من ورائها إلا تحطيم علمائنا ورجال خدموا تعاليم الله ورسوله، فهذا مما أراه انتحارا وقضاء بأنفسنا على أنفسنا.

لقد قلت هذا الكلام منذ مدة كبيرة وكتبت عنه تحت عنوان حكاية سخيفة إلى أن قرأت هذه الايام كتاب الشيخ القرضاوي (في وداع الأعلام) وذكر فيه كلام مهما يضرب القصة من أساسها ليعود الشباب المغالي أدراجه خائبا منزويا .

يقول القرضاوي في كتابه عن اللقاء الوحيد الذي حدث بين الألباني وأبي غدة: "اجتمع الشيخان في منزل الشيخ زهير الشاويش بمنطقة الحازمية في لبنان، أو قل: في مكتبته العامرة. وبدأ بينهما نقاش خفيف

حول مسألة حديثية، لكنه يخفي وراءه مخزونًا من المرارة والحدة، لم تظهر في ذلك الوقت، لكنها ظهرت واشتدت واحتدت وتطورت بعد ذلك.. كان البادئ هو الشيخ أبو غدة، إذ قال للشيخ الألباني: نرى في كتب فضيلتك بعض أشياء لا نعرف وجهها ؟ قال الألباني: مثل ماذا ؟. قال أبو غدة: مثل تعقيبك على حديث رواه البخاري بقولك: صحيح، أولا يكفي أن يكون رواه البخاري في صحيحه الذي تلقته الأمة بالقبول، حتى تعقب عليه بالتصحيح ؟.

وهنا تدخلت أنا محاولا أن ألتمس وجها لتصحيح الشيخ، وقلت: لعله يريد بقوله: صحيح أن الحديث ليس من الأحاديث التي انتقدت على البخاري.

وهنا قال الألباني: لا، ليس هذا ما أقصده. بل هذا منهج لي، التزمته ومضيت عليه: أن أعقب على كل حديث بالتصحيح أو التحسين أو التضعيف.

قال أبو غدة: تعقب على البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله ؟! ألا تخشى أن يفهم القارئ من ذلك أن جامع البخاري فيه الصحيح والضعيف، ولا بد من التمييز بينهما، كما في سائر الكتب التي جمعت بين الصحيح والضعيف؟!.

إلى هنا توقفت المناقشة على ما أذكر، ولكنها احتدمت، بل اشتعلت بعد.. ذلك في تقرير كتبه الشيخ أبو غدة على تخريج الألباني لشرح عقيدة الطحاوي، ورفع إلى جامعة الإمام محمد بن سعود.

ثم في رد الشيخ الألباني الشديد على هذا التقرير.

ثم في رد الشيخ أبو غدة على الرد.

ثم في التعليق على هذه المعركة من الشيخ الشاويش بـ (كلمات) من عنده، وقد كان هواه مع الألباني، باعتبارهما من مشرب واحد، ولا سيما قبل أن يختلفا، ويشتد بينهما الخلاف في أمور غير فكرية ولا علمية."

ويعقب القرضاوي بقوله: "لقد كانت معركة بين أهل العلم بعضهم وبعض، لا لزوم لها، أثارت عبارًا ودخانا زكم أنوف الفريقين، وأصاب كلا منهما بأضرار وآثار، كان بالإمكان تفاديها، لو كان حسن الظن، والتسامح، والجدال بالتي هي حسن شعار الفريقين"

بهذا يستقيم السياق ويظهر الحق وينكشف الزيف والكذب، عالم يختلف مع عالم ولكل منهما رأيه ووجهة نظره ومكانته وقيمته، ورده وتعقيبه، أما أن تظهر القصة الاولى الألباني وكأنه صبي تافه أبله، فهذا مالا يقبل، وعلينا ونحن في غمرة مشاعرنا المحمومة أن نراعي الإنصاف ونحترم عقول القراء.

بعض الناس سيقول لك الالباني هو أول المتهجمين على الناس، والطاعنين في الاعلام ولا يستحق دفاعك عنه وغضبتك له، وأنا أقول: حتى لو صدق هذا لكنني أطلب الاعتدال ولا أدافع إلا عن الانصاف.

إنهم لا يمثلون الأزهر

يقول قائل صوفي تزيا بزي الأزهر الشريف: "من قرأ لابن تيمية في العقيدة؛ ضل! ومن قرأ له في الفقه؛ نبغ!" وعن نفسي فما رأيت كلامًا يضج بالضلال مثل ما رأيت في هذا الكلام، وهي عندي قولة زور لا يرجى بها ولا منها رضاء الله ورسوله وهدي دينه، بل هي تنفيس أحقاد، وعصبية تقاد، وجهالة تمور وتزداد.

ومن المؤسف أن ينطق بها أزهري، يحمل فوق رأسه العمامة، وهو خصيم العدل والإنصاف، بمنهج نكر، لم يكن عليه سادتنا من علماء الأزهر الأجلاء، فما أعلى مكانة ابن تيمية مثل علماء الأزهر الشريف، ولا دبج في شخصه المؤلفات والمناقب مثل علماء الأزهر الشريف.

وأحب القول ابتداء بأنني لست من السلفيين ولست من أنصار و أتباع المذهب الوهابي، وإنما أنا رجل منصف يعرف أقدار العلماء بعيدا عن شطط المذاهب وشطح الطرق، وعصبية التيارات.

يا ويلي، كيف لرجل ينتمي للجامعة الأزهرية أن ينطق بمثل هذا الكلام إن صحت نسبته إليه؟

[من اتبع ابن تيمية في العقيدة ضل، وفي الفقه نبغ!!]

ربما يكون مخطئا أو نخالف كلامه فيما اعتمدنا من آراء، لكن لا يصل الأمر أن نتهمه بالضلال ومجافاة الرشد.. وسبحان الله.. في الوقت الذي تتصاعد فيه شهادات أئمة الإسلام للإمام ابن تيمية بالتفرد والعبقرية، يحكم عليه العشماوي بأنه ضال ومن يقرأ له يضل.! لعمري إننا أمام تيار صوفي بشع، يقمع خصومه الفكريين ويقصيهم، ويتهم

بالضلال كل من يخالفه الرأي والمنهاج، وهو تيار متشدد متطرف لم يكن عليه منهج سادتنا الصوفية ممن عرفناهم وعاصرناهم في القديم والحديث.

إن هذا التيار الإقصائي يريد أن يصبغ مصر والأزهر الشريف بصبغته المتطرفة، ولا يملك من أدواته في هذا غير التنحية والبطش بكل المخالفين، ممن عرفت الدنيا كلها أنهم أعلام الهدى والنور.

وأنا هنا أقرر أن الميدان لا يتسع للحديث عن فضائل أعظم أئمة الإسلام فالآثار والشواهد في مناقبه عظيمة لا تحصى، وهو أمر معلوم مخبور، ولكننا هنا نصب جام غضبنا على هذا التعصب المقيت، الذي سولت له نفسه أن يحكم على إمام جليل بالضلال في المنهج والمعتقد، وهو سلوك منحرف يجب الحذر منه والتنبه لأصحابه، حتى لا يفسدوا عقول الأجيال كما أفسدوا عقول مريديهم ومن يعتقدون فيهم أنهم على شيء.

بل أنا هنا أؤكد لمن لا يقبلون كلاما إلا من الأزهر وعلماء الأزهر، أن هذا المسلك غريب شاذ عن مسالك علماء الأزهر الذين كما أشرت، أقدر الناس عرفانا بمقام ابن تيمية وجلال قدره.. وهؤلاء الناس لا يمثلون الأزهر في شيء، حتى ولو كانوا يرتدون عباءته وتعتليهم عمامته.

لقد سبق العشماوي مقولة لمسؤول ديني في مقطع مرئي يقول فيه: (إن ابن تيمية غير معتمد عند الأزاهرة) وأنت لا تجد مثل هذا الكلام يتردد إلا على ألسنة المتعصبين لتياراتهم، ولا يرون الصواب إلا في أنفسهم فقط، أما المنصفين من أهل العدل والاتزان فيقرون بخلاف ذلك، ويحفظون للأئمة المهديين مكانتهم وقدرهم، ولعلي أذكر هذا المقطع القريب للدكتور أحمد معبد عبد الكريم أستاذ الحديث بجامعة الأزهر والذي كان يشرح فيه كتاباً في علم الحديث، وعن يساره الدكتور أسامة الأزهرى يقرأ له، وأثناء الشرح جاء ذكر ابن تيمية، فقال الدكتور معبد ثناء على ابن تيمية: "إن أهل العلم يقولون عن ابن تيمية أن مسند الإمام أحمد بن حنبل كان على طرف لسانه ، فماذا يكون على بقية لسانه ؟ " والدكتور معبد أشعري

العقيدة ولكنه من المعتدلين الذين لم تتسرب إلى نفوسهم روح التطرف المقيت، بل شهد كذلك لأعلام عصره ممن يختلفون معه في المذهب العقدي كالألباني وابن باز.

ثم تأتي شهادة قوية من الشيخ الباقوري في مقطع مرئي بأحد دروسه وهو يقول: "وابن تيمية رجل سلفي صالح لا ينكر فضله أحد، من الذين يحترمون الحق ويؤثرون العدل والإنصاف على الجور والميل والاعتساف"

وتأتي شهادة الدكتور أحمد عمر هاشم وهو الصوفي المعروف، ففي بعض لقاءاته المرئية مدح ابن تيمية مدحا عظيما وأكد أنه ظلم كثيرا وما يقال عنه ليس بالحقيقة فهل يتبين المرجفون؟

أما الإمام محمد أبو زهرة صاحب أعظم مؤلف عن الامام ابن تيمية [ابن تيمية.. حياته وعصره – آراؤه وفكره] فله فيه كما قرأت نظرة مليئة بالإجلال والإنصاف، ترد كل هذه البغضاء المتفشية، والتطرف المقيت، إذ "يرسم في مقدمة كتابه صورة متكاملة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وصفاتٍ قلّما تجتمع في عالم، فقال: إمام جليل، شغل عصره بفكره ورأيه ومسلكه، كان مجتهدًا، مجددًا لأمر الدين، أعاده غضًّا طريًّا كما بدأ، قبس من نور أضاء دياجير الظلام، عالم موسوعي، كاتب بارع، عبقري مبدع، خطيب مصقع، باحث محقق، ومجاهد بالسيف والقلم، صاحب عبقرية لافتة، اجتمعت فيه صفات لم تجتمع في أهل زمانه، ملتزم بالكتاب والسنة، وعلى منهج السلف من الصحابة والتابعين، مجتهد اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، آتاه الله لسانًا مبينًا، وقلبًا حكيمًا، وقلمًا عليمًا، نال من أهل عصره بالقول والبرهان، ونالوا منه بالزج في السجن وتأليب السلطان، كان واضح الإخلاص، محبوبًا عند العامة، شجاعًا في ميدان القتال كما في ميدان العلم والسياسة، درعًا للعامة في البلاء، ينافح عنهم بلسانه وسيفه، ذو شخصية قوية ونفس جذابة وقلب رؤوف وعقل نافذ، تميز بلمعان الحجة، وفصاحة البيان، وسيرة نيّرة، درس العلوم وخرج منها بما أمدّ به الأجيال بعده، قلبه مؤمن متوثب، صاحب فكر مستقل، لم يكن مقلدًا بل مُبدعًا، فقيه عصره، وأبرز أهل الكلام، ومن كبار المفسرين، كتبه مليئة بثمرات عقله ومشاعره الصادقة، له مواقف عظيمة في الدفاع عن الإسلام أمام هجمات النصارى كما تصدى للتتار بسيفه."

هكذا انتهت شهادة إمام من أكبر وأجل علماء الأزهر، والذي إذا حاولنا أن نقيس بجواره كل من لذع ابن تيمية، فلن يكون إلى جوار أبي زهرة إلا نملة هزيلة أمام عملاق يحجب السماء.

وأبو زهرة لم يكن على وفاق مع ابن تيمية في بعض مسائل العقيدة، بل خالفه فيها وكان له رأيا آخر، وليس معنى هذا الاختلاف أنه حط من قدره وأهان منزلته، بل هو الخلاف الذي حفظ معه مكانته العالية التي لم يدانيها فيها أحد من علماء الإسلام، وليتنا من هذا نتعلم ونهتدي ونسير في خلافاتنا ومع من يخالفوننا.

بل تخطى الأمر من مجرد إشادة عالم أزهري في حق ابن تيمية.. تخطى ذلك إلى المناهج التي تدرسها المعاهد الأزهرية، ففي الصف الثالث من المرحلة الثانوية الأزهرية كان كتاب التاريخ الأدبي يتناول العصر المملوكي، وأعطى نماذج للتخفيف في هذا العصر وذكر ابن تيمية نموذجا في أربع صفحات تمدح وتجري الإمام ببالغ الثناء.. فأين هنا من يدعون أن ابن تيمية من أئمة الضلالة وهذا الأزهر معقل الأشعرية ينصف إماما عظيما كابن تيمية متجاوز حدود العصبية التمذهب الباحث على الحقد والتخاصم.

أما الذين يتهمون كل من خالفهم بالضلال والغي فهؤلاء لا يمثلون الأزهر في شيء، وإنما يمثلون مذاهبهم التي أصلوها بالبغض والكراهية والتطرف المنبوذ.

ولعلنا نقول لصاحب هذا المنقول ما قاله صديق لنا: هل ينبغ الفقيه إلا من بعد عقيدة راشدة أيها المفتري.؟!

رحم الله ابنُ دقيق العيد حينما جلس إلى ابنِ تيمية وبعدما سمع منه فقال له: "ما كنتُ أظنُّ أن الله يخلُقُ مثلك" من شدة إبهاره بعبقريته وتبحر علمه

بل رحم الله صاحب الفتح حينما قال فيه: "الشيخ الإمام، العالم الرباني، الحبر البحر، القطب النوراني، إمام الأئمة، بركة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام، قدوة الأنام، قامع المبتدعين، سيف المناظرين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان..."

أئمة الأزهر يُحرجون الغلاة

أئمة الأزهر الكبار يمكن أن تطمئن لهم، وهم خير من يمثلون الأزهر بتوجهه المستقيم المتسامح المتزن، البعيد كل البعد عن الشطح والغلو والانحراف والافراط والتفريط.

شيوخ كبار لهم مكانتهم العلمية التي يتقاصر دونها همم من يخالفونهم أو يعترضونهم أو لا يعجبهم مسارهم فتنة وتعصبًا لمذهب أو تيار.

وهؤلاء الشيوخ رغم تسامحهم واعتدالهم فإنهم يعدون أكبر عقبة وعائق في وجه المتعصبين المتشنجين الهائجين من غلاة المذاهب والتيارات، خاصة غلاة التيار الصوفي الحديث الذي اتسم فريق منه بالغلو والتشدد والقمع وتضليل المخالفين وتفسيقهم وربما إخراجهم من الملة، وقد كتبت فيما سبق عن هذا التيار العنيف المغالي، وأطلقت عليه وصف مداخلة الصوفية، الذين اخترقوا صفوفها بفكر وطريق وأسلوب ما عرفه المتصوفة قديما وحديثا، وقد كانوا أئمة هداية ودعوة ربانية، لا ترى شيئا من السوء والعصبية تبدو أبدا في حديثهم وفعالهم.

وهو السبيل الذي يرفضه علماء الأزهر الكبار رفضا قاطعا، ولا يحبونه ولا يميلون إليه ولا يعترفون بمغالاة أصحابه، وينكرون عليهم ولا يصمتون لهم، ومن ثم يجد أصحاب هذا الغلو أنفسهم في ورطة كبيرة حينما يجدون أن من يرد عليهم فيما افتروه ليس خصومهم من السلفيين، وإنما من يرد كيدهم وزيفهم أئمة عدول لهم في العلم قدم راسخة لا يمكن أن ينقضوا عراها، أو أن يطلقوا عليهم سيف غلوهم بالتجريح والتنقيص، إنهم لا يقدرون على ذلك، لأن هذا لو حدث فعلا وتجرؤوا على الشيوخ الكبار، فسوف يهيجون عليهم طلبة الأزهر وأتباع هؤلاء الشيوخ، ليجدوا أنفسهم قد خسروا كثيرا مما تعبوا في كسبه سنين طويلة..

ومن عجيب الحدث، أن ترى من هؤلاء الشيوخ الكبار من هو على نهج الصوفية، ولا يعجبه تصرف هؤلاء الصبيان المغالين، ولا عجب في هذا.. فالأمر كما أبنت سلفا بأن هؤلاء

الشيوخ يمثلون التصوف المعتدل المستقيم الذي لم يفقد ربانيته وسماحته واتزانه الذي عرف به عبر القرون.

منذ أيام أهاج أحدهم الدنيا على الإمام ابن تيمية واتهمه بالضلال العقدي، وهي قولة باطل وآبدة من الأوابد، نعت بها إمام كبير له في الإسلام قدره العظيمة وبلاءه الحسن وعلمه الوافر وصدقه البليغ، وأئمة الأزهر كما تكلمنا عنهم هم أعرف الناس بقيمة الامام ابن تيمية وأشد الناس تقديرا لعلمه وعقله، ومن ثم حينما حدث هذا الهياج المنكور، خرج الشيخ العالم الجليل محمد أبو موسى وفي شهادة تاريخية يتحاكى بها الزمان، أو في صفحة تاريخية ترويها الأيام صفع بها أهل الغلو من تيار المداخلة المتمصوفين، خرج أبو موسى ومن صحن الأزهر الشريف وأعلنها بكل قوة: أن من يسب ابن تيمية ويكيد له هم الحشاشون وقال " أنا أسمع بعض الحشاشين الذين ينتقدون العلماء وهم لا يحسنون نطق أسمائهم، ابن تيمية الذي طالت عليه ألسنة الحشاشين.. أنا بسمع بعض الحشاشين، لأن هذا زمن غريب لم يمر بأرض الكنانة، ولا بأي أرض إسلامية، زمن كهذا الزمن، ظهرت فيه غرائب إلى آخره، ونرجو الله تعالى أن يسلم البلاد والعباد من هذا الفساد الوبيل"

أبو موسى من كبار علماء الأزهر وعضو بهيئة كبار العلماء، ومؤخرا حصل على جائزة الملك فيصل في خدمة الإسلام، أي أن جهود الرجل جبارة في خدمة دينه، وهو مفخرة من مفاخر الأزهر الشريف، وكل هذه المقدرات لا شك جعلت من انتقدهم في حرج شديد، لقد أتتهم الضربة القاصمة من عرين الأزهر وقامته الكبرى، فأخذوا يدورون حول أنفسهم مما أصابهم من تيه أذهب عقولهم.

لم يجد من اتهم الإمام ابن تيمية بالضلال سبيلا يرد به على كلام الشيخ أبو موسى إلا حجج فارغة فقال فيما أثر عنه في محاولة لمداراة الأمر والتخفيف من وقع الصدمة : " وَصْفُ بعض علماء الأزهر المعاصرين منتقدي ابن تيمية بالحشاشين ؛ وصف غير لائق، وما كل أحد يُقبل منه من ما قال ؛ لأن في منتقدي ابن تيمية كبار أعلام الأمة ، وفيهم حنابلة من أهل مذهبه، وفيهم من جمع بين مدحه وقدحه!

وأما فرح بعضهم بهذا الوصف؛ فهو كفرح الصبيان بمكايدة بعضهم بعضا، على أنه وقوع فيما يحذرون غيرهم منه، من التجاوز والتطاول عند الخلاف ! وبالله التوفيق."

لكن مهما أول صاحبنا وحاول التخفيف من وقع ما نزل به من الهول، فلن يستطيع، لقد ضرب الشيخ أبو موسى هراءه بمكسحة جارفة فتركه في تخبط مخيف، ونحب أن نقول للمتخبط نحن لم نفرح بما وصفك به الشيخ كفرح الصبيان، ولكننا فرحنا لأن الشيخ ردك إلى الحق إن كنت من المجيبين، فرحنا لأن الشيخ أنصف الحق وجلى الصدق، وأشهر العدل، وأعطى لأعظم أئمة الإسلام حقه في الوقت الذي يحاول بعض الجهلاء غمطه والتقليل منه.

وللقارئ الملاحظ نحب أن نذكره أن هذه الحادثة التي كان بطلها الشيخ أبو موسى، لم تكن الفريدة من نوعها، فمنذ عام تقريبا وحينما قام بعض المتصوفة ينتقد الشيخ ابن عثيمين ويتهمه بتكفير الازاهرة، انتفض عالم كبير من علماء الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء وهو الدكتور الراحل محمود توفيق سعد، ورفض هذا الكلام ورد عليه وأعطى لابن عثيمين حقه وشرفه ومكانته، ووفّاه مقامه في خدمة الإسلام والعلم، ومن المثير أن الشيخ الدكتور محمود توفيق سعد من علماء الأزهر المنتسبين للتصوف، ومن مريدي مدرسة الإمام الرائد محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية، ولكنه التصوف المعتدل المتزن البريء كل البراءة من الغلو والشطح والمدخلية التي طرأت على بعض تياراته الحديثة.. بارك الله في علماء الأزهر الحكماء الذين يجمعون ولا يفرقون، ويرفعون لواء الحق ولا يغالون.

قال أبو غدة: مثل تعقيبك على حديث رواه البخاري بقولك: صحيح، أولا يكفي أن يكون رواه البخاري في صحيحه الذي تلقته الأمة بالقبول، حتى تعقب عليه بالتصحيح ؟.

وهنا تدخلت أنا محاولا أن ألتمس وجها لتصحيح الشيخ، وقلت: لعله يريد بقوله: صحيح أن الحديث ليس من الأحاديث التي انتقدت على البخاري.

وهنا قال الألباني: لا، ليس هذا ما أقصده. بل هذا منهج لي، التزمته ومضيت عليه: أن أعقب على كل حديث بالتصحيح أو التحسين أو التضعيف.

قال أبو غدة: تعقب على البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله ؟! ألا تخشى أن يفهم القارئ من ذلك أن جامع البخاري فيه الصحيح والضعيف، ولا بد من التمييز بينهما، كما في سائر الكتب التي جمعت بين الصحيح والضعيف؟!.

إلى هنا توقفت المناقشة على ما أذكر، ولكنها احتدمت، بل اشتعلت بعد.. ذلك في تقرير كتبه الشيخ أبو غدة على تخريج الألباني لشرح عقيدة الطحاوي، ورفع إلى جامعة الإمام محمد بن سعود.

ثم في رد الشيخ الألباني الشديد على هذا التقرير.

ثم في رد الشيخ أبو غدة على الرد.

ثم في التعليق على هذه المعركة من الشيخ الشاويش بـ (كلمات) من عنده، وقد كان هواه مع الألباني، باعتبارهما من مشرب واحد، ولا سيما قبل أن يختلفا، ويشتد بينهما الخلاف في أمور غير فكرية ولا علمية."

ويعقب القرضاوي بقوله: "لقد كانت معركة بين أهل العلم بعضهم وبعض، لا لزوم لها، أثارت عبارًا ودخانا زكم أنوف الفريقين، وأصاب كلا منهما بأضرار وآثار، كان بالإمكان تفاديها، لو كان حسن الظن، والتسامح، والجدال بالتي هي حسن شعار الفريقين"

بهذا يستقيم السياق ويظهر الحق وينكشف الزيف والكذب، عالم يختلف مع عالم ولكل منهما رأيه ووجهة نظره ومكانته وقيمته، ورده وتعقيبه، أما أن تظهر القصة الاولى الألباني وكأنه صبي تافه أبله، فهذا مالا يقبل، وعلينا ونحن في غمرة مشاعرنا المحمومة أن نراعي الإنصاف ونحترم عقول القراء.

بعض الناس سيقول لك الالباني هو أول المتهجمين على الناس، والطاعنين في الاعلام ولا يستحق دفاعك عنه وغضبتك له، وأنا أقول: حتى لو صدق هذا لكنني أطلب الاعتدال ولا أدافع إلا عن الانصاف.

عميد وفنان

الإنسان النبيل هو ذلك الذي لا ينسى أبدًا من قدم إليه معروفًا، ولو بكلمة أو دمعة أو مواساة في لحظة ضعف وانكسار وضياع.

الشهامة الحقيقية أن لا تنسى أبدًا من وقف بجوارك في وقت ضيق، حتى ولو لم يقدم لك شيئا سوى أن يربت على كتفك حزينا من أجلك.

اشكر له صنيعه وحي قلبه الذي كان معك وآزرك، وتمنى لك الخلاص والنجاة.

أقول هذا الكلام وأنا استمع إلى صديق لي يروي لي نبأ عميد من عمداء جامعة الأزهر الشريف، كان قد وجد من يساعده من الدكاترة الكبار، ومد له يد العون، وأسهم رقيه وتصدره، وصار صاحب جميل عليه، ولما وصل صاحبنا إلى درجة العمادة وصارت له السلطة والسيادة، تعنت في الإشراف على زوجة أستاذه الذي ساعده وذلل له الطريق حتى بلغ المعالي، لم يمنح الزوجة ما تريد ووقف في وجهها، وأعاق طريقها، حتى ماتت ولم تحصل على الدكتوراه، وكأنها تجني جريمة زوجها الذي لم يكن له ذنب إلا أنه كان نبيلا شهما معه، فقابل كرمه بجحود عنيف وتنكر شديد.!

هل تتخيل أن صاحب هذا الصنيع كان ممن يتقنون فنون التملق والتزلف للكبار، ويفترض له أن يكون عالما من العلماء، إلا أن أخلاقه التي جبل عليها أبت إلا أن تكشف عن نفسها، وتجرح أولئك الذين أحسنوا إليه يومًا ما.

كنت أستمع إلى هذا الحال الرذيل وأنا أقرأ هذا الخبر الذي نشرته «مجلة» الموعد في عددها الصادر يوم ١٠ مارس ١٩٧٠، حيث طلب الفنان الكبير يوسف وهبي من أحد العاملين لديه أن ينظف مكتبه ويتخلص من الأوراق والصور التي لا فائدة منها، نفذ العامل التعليمات وبدأ يبحث في أرجاء الغرفة، حتى وصل إلى الخزنة الخاصة بيوسف وهبي، فتحها وبدأ بإخراج محتوياتها، ومن بين ما وجد، كانت هناك صورة موضوعة داخل برواز صغير، ظن العامل أنّها صورة قديمة لا أهمية لها، فألقاها على الأرض عن غير قصد، وهنا كانت المفاجأة.

صرخ يوسف وهبي بصوت مرتفع ملأه الانفعال، حاسب على الصورة دي!، وانتفض من مكانه مسرعًا ليلتقط الصورة بنفسه، فيما وقف العامل مذهولًا يعتذر: أنا آسف يا أستاذ.. دول قرايب سعادتك؟ جاء رد وهبي هادئًا لكنه عميق الدلالة: لأ.. دول المحضرين اللي حجزوا على هدومي من ٤٠ سنة.

روى يوسف وهبي للعامل القصة الكاملة، وقال إنَّ الواقعة حدثت في مسرح رمسيس، حين دخل عليه ٣ من المحضرين في أحد الأيام لتنفيذ أمر بالحجز على ممتلكاته، بسبب تراكم الديون على فرقته المسرحية بعد سلسلة من الخسائر، ورغم قسوة الموقف، لاحظ وهبي شيئًا إنسانيًا نادرًا، المحضرون الثلاثة كانوا متأثرين للغاية، يحاولون إخفاء دموعهم وهم ينجزون مهامهم، ويعتذرون له بشدة على ما اضطروا لفعله، بحسب قوله، وفي تلك اللحظة حضر مصور لتوثيق صور للفرقة، فطلب منه وهبي التقاط صورة للمحضرين الثلاثة، واحتفظ بها في برواز صغير، كذكرى لموقف مؤلم، لكنه يحمل معاني إنسانية نادرة.

مرت السنوات، وتحقق النجاح الفني الذي طمح إليه وهبي، وحين تمّ تكريمه في لندن، التُقطت له صورة خلال الحفل، فوضعها في برواز مماثل، ثم وضع الصورتين جنبًا إلى جنب في خزنته، لم يكن يفعل

ذلك بدافع التفاخر، بل كما أوضح بنفسه: احتفظت بالصورتين علشان أفتكر دايمًا إن مفيش يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.

يوسف وهبي كان شخصا شهما أصيلا، اما العالم الجليل فلم يكن على المستوى اللائق بمكانته.

تخيل أن بعضهم يستاء ونحن نتحدث عن أزهري بهذه الصورة ويتخيل اننا نهين الأزهر، وكأن كل أزهري لبس العمامة وتقلد العمادة هو في ظنهم نبي معصوم أو ملك مطهر، لا يقربه النقد، وعصي على التنقيص.! والأزهر عامر بالشرفاء، وليس معنى أننا ننتقد أحدا منه اننا جعلنا ذلك القاعدة التي نبني عليها.. دعونا نشير إلى الشر مهما كان خطأه أو موقعه، وهل لو ذممت مصريا شريرا يعني ذلك ان كل مصر على سوء؟!

إن كل كريم نبيل هو الشريف وإن كان أضعف الناس وأقلهم، وإن كل خسيس وضيع هو أخبث الناس وإن كان أكبرهم.

تجديد الخطاب السلفي

الفيس بوك في اليومين الأخيرين يضج بدعوات الشفاء للعالم السلفي الشهير ابو إسحاق الحويني، وما لمسته أن غير المنتسبين للتيار كذلك مشغولون بالدعوات له.

والحقيقة أن الشيخ الحويني بالخصوص، له قبول في العلم والفكر عن غيره من شيوخ التيار السلفي، خاصة في فتراته الأخيرة ومراحله المستحدثة التي أظهر فيها مدى قبوله للآخر المختلف عنه، وأحاديثه التي شهدت اعترافات بما أعلن انه تراجع عن كثير مما كانت تأخذه به حماسة الشباب، وأن غير طريقته في النقد والتناول بما يخدم الدعوة والعلم.

وأنت فعلا في سماعك للحويني في صدر ظهوره ليس هو الحويني الذي نراه الآن، فقد كان قديمًا يتكلم في العلم، وهو ممسك بشرط وسكين يجرح به كل من حوله من العلماء ممن ليسوا على منهجه.. لكنه اليوم شيء مختلف ومتزن ومرن ولين.

والتخلي عن التجريح مما شاعت به فتراته الأولى، جعل لديه قبولا ممن كانوا يرفضونه بالأمس، وصار في نظر الكثيرين رمزًا للاعتدال والاتزان بعد فترات التشنج والرمي.

ويبقى السؤال الملح.

هل يدرك أبناء التيار السلفي مسحة هذا التغير عند الشيخ، أم انهم فقدوا فيه الحماسة التي عهدوها عليه قديمًا والتجريح الذي درج عليه ويتنمون الحنين إليه؟

منذ فترة استعمت إلى الشيخ وهو يروي مشواره القرائي مع الأدب العربي ورموزه ورواياته، وهو منحى وعر شجاع لا يقوى على الحديث فيه إلا رجل شجاع، لأن هذا النمط من الثقافات عند بعض -وأقول بعض- الفئات السلفية منكر وزور وباطل وهدر للوقت.

لكن الشيخ بهذا الحديث على الجانب الآخر قد استمال كثيرًا من الثقافات والعقول الأخرى وانفتح عليها بما يحبونها.

الشيخ الحويني أخيرًا يسير على منهج الاعتدال.. المنهج الذي يجمع ولا يفرق، يؤلف ولا ينفر، يقرب ولا يبعد.. ولا أقصد بكلمة تجديد الخطاب تجديد المنطوق من حيث المنهج والفكر وإنما أقصد بالتجديد في الإجراء والسلوك وطريقة الطرح التي اختلفت كثيرا عما مضى والتي شهد عليها بواقعه ولسانه، والتي لها من الأهمية القصوى في خدمة الدعوة وتوحيد الصف الديني.

وقد استمعت إليه في شرحه لكتاب صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي، فأكد على ضرورة هذا الحديث الذي قد لا يروق للبعض سماعه وسماه (مدرسة الحياة)، وذكر أن علم مصطلح الحديث من علوم الآلات التي تُقسي القلب، شأنه شأن علوم الآلات وقد كان من علماء الأصول من لا يصلي، فلابد إذن لطالب العلم أن يهتم بقلبه.

ويذكر الحويني أن صيد الخاطر كتبه ابن الجوزي بقلم رشيق.. أي بقلم أدبي رشيق

والشيخ الحويني في شرحه لصيد الخاطر يوضح منهجه الجديد الذي بدا به وظهر عليه في سنواته الأخيرة، والذي يقوم كما ذكرت على التجميع لا التفريق، ووأد الخصومة والعدواة بين الأشباه والأماثل، والدليل على هذا أول ما بدأ به من شرحه لهذا الكتاب وهو قول ابن الجوزي : "اعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب أذىً من حيث لا يعلم؛ لأن المظاهرة بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضرباً، وقد يلوح منه مضربٌ خفيٌّ وإن اجتهد المتدرِّع في ستر نفسه، فيغتنمه ذلك العدو.

فينبغي لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في أن لا يظاهر بالعداوة أحداً؛ لما بيَّنْتُ من وقوع احتياج الخلق بعضهم إلى بعض وإقدار بعضهم على ضرر بعض، وهذا فصل مفيد، تبين فائدته للإنسان مع تقلب الزمان."

إنه يتحدث عن الحكمة في معاملة الناس ويذكر أن الطيش سرة كل شر، والحكمة وجماعها الحلم والعلم هي مصدر كل خير، كثير من العداوات الموجودة بين الناس كان يمكن أن تزال بكلمة طيبة، كان يمكن أن تظهر ببذل الندى مهما كان قليلا، لكن الحمق والطيش وحظ النفس والتحدي هو الذي جعل العداوة بين الناس كالهواء الذي يتنفسه الناس"

وهنا نحاول أن نستدعي كلام الشيخ الحويني وتعقيبه على حال الشيخ الشعراوي، كداعم قوي لما نريد الالتفات إليه يقول الحويني:

" حينما كنت شابا كنت جامدا و الأمور عندي ليس لها إلا وجه واحد لا وجهين، وكنت أرى الشيخ الشعراوي يفسر تفسير الأشاعرة، ولا أقبل كثيرًا مما يقول ، فكنت أتكلم ولا أصمت وأنتقد خشية أن ينتشر كلام الشيخ بين العوام وهو خطأ، وبعد ما كبرت وعقلت، وطول العمر يعطي مزيدًا من العقل، فرأيت أنه ليس من المصلحة أن أنتقد رجلا مشهورا عند العوام حتى لا يتجنى الناس عليك، فقلت ليس من الحكمة أن أفعل هذا، بل إذا قال صوابا أقوله، وإذا قال خطأ ألجأ إليه أو إلى أحد قريب منه وابلغه ذلك ما استطعت، ثم بدى لي خطأي في كلامي مباشرة وهو ليس من الحكمة، وإنما أتكلم عن الفكرة وحدها ولا أمس الأشخاص."

ثم يقول الحويني وهو مما لابد من ذكره وقوله هنا حتى يتأدب كثير من أبناء السلفية مع العلماء والشيوخ الذين يخالفون منهجهم يقول الحويني عن الشيخ الشعراوي:

" الشيخ الشعراوي رحمه الله رجل مسموع الكلمة ومضت شهرته في الأمة وجعل الله له لسانًا في الناس يترحمون عليه وهو أهل لذلك رحمه الله رحمة واسعة"

أرأيت أيها المتشنج؟

يُطل علينا من قبره

في ظلال معرض القاهرة للكتاب في هذا العام ٢٠٢٦، أطل علينا من أروقته من ذكرنا مرة أخرى بهذا الحبر البحر، والعالم النحرير، الذي ترك بصمة كبيرة في حياة الكثيرين من محبيه وتلاميذه، وكل من عاشره وصاحبه وتعامل معه، وكان علامة زاهية ومنارة شاهقة يعتز بها الأزهر الشريف جامعا وجامعة.

إنه الدكتور محمود توفيق سعد العالم الزاهد التقي النقي المتواضع لربه الناظر دوما لآخرته، يطل علينا في هذه المناسبة وبعد عام كامل من رحيله، وبعد أن استجمعنا كثيرًا من مناقبه ومآثره في كتاب أخرجه جمع حاشد من تلامذته ومحبيه، وظننا نحن أننا قد أحطنا به خبرا، ولم نترك شاردة ولا وارده من شمائله إلا وسطرناها في هذا الكتاب، إذا به وبعد هذه الأشهر الطويلة تأتي حادثة فريدة، وكأنه يريد أن يقول لنا عبرها: إن ما جمعتموه وخبرتموه ما هو إلا نذر يسير مما كنت عليه من صفات الزاهدين المخبتين العارفين الصالحين.

وهي إطلالة جديدة تضيف إلينا لمحة أخرى من فضائله وزهده وقناعته ورضاه وابتغائه مرضاة ربه في كل خطوة وحركة ونبضة، وإيثاره لما عنده على متاع الدنيا وأموالها.

في لقطة نادرة وفي مقطع مرئي خرج الأستاذ [حسين وهبة] صاحب دار وهبة للنشر والتوزيع من جناح الدار بمعرض الكتاب، وهو يمسك بكتب الراحل العلامة الدكتور [محمود توفيق سعد] العالم اللغوي والأصولي الأزهري والباحث المحقِّق، وأستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر، وعضو هيئة كبار العلماء في الأزهر، الذي وافته المنية في نفس هذا الشهر الذي نحن فيه يوم ٢٧ فبراير من العام الماضي ٢٠٢٥.

أمسك حسين وهبة كتابا من كتب الشيخ محمود توفيق، وأخذ يتذكر الماضي القريب، وذرفت عيناه بالدمع وتحشرج صوته، لما عاينه وأسره من خلق الرجل وزهده وخلقه الكريم وورعه الوافر، والذي لم يجده عند أحد مثله ممن عاملهم واختلط بهم، ليكون حالة فريدة لعالم جليل عاش حياته مجسدا للأخلاق العالية، والنفس السامية التي تسربلت برداء التعفف والأعراض عما يسيل منه لعاب المفتونين.

يقول الأستاذ حسين وهبة: "حينما جاءني الشيخ محمود توفيق سعد رحمه الله بكتابه (استقيموا على الطريقة مراجعات في الفهم والإفهام في باب الوصل والاتصال) والذي طبعته له عام ٢٤ أي قبل وفاته بحوالي ١٥ يوما، وحينما راجعت الكتاب قبل دفعه إلى المطبعة، وتأملت سطوره ومحتواه، جاء في نفسي وشعرت أن الشيخ كتب الكتاب وكأنه يودع الدنيا، ثم حددت معه موعدًا للقاء، وذهبت إليه في بيته، وسأقول الآن عنه كلاما لا يقوله إلا عالم له صلته بالله ولا نزكي على الله أحدا، فقد ذهبت إليه في بيته وأخذت معي نسختين من كتابه، فقال لي: لماذا أتيتني بنسختين؟ يكفيني نسخة واحدة، فقلت له: لا.. أبقي النسختين عندك فلربما تُحب أن تعطيها لأبنائك أو تهديها لأحد ما، وكانت له عندي حقوق تأليف وكنت قد أحضرت جزءا كبيرا منها لأعطيه له، فقلت له: هذا جزء من حقوق التأليف والبقية تأتيك بإذن الله الباقي قريبًا، فقال لي بالنص: إني مسامحك في كل شيء، إن العلماء لا يأكلون من كد فكرهم، هذا علم لا نأكل منه، وأنا أوصيت أبنائي من بعدي وقلت لهم: إن على الحاسوب كتب كثيرة، إن توفاني الله قبل إخراجها، فسلموا الهارد إلى حسين وهبة، ليطبع الكتب، وحينما تجوعون ولا تجدوا لديكم طعاما، اذهبوا إلى حسين وهبة وخدوا حقوق تأليف، وفي ذات الجلسة قلت له: يا دكتور لقد قرأت هذا الكتاب ورأيت فيه كأنك تودع الدنيا، فقال لي: إن الطفل الرضيع يودع الدنيا في كل لحظة، ويشاء العلي القدير أنه بعد أسبوعين فقط سمعت نبأ وفاته رحمه الله.. ويومها كتبت على صفحتي: لقد سقطت اليوم ورقة كبيرة من أوراق الأزهر الشريف، سقطت ورقة كبيرة من حفظة القرآن وعلوم القرآن الشيخ محمود توفيق

سعد، وأما كتابه استقيموا على الطريقة، فأتمنى وأرجو على الله أن يغفر لي ذنوبي بطباعتي له وما سوف أطبعه"

ما أسما الشيخ رحمه الله وما أسما عفته وزهده وتسامحه، ولعل وصيته لأبنائه في ريع كتبه قبل أن يموت، ووصيته لهم بالتعفف والتزهد في أجر ما نذره للعلم، لعل هذا الصنيع ذكرني بحادثة رويتها من قبل وما زلت أرويها ولا يمكن أبدا أن أنساها، حينما هممت ينشر كتاب لإمام من أئمة العربية المعاصرين وتصويره إلكترونيا لنشره عل الانترنت، وتسهيل الوصول إليه وإمتاع القراء بما فيه من علم وأدب وجمال، فإذا بي أفاجأ بابنته التي انتفضت غاصبة مستشيطة، وكادت أن ترفع علي قضية أمام القضاء، وسلطت دار النشر أن تتواصل معي وتنذرني بالتعرض لبطش ومساءلة القانون، والتي كانت تصل غراتها إلى أكثر من ٨٠٠ ألف جنيه، ولما حدثتها في ذلك راسلتها، فقالت لي بالحرف الواحد: لا أريد أن أتجادل معك، فهذا حقنا وأنت خير من يصون الحقوق، قلت لها: يا سيدتي فرق بين حقكم القانوني وحقكم الديني، فهذه الكتب لكم فيها الحق بالقانون، ولكن ليس لكم فيها أي حق ديني، فهي حق الأمة وحق الإسلام وحق العلم، ولو كان والدكم على قيد الحياة، لما رضي بهذا الإرهاب والحجب الذي صنعه أبناءه ضد محبيه وعشاق علمه وكتبه، ولو كان مثلك فعلا يفكر في بر أبيه، لعلم أن نشر كتابه إلكترونيا، ووصوله لأكبر شريحة ممكنة من القراء، سيزيد من الثواب والأجر الذي يأتيه وهو نائم في قبره سعيدا بما جلبتموه له من حسنات تزيد من مقامه عند ربه، لكنكم لا تفكرون إلا في المال والكتب التي جعلتم منها بقرة حلوبا تدر عليكم المال، أما العلم والرسالة والبر بالوالد فأخر شيء تفكرون فيه أو تعتنون لأمره.

ولا شك عندي أن هذا الإمام الجليل لو كان يعرف ما سيحدث من بناته، لأوصى بنشر كتبه قبل أن يموت بأي وسيلة ممكنة، وأي طريق متاح، بل لعله كتب ضمن وصيته أن لا يكون لأولاده سلطانا على كتبه وريعها والتحكم في نشرها، حتى لا يحجبوها عن طلبة العلم كما فعل التقي النقي محمود توفيق سعد.

فرق كبير بين هؤلاء الأبناء وبين أبناء العالم الجليل فضيلة الدكتور محمود محمد عمارة فحينما نشرنا كتبه إلكترونيا سعدوا واستبشروا وسرهم أن توجد وسيلة تحيي آثار والدهم وتعيد أثره وتذكر بكتبه وعلمه مرة أخرى، وإتاحتها من جديد لتلامذته ومحبيه ومريديه من طلاب العلم.. لم يفكروا في مادة أو عائد لأن برهم بأبيهم كان لديهم في المقام الأول، وليت كل أبناء العلماء على هذا الخلق وليت كل العلماء يوصون أولادهم بما أوصى به الشيخ محمود أبناءه وذريته.

الشيخ الشعراوي مربيًا

كثيرا ما يطل عليك الشيخ الشعراوي معلما، ولكنك لا تدركه مربيا، ولعل الحياة الخاصة للعظماء أمثاله مما يمكن لنا حين نعلم شيئا من تفاصيلها أن نتعلم منها كذلك الكثير والكثير.

ومن أهم معالم هذه الحياة الخاصة في أسلوبه في تربية الأبناء وتعليمهم، وهي أمر يهم كل والد له أبناء يريد أن يسلك معهم أسلوبًا سويًا في التربية والتوجيه، وها هو الشيخ رحمه الله تعالى في إطلالة سريعة نتعرف عليه داخل البيت مربيا للأبناء ومعلما للأجيال.

يرى الشيخ الشعراوي رحمه الله أن الطفل يجب أن يربى جيدًا، وأن هناك فرق بين أن تعلم الطفل، وأن تربي فيه مقومات الحياة، فالطفل إذا ما تحركت ملكاته وتهيأت للاستقبال والوعي بما حوله، فيجب أن نراعي كل ملكاته بسلوكنا المؤدب معه وأمامه، فنصون أذنه عن كل لفظ قبيح ونصون عينه عن كل مشهد قبيح.

كان الشيخ يحب النظام ويكره أن ينقل أي طفل من أحفاده شيئًا من مكانه وينفعل عليه، مما قد يحزن والديه، ولأن عدم النظام والإخلال به يقلقه ويضايقه، فإنه قد يلجأ للحوار مع الأطفال كان فيشرح لهم الغرض من هذا الشيء، ولماذا هو في هذا المكان، وهكذا في كل الأمور، كان يؤمن أنه يجب أن يتضح في ذهن الطفل ماذا نريد منه وما الغرض للأشياء التي حوله.

كان الشيخ رحمه الله يؤمن كذلك أن أهم شيء في التربية هي القدوة، والتي إن وجدت سيأخذها الطفل تقليدا، وأن أي حركة من سلوك سيء يمكن أن تهدم الكثير مما نبنيه.

فإذا حدثنا الطفل عن الشجاعة والصدق والأدب، ثم دق جرس الباب وقلنا له: اذهب وافتح الباب، فإذا كان فلان هو الطارق فقل له : إن والدي غير موجود فإننا نهدم بهذا كل ما بنيناه وكل ما قلناه له عن الصدق والشجاعة والأدب، وتتكون في ذهنه قضية وهي أن هناك كلاما يقال وكلاما لا يعمل به، وإن أخطر الأمور أن يتعلم الطفل الكذب.

كان يؤمن أننا إذا أردنا أن نربي أولادنا تربية إسلامية، فإن علينا أن نطبق تعاليم الإسلام في أداء الواجبات وإتقان العمل، وأن نذهب للصلاة في مواقيتها، وحين نبدأ الأكل نبدأ باسم الله، وحين ننتهي منه نقول الحمد لله .. فإذا رآنا الطفل ونحن نفعل ذلك، فسوف يفعله هو الآخر، حتى وان لم نتحدث إليه في هذه الأمور.. فالفعل أهم من الكلام ويذكر رحمه الله أن: أم الأولاد الله يرحمها كانت تحكى لي عن كل شيء يجرى يوميا.. كانت تحكى لي عند عودتي وهى تخلع لي هدومي.. وكنت إذا غضبت من تصرف

أحد الأولاد.. كنت أقول لها: «هاتي الغدا بره.. أو ضعيه في الغرفة الأخرى لأننى لا أريد أن أكل مع الأولاد.. فيأتي الأولاد ويسألون: لماذا لا تأكل معنا؟ فكنت أقول: لا أكل معكم وفيكم ولد بيعمل كذا وكذا إنني أريد أن آكل وحدى علشان ربنا ميعاقبنيش بسببكم! فيأتون ويأخذون في تقبيل يدى ورجلي.. وأخيرًا أقبل اعتذارهم، وأجلس آكل معهم..

لقد كان يعلمهم معنى الخوف من الله سبحانه وهو مناط كل أدب وتربية، حينما تخلق في نفس الصغير معنى الخوف من الله، فذلك إقامة عظيمة للدين وإحياء للضمير.

ويذكر الشيخ موقفا آخر فيقول: كان يأتينى ناس من «المجاذيب».. وكان عندي ولد من أولادي نفسه وحشة شوية، كان يقرف منهم.. وفى مرة وقف على الباب ومنع واحداً منهم من الدخول، وعرفت بذلك فغضبت.. عرفت ذلك من أمه.

و بعد يومين ربنا رزقنا بواحد منهم.. واحد من "المحاذيب" فقلت له: أهلا وسهلا.. ورحبت به.. ونااديت على «أم سامي» التي هي زوجتي وقلت لها جهزي غيارين من بتوعي في الحمام.. وأدخلته الحمام... وعندما شاهدني الولد اللي كانت نفسه وحشة وبيقرف منهم وأنا أفعل ذلك مع الرجل المجذوب.. انتظره حتى خرج من الحمام وأخذ يقبل يده.. ومن يومها وهو لا يرى "مجذوبا" إلا قبل يده.

إنه يعلم أولاده معاني الرحمة والإحسان والبر بالمساكين، وأن هذا لا يكفي أن تنصاع له النفس وتؤمن به، ولكن لابد لحركاته وجوارحه أن تعلن ذلك في تقبيل الطفل يد المجذوب، فلله ما أبره وأرحمه وأكرمه.

يشمتون في الشعراوي

حينما اغتيل الرئيس السادات رحمه الله هلل بعض الإخوة الأقباط في ذلك الوقت نظرًا للخلاف المحتدم والمعروف بين البابا شنودة الذي كان يطالب بدولة مستقلة، والرئيس السادات الذي رفض هذا الطلب واعتبره تهديدا للتراب الوطني، واعتقل البابا وحافظ على كيان ووحدة مصر.

ولكن الإخوة الأقباط لم يكتفوا بالتهليل والنشوة لمقتل الرئيس المؤمن، وإنما سارعوا بالادعاء بأن ما حدث كرامة الرب للبابا، وانتقام الرب من عدوه.

نفس الشيء يحدث اليوم حينما خرج علينا أبناء الأفاعي الوقحون الصفاق الحاقدون على الإسلام ورموزه وقاماته، والأزهر ومناراته، يزغردون ويهللون حينما بلغهم نبأ تسرب مياه المجاري لقبر وضريح الشيخ الشعراوي رحمه الله وخرج بعضهم بنباح بغيض كنباح الكلاب يتغنى فرحا شامتا ويقول:

"تسربت المياه لقبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ففسر الشيخ الشعراوي ذلك في آخر الثمانينات بأنه غضب عليه، وتمر السنوات وتختفي جثة من صلى لله شكرًا على هزيمة مصر في مواسير الصرف الصحي في مسقط رأسه في الدقهلية .

إنها الكرامة يا عزيزي التي انتقمت لمصر وليس لعبد الناصر.

انتقمت من أكثر من كره مصر ودمر شعبها وخانها من أجل أموال البترول"

وهنا أقول ليس غريبًا على شيوعي أو ملحد أو حاقد على الإسلام، أن يقول مثل هذا الكلام الأعور المدحور، ويخلط فيه الحق بالكذب.

ولم يبلغ إلى علمي أن الشيخ الشعراوي رحمه الله تكلم في مثل هذا الأمر أو شمت في رجل ميت، خاصة أنه كان في موقع معلوم، ولا يليق به مثل هذا التصريح.

لكن ما حدث في دقادوس أن المجاري تفجرت مأساتها في كل القرية وأصابت البيوت والمنازل، وكان من ضمنها قبر الشيخ الشعراوي الذي ارتفعت حوله بضع سنتيمترات، ولم تمس الهيكل ولم تدخل القبر أو تصل إلى الرفات لتكون مثل هذه الانتكاسة التي حدثت لجثمان عبد الناصر في الثمانينات.

حين انفجرت مواسير المجاري وأحدثت رائحة نتنة في محيط القبر، ولما فتحوا القبر وجدوا المواسير قد تشققت وانكسرت وشفطت جثمان الزعيم المفدى.

إنها الكرامة أيها الأعور، الكرامة الحقيقية، كرامة الشيخ الذي حمت قبره وضريحه أن تدخلة المجاري أمام محنة أغرقت كل القرية، كرامة تواجه ذكرى قبر الزعيم الخالد التي اغتصبت المياه جسده من الداخل فانساح في مجاري مصر.

تدخل على الخط الكاتبة الشيطانة التي تغلي وتستعر ويصيبها تشنج وكمد، ويمتليء صدرها بالحقد والكره على الأزهر وشيوخه، والإسلام وعلمائه، فرحت لهذا الخبر وتهللت كثيرًا وسارعت لنشره على صفحتها، ثم أزالته سريعًا، قبل أن نسخر منها هذه السخرية في هذا الموطن.

اذهب لقبر الشيخ اليوم وقومي بفتحه لتعايني هيكله أو ما تبقى من عظامه، هل بللتها أو نهشتها المجاري ومياهها النتنة، أم لا؟ ثم اقرئي وأنت أعرف مني وأدرى بما حدث لقبر الزعيم الخالد حينما فتحوه، ولا داعي لتكراراه.

لكن المقارنة تافهة جدًا، ساقطة جدا، تظهر مقدار حقدكم الأسود وكرهكم الآسن.

وأنا أتعجب لابن الشمطاء وهو يصف أعظم دعاة مصر ومن حافظ على الايمان فيها ونشر العلم في ربوعها، أن يصفه بعداوتها وكرهها وسجوده لهزيمتها، وأنا هنا لا أدافع، لأنني أؤمن أن الدفاع هزيمة، وأن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

فأقول: من الذي جلب لمصر هزيمة وعارًا عام ٦٧؟

من الذي تسبب في مقتل أكثر من ٣٥ ألف جندي من زهرة شباب وجنود جيشنا الباسل ودفنهم أحياء في تراب سيناء.؟

من الذي حكم بالبلاد بالكره والأحقاد ووأد حريتها ودمر اقتصادها، وأولاده اليوم يملكون الملايين والمليارات؟

خيبة الله عليكم وعلى عقولكم.

الإمام كما لم نعرفه من قبل

منذ فترة ناديت في آذان العلماء والدعاة نداء الحريص على دينه وأزهره، ودعوتهم لقراءة كتب الشيخ محمد الغزالي، لأنها كتب تعلم المشايخ معاني الغيرة على الدين واليقظة في الوعي، والبصر بمواضع القدم وما يحيطها من مخاطر ومؤامرات.

لقد راعني أن يُخرِّج الأزهر عددًا من البارعين في العلوم الشرعية واللغوية، فإذا أتيت تحدثه عن قضايا الإسلام والفكر الديني، والواجب الذي يلتزمه الداعية حيال كثير من الحوادث، رأيت تخلفا باهظا، ينبئ عن جهل شاهق لا يتواءم مع العمامة التي كانت في يوم من الأيام قائدة رائدة زعيمة متصدرة.

لقد شاعت في روح كثير من أبناء الأزهر، ضلالة في النظر وضحالة في التقويم، وانحدار في المفاهيم، فما عاد منهم من يميز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والاستقامة والغواية.

بل ترى بعضهم وللأسف لا يكتفي بالجهل فقط، بل ينحدر آسفا فيقيم الحق مقام الباطل، والباطل مكان الحق.

إن ما يبرع فيه كثير من أبناء الأزهر، حينما يتكلم، إنما يكون في أحكام الفقه وقواعد اللغة، فإذا خرج عن هذا الإطار ليتولى مسؤوليته في قيادة الفكر وتوجيه العقول، رأيت تخبطا سحيقا لا يخلف إلا الحماقة والتعصب المقيت، ولهذا أرى أن أفضل سبيل يرتقي بأفهام الدعاة، ويستقيم بمسار عقولهم، ويخلق في أوعيتهم بذور الوعي الرشيد، هي كتب الشيخ محمد الغزالي الذي تبصر الداعية والعالم والأزهري بواجبه ومكانته اللائقة به، والتلقي الذي يجب أن يتعامل به.

لقد عرفت الإمام عبدالحليم محمود رحمه الله، شيخ الأزهر الأسبق، فهو في نظري شيخ وولي صالح، تقي من الذاكرين المخبتين، وحينما طالعت كثيرًا من كتبه، وجدتها تدور ولا تخرج عن ذات الفلك، ولكنني أعترف أن له بعض الكتب التي جعلتني أغير نظرتي فيه، وأرى الشيخ عبدالحليم على غير الوجه الذي ألفته وعرفته، إذ رأيت مفكرا واعيا وعقلا بصيرا يواجه كل انحراف مما يراه حوله ولا يسكت عليه، ولم يكن كهذا الصوفي العاجز البليد الذي كلما سكوت إليه انحرافا يقول لك: دع الملك للمالك، ومن كتبه التي جعلني أراه في صورة جديدة، هو كتابه [أبو البركات سيدي أحمد الدردير] نعم يبهرك الشيخ بلمسات جديدة لا تعهدها فيه، فلقد تصدى للكتاب الفجرة المجرمين الذين يتآمرون على الإسلام، ويستهزئون بالمشايخ في محاولة منهم لقتل القدوة في نفوس الشعب، بل طالب بزجهم في السجن لتخرس ألسنتهم، وهي حدة تعبر عن غيرة عظيمة على الأزهر والإسلام، بل هاجم الشيخ عبد الحليم الإعلام الفاجر وما يصدره من أفلام ومسلسلات منحرفة، تشكك في العقيدة والقيم الأخلاقية، لم يقف الشيخ عند هذا بل كشف مخططات اليهود والاستعمار والغزو الفكري في تحجيم دور الأزهر الذي يمثل خطرا كبيرا على معاقل التبشير والتنصير في كثير من البلدان، بل نقل الشيخ عبد الحليم مقاطع من بروتكولات حكماء صهيون، ثم دلف على التاريخ فوبخ (محمد علي) واتهمه بالفجور والخداع لاستيلائه على الأوقاف الازهرية، وجعله مغتصبا للمال الحرام الذي لا يفلح آكله وسارقه، وطالب الزعماء المعاصرين أن يردوا الأوقاف للأزهر.

دافع الشيخ عن الدولة العثمانية وخلفائها العظام الذي حاول كثير من المغرضين تشويه تاريخها الباهر في خدمة الإسلام، وتحطيم صورة خلفائها، إذ يقول في بعض الفقرات كلاما يقع كالصاعقة على كثير من المغرضين: "في ذلك الزمن كانت الخلافة لرسول الله الله في تركيا، وكانت تركيا معقد آمال المسلمين بسبب الخلافة، وكانت أعين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تمتد إلى تركيا راجية ومتوسلة، مستنصرة أو ناصرة.. إن الخلافة في تركيا جعلت المسلمين يتطلعون إليها كرمز لرسولهم وقائم على دينهم، وساهر على مصالحهم، وكان الكثير من هؤلاء الخلفاء يشعرون بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ويعملون ما استطاعوا لخدمة المسلمين، ونشر رسالة الله.

وكان جيش الخلفاء معدا بقدر الاستطاعة لإغاثة المظلومين من المسلمين أينما كانوا.. لقد كان للخلفاء قداسة، وكان لهم هيبة في الشرق والغرب، وكانوا يقولون فتصغى الدنيا لقولهم."

الرائع في المشهد أن الشيخ عبد الحليم إمام صوفي، ويأتي بهذه السطور في الوقت الذي يتصدر المشهد فيه شيوخ من الصوفية كل مهمتهم تغييب الناس وتجهليهم وتضليلهم، والنأي بهم عن الوعي الرشيد والقول السديد.

سمعت الشيخ الغزالي رحمه الله يقول بأن الشيخ عبدالحليم هو من أخذه من يده وجعله خطيبا في جامع عمرو بن العاص، ولما أراد الشيخ أن يعتذر، رفض الشيخ عبد الحليم اعتذاره، وفعلا تحقق رجاء الشيخ عبد الحليم حينما جعل هذا الداعية البصير في هذا الموقع، فحول جامع عمرو إلى مدرسة تربوية فكرية توعوية تهدي السامعين وتعلم المقبلين، كيف تكون معاني الإسلام الحق، الذي لا يمكن أبدا أن يقف عن حدود الأحكام الفقهية والوعظية، ففي عهد عبد الناصر، وبفضل حالة الوعي التي نشرها الغزالي خرجت أول مظاهرة ضد الشيوعية وكتابها الذين استهزؤوا بالأزهر وعمامته ومشايخه.

المتحرشون بالحوائط العالية

حينما يتطاول علي سفيه صغير نكرة، فلا أعيره أي اهتمام، وأحاول أن أعرض عن سفهه وتجنيه، لأنني لو التفت إليه، فإنني أضخم منه، وفوق هذا أرخص من مكانتي وقيمتي، وأقطتع منها لأمنحه إياه.

كثيرون من هاجموا الشيخ الشعراوي، لكنه رحمه الله، كان يترفع عن كبتهم وهو على ذلك قدير، وكان يدرك مغذى آخر أبعد أثرا وأعمق رؤية من مسألة الثأر لنفسه، والشعور الغامر بالانتصار العلمي والفكري، الذي يغذي حظوظ النفس، ألا وهو حرصه على ألا ينال هؤلاء أي اهتمام يرفع من قدرهم، أو يضخم من مكانتهم الضئيلة، إن بادر بالرد والدفاع، فأمثال هؤلاء ما فعلوا ما فعلوه من مهاجمته، إلا ليبحثوا عن الشهرة على أكتافه، وترتفع مكانتهم، ويكون لهم دوي.

انظر إلى الإعلام الساقط، وهو يناصر فتاة ضحلة العقل والفكر، هابطة القيمة، معدومة المكانة، يدافع عنها حينما أساءت إلى الشيخ الشعراوي رحمه الله، حتى إذا ذكر الشيخ بقيمته وعظمته، تذكر معه هذه النكرة الضئيلة، كنملة تقف بجوار جبل أشم.

قرأت مرة عن هذا الرجل الذي وقف وسط الحجيج، ورفع إزاره، وأخذ يتبول في زمزم، فانهالوا عليه ضربا ولطما، ولما سألوه عن سبب ذلك؟ قال: فعلت هذا لأُشتهر.

لازلت أتذكر أو أتألم، من حادثة كتاب آيات شيطانية، لصاحبه سلمان رشدي، الذي لم يرتج له العالم الإسلامي وحده، وإنما ارتج له العالم كله، وصار مؤلفه التافه، حديث الدنيا ومنصات الثقافة فيها، وما هو إلا رجل فارغ، يغط في جهل عميق، ولكن الذي صيره إلى هذا الحد من الضخامة، ذلك الخطأ الذي

ارتكبه الخوميني، حينما أعلن إهدار دمه، ليتحول الرجل فور هذا الإعلان، إلى بطل عالمي، احتضنه الغرب وجعل منه رمزًا للعلم المضطهد، والفكر المُحارب.

ولو أن الخوميني سكت وصمت، لانتهت الزوبعة، وظل الكتاب وصاحبه نكرة، لا يدري الزمان من أمرهما شيئاً .. ولكنه منحه فرصة ذهبية، وروج بهذا التهور، لكتاب مقيت يسب ديننا ورسولنا صلى الله عليه وسلم.

منذ أيام كتب الأستاذ محمود سلطان محمود سلطان مقالا تحت عنوان (تكبير الصغراء.. فرج فودة نموذجا!) وذكر فيه حقيقة هذه الظاهرة الزائفة، التي لم يضخمها العلم، وإنما الإعلام بأبواقه المضللة، وكان مما قال:

"فرج فودة كان كاتبا سيئا وطائشا، ومستفزا إلى أبعد الحدود ، وجاهلا يدعي العلم، فيما لا يعرف من التاريخ الإسلامي إلا "ألف ليلة وليلة " والأغاني " لأبي فرج الأصفهاني، يستقي منهما كل ما هو "مرذول" ليلصقه بالغراء على الإسلام وتاريخه وحضارته.

ولذا كنت مستغربا أن يشارك كبار العلماء والفقهاء والمثقفين الإسلاميين في عملية "هندسة" الرجل إعلاميا، وأن يقبل عالم كبير في وزن وحجم الشيخ الغزالي مناظرة فودة في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩١ ، وفي حضور مأمون الهضيبي .

فالرجل كان محض "ظاهرة إعلامية" وليست مرجعية علمية حتى يستحق أن ينال شرف الوقوف على ذات الدرجة مع فقيه وعلامة عصره الشيخ الغزالي والذي كان يوصف بحق بأنه "كان أمة" !

ورغم أن المناظرة انتهت كما كان متوقعا، بدحض "مشاغبات " فودة الطفولية، إلا أن الرجل خرج منها فائزا بشرف "مناظرة" واحد من أعظم علماء الإسلام في القرن العشرين،وحتى اللحظة الراهنة ما انفك يُذكر فرج فودة إلا وذكر معه الشيخ الغزالي، وهو شرف ما كان يستحقه"

عرضت مجلة المنهل في جدة على العالم الجليل الدكتور محمد رجب البيومي أن يحرر فيها بابا تحت عنوان (رحلة إلى المكتبة) وبدأ الأستاذ في الكتابة عن بعض الكتب التي تروقه، متأكدها أنه مهما كان النقد، فإن المؤلف سيحمد له اهتمامه بكتابه والحديث عنه، وقد أوقعه هذا في بعض الحرج مع بعض المؤلفين المتسلطين، فقد أهداه أحدهم يوما كتابا له في موضوع مدروس، فارسل الدكتور له خطاب شكر على هديته، وبعد مدة زمنية، زاره وأخبره أنه أرسل له الكتاب، لا ليشكره عليه، ولكن ليكتب عنه في مجلة أو جريدة، ولم يكن الدكتور البيومي متحمسا للكتاب في شئ، ولكنه اندفع يكتب شيئا بين النقد والمدح، ليجامل صاحب الكتاب، ومضت ثلاثة أشهر حتى فوجئ بصاحب الكتاب يخبره أنه أرسل ردا فوريا

على نقده، ولم ينشرهما رئيس التحرير، رغم صدور عددين من مجلة المنهل، فقال له البيومي: وما ذنبي أنا؟ فقال المؤلف: إن رئيس التحرير صديقك، وقد ظن أن الرد سيضايقك، فحجب نشره، وأرجو منك أن تكتب إليه ليسمح بنشر ردي فهذا حقي، سكت البيومي وتحير، ولكن الرجل عاود القول في توسل يصل لدرجة التذلل، فلم يجد البيومي إلا أن يستجيب له، وكتب إلى رئيس التحرير يرجوه أن ينشر الرد، فاستجاب إلى رغبته ونشر الرد، وظن الدكتور أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد، ولكنه فوجئ بالمؤلف يحضر إليه المجلة، ويطلب منه أن يرد على رده وما خالفه فيه، فتعجب البيومي منه وقال له في انفعال: ما هذا الشطط يا أخي؟ فقال: أنا أريد أن تدور معركة علمية حول هذا الكتاب! فقال البيومي: لا يكلف الله نفسا إلى وسعها، وقد تحملتك أكثر مما يجب، فلا تلح مرة أخرى، فخرج غاضبا، وأخذ يذيع بين زملائه: أن الدكتور البيومي يحاربه ولا يريد اشتهار كتابه، ولما جاءت هذه الأنباء إلى مسامع البيومي صمت ولم يعلق بشيء، لأن من سمعوه لم يصدقوه.

وهذا الرجل من موقفه وكلماته، يظهر لنا أنه من هذا النوع المتسلق على أكتاف الآخرين، يظل يدور ويحور ويتحرش بالحوائط العالية حتى ينال منها أو يذكر بذكرها، ويراه الناس لصيقا بها حتى ولو كان مزعجا لها.

الأنصاري يواجه الغوري

أعلن دائما في أكثر من مقام وأكثر من مقال وفكرة هم قلمي أن يكتب فيها، ويدور في معالمها: أنني أُعظم الإنصاف، وأحترم فرسانه، وأشيد بمواقفه التي صنعها نبلاء الدنيا وأشراف الحياة.

وأنا دائما ما أردد: لا تمنعك مساوئ رجل من ذكر محاسنة.

ولما كان السلطان قانصوه الغوري الذي حكم مصر أكثر من ١٥ سنة بداية من عام ١٥٠١م ممن تحاملنا عليهم كثيرا لعدائه وموقفه وحربه وتآمره على العثمانيين، وتحالفه مع الصفويين، الذين ثبت اضطهادهم لأهل السنة وذبحهم لعلمائهم، والوقوف معهم في خندق واحد ضد المسلمين السنيين، إلا أن مقتنا له ولدولة المماليك التي اشتهرت على مدار عقودها، وسنين حكمها، بالظلم والغبن للرعية، لا يمنعنا أبدا أن نشيد بما ثبت عنه من مآثر ومحمد.!

والمرأ مهما بلغ شره أو جوره، لا يعدم أن يكون له بعض المآثر الكريمة، التي يجب أن نسجلها ولا نفر منها أو نُعرض عنها، بغية تشويه صورة من أردنا ذمه ونقده.

فليس هذا من أخلاقنا أبدا، فما كان من خير ذكرناه، وما كان من شر حكمنا فيه حكم العدل، فلا تجاوز ولا شطح، ولا إفساح للعاطفة أن تسيطر على القلم، وتروي منابت مداده.

كان السلطان الغوري على المشهور من تجبر دولة المماليك، من أكثر الحكام احتراما للعلماء الزاهدين الربانيين ذوي الرفعة والمقام العظيم في قول الحق، وإيثار الآخرة على الدنيا.

وإذا كان المقام يدعونا أن نسجل عظمة هؤلاء العلماء في الصدع بالحق في وجه السلطان، لدرجة الإغلاظ له في القول والزجر، فإننا أبدا لا يمكن أن نغفل صبر وحلم هذا الحاكم، الذي تقبل النصح، وتحمل الزجر، ووأد غضبه، وكظم غيظه، وهو ما روته الأخبار في سيرة هذا الحاكم من أخلاقه في احترام العلماء.

فمما يذكر: أن الشيخ محمد الضيروطى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ، شدد النكير يوما في إحدى مواعظه على السلطان الغوري في ترك الجهاد، فبلغ السلطان ما قاله الشيخ ، فبعث إليه واستدعاه ثم قال له: ماحملك على أن تذكرنى بالنقائص بين العوام ؟ فقال الشيخ: نصرة الدين . فقال الغورى: ما عندنا مراكب معدة للجهاد ، فأغلظ الشيخ القول للسلطان وقال له: عمّر لك مراكب أو استأجر، فاصفر لون السلطان الغورى وأمر للشيخ بعشرة آلاف دينار ، ولكن الشيخ ردها وقال: أنا رجل تاجر، ولا احتاج إلى مالك – وكان الشيخ يتاجر في الأشربة والأدوية، كما كان يرابط في برج بناه بثغر دمياط، وكانت دمياط آنئذ تقع على شاطئ البحر، فقال السلطان: عمّر بها في البرج ، فقال الشيخ أنا لا أحتاج إلى أحد يساعدني فيه، ولكن إن كنت محتاجا إلى شيء تصرفه في الجهاد، أقرضك وأصبر عليك ، وطال الجدل بين الشيخ والسلطان الغورى، مما جعل الشيخ يغلظ الحديث للسلطان قائلا: أما تؤدى شكر ما أنعم الله به تعالى عليك ؟ قال السلطان: فبماذا ؟ فقال له الشيخ:

كنت كافرا فمن الله عليك بالإسلام ، وكنت رقيقا فمن الله عليك بالعتق ، ثم جعلك أميرا ، ثم سلطانا ثم عن قريب يميتك وتكون أنفك في التراب ، ثم يحاسبك على النقير والقطمير وينادى عليك يوم القيامة: من له حق على الغورى؟ فيا طول تعبك هناك ، فبكى السلطان.

أما الشيخ الدمياطي المولود سنة ٨٤٥ والمتوفى سنة ٩٢٨ هـ فقد جرت له محنة مع السلطان الغورى، ذلك أن بعض التجار أودع عنده مالا كأمانة، وقال له: إذا بلغ ولدى بعد موتى مرحلة البلوغ فادفعه إليه ، فجاء الولد إلى الشيخ وهو دون البلوغ ، وطالب بالمال ، فقال له الشيخ: حتى تبلغ ، أي سوف أعطيك المال عند سن البلوغ ، فذهب الولد إلى السلطان الغورى الشيخ، فطلبه السلطان وطالبه بالوديعة، فأنكرها وحلف على ذلك، فلما وصل الولد إلى سن البلوغ استدعاه الشيخ ودفع إليه المال، فعلم

السلطان بذلك فطلبه وقال له: كيف تحلف أنه ليس لديك وديعة، والآن أقررت بها ، فأجاب الشيخ: إن علماء الشافعية كالنووي في « الروضة » قالوا: إن الظالم إذا طلب الوديعة من الوديع وخاف منه عليها، له أن ينكرها ويحلف على ذلك، وأنت ظالم. وهكذا لم يتحرج الشيخ كما قيل: من مجابهة السلطان بما اعتقده فيه من صفات الظلم، ومن ثم في استعمال فتوى النووي في مثل هذا الموقف.

ومن الطرائف في هذا المقام أن السلطان الغوري علم أن الشيخ زكريا الأنصاري في طريقه إليه لمواجهته بموقف تعسف كان قد وقفه، فما كان من السلطان إلا أن أمر البوابين فوضعوا السلسلة على الباب، لمنع الشيخ من الدخول، فاقتحم الشيخ السلسلة ببغلته، ومضى إلى مواجهة السلطان، ولما فشا ظلم السلطان الغورى بتتبعه لأنصار طومان باى الأول حين عزل ذلك الأخير من سلطنته في المرة الأولى – فقد تولى مرتين – صار شيخ الإسلام زكريا يعرّض به ويذكر مظالمه، والسلطان جالس تحت منبره يسمع قوله وتقريعه له وحملته عليه.

قصة شيخ أزهري نذل

أنا أزهري وأعتز بانتسابي للأزهر، وتربيت في أروقة كلية أصول الدين، وتتلمذت على يد العلامة الدكتور (محمود محمد عمارة) طيب الله ثراه، وكنت في يوم من الأيام أحمل لقب شيخ، وأرتاد المنابر، وأخطب في الناس.

لكنني لا يمكن أبدا أن أنا أصاب بهوس التعصب للأزهر على حساب الحق، وأمنح القداسة والعصمة لكل من تخرج منه وحمل شهادته.

وحينما يهاجمني وقح، يراني أعيب بعض علمائه المنحلين، وغلمانه المتهورين، يتخيل الأبله أنني أحارب الأزهر كله، وكأنه يطالبني أن أتعامى عن المفسدين الذين يتبرأ الأزهر نفسه من أمثالهم، ويشعر بهم ثقيل وهم يحملون اسمه وصفته ويلبسون زيه.

ومن العيب أن يظن ظان أنني أهاجم الأزهر قاطبة، فالأزهر صرح شامخ عظيم، يخدم الإسلام من قديم الزمن، ولكنه كأي شيء في الدينا يضم الصالح والطالح، والصادق والمهرج الكاذب، وليس غضبتنا على المنفلتين منه، إلا غضبه له ذاته لو فقه المتأملون.

قام أزهري بالأمس حينما ذكرت أن الشيخ الحويني وأستاذه الألباني فاقا كثيرا من علماء الأزهر في فن الحديث، واتهمني بالعجز في الكتابة والإفلاس اللغوي.

وأنا لا أحب الانتصار لنفسي، ولو شئت لأنزلت عليه من لهيب اللغة ما يحرقه ويفجعه ويصعقه ويعجز عن مجاراته والصمود أمامه، أو يصيبه بأزمة نفسية يلزم معها بيته مريضا مهزولا كسيحا، وكيف أكون مفلسا، والكتابة صنعتي والقلم رفيقي؟!

إنها لا تعدو إلا أن تكون تهمة حاقد، أو شطحة جاهل.

لقد أعمته الغيرة عن هذا الخبث المروع الذي اجتاح الأزهر ممن لا يليقون بالانتساب إليه، ويريد بقوة أن يمنح كل من ينتسب إليه وسام الطهر والقداسة، وهو لا شك في حمية الجاهلية، وضلالها المبين.

لقد أخذ يذكر أسماء علماء لا يدري بهم أحد، ولم يسمع عنهم طالب علم من قبل، ويريد لهم بقوة أن يرفعهم على مسامع الأشهاد، وإذا احتكمنا للتراث العلمي الذي تركه الألباني ويقدمه الحويني، لرأينا عمالقة، يذكروننا بهمة علماء السلف الصالح من هذه الأمة في التعليم والفتيا.

لكن العصبية للأزهر تعمي أمثاله عن الحق.

انظر معي هنا لأحكي لك قصة، أجعل منها حربة مطعمة بالسم الزعاف، ألقيها في قلب كل متعصب للأزهر على غير حق.

كنت في رحلة إلى نيجيريا من سنوات خلت، والتقيت بأحد المسؤولين عن العمل الخيري والإسلامي هناك، وتطرق بنا الحديث إلى البعثة الأزهرية، وأحوال شيوخها ودعاتها.. وكيف أنهم يؤدون واجبهم الدعوي في هذه البلاد.

فكان مما حكى وذكر: أن أحد هؤلاء الشيوخ تقدم للزواج بفتاة نيجيرية سوداء، وظلت معه زوجة يستمتع بها، وحملت منه وأنجبت ولدا أسمرا، وبعد أن قضى فترة عمله، تركها وسافر ولم يعد له أي صلة بها، ترك المسكينة وولدها بعد أن تزوجها للمتعة فقط، يقضي وطره ويجمد شهوته.

امتعضت من هذا النبأ، وقلت له: كيف يفعل هذا وهو واعظ أزهري يمثل الدين ويعرض الإسلام؟!

ألهذا الحد يموت ضميره، ويتجرد من أخلاقه، وكيف كان إذن تصرف المسكينة مع هذه الصدمة؟

قال لي محدثي المصري:

إننا لم نسكت، فقد جئنا بها وبولدها، وجهزناها للسفر إلى مصر وأعطيناها عنوان الشيخ الواعظ الندل واسم بلده ومحافظته، واتصلنا بمن نعرفهم في مصر لكي يستقبلوها وولدها ويوصلوها إلى الشيخ الهارب، حتى وصلت إليه وكانت فضيحته المدوية أمام أهله وقريته.

أرأيتم يا أزاهرة، كيف خرج من الأزهر شيخ لا ضمير له ولا خلق ولا رجولة ولا مروءة، شيخ لم يؤثر فيه القرآن، أو تربيه الأحاديث النبوية، فعلى أي شئ تتعصبون.

ألم يعلمكم الأزهر كما علمني، أن العصبية لا تكون إلا للحق أولا وأخيرا؟!

ما أقبح منطقكم وأهذى بيانكم.

هل أزيدك من القصيد بيتا؟

وأيم الله لقد كان طلاب الأزهر في معهد منوف الديني، وفي امتحان القرآن الشفوي، يمزقون صفحات المصحف الشريف في دورة المياه لتدهسها أقدام المتبولين.

أرأيت كيف انتسب للأزهر فجرة أبناء فجرة؟

المعركة الحقيقية

أقع في حزن بالغ حينما أجد مسلما أو مثقفًا يسير في الحياة وهو يعطي الأمان لكل من حوله، ويثق في الجميع غير عابئ بما مر على أمته وتاريخه من محن عاتية، وغير واع لما تعج به الساحة الثقافية من مهازل ومساخر وعدوان صارخ على تراثه ودينه وقيمه.

فتجد هذا المسالم والذي يبذر الأمان والثقة في كل جهة وكل مكان وطريق، يرفض يقظتك وصيحتك إذا ما نوهت بشر قادم، وأو مؤامرة ظاهرة، فيرد عليك هو قبل أن يرد عليك خصومك، ويا للحسرة حينما يكون رده عليك ليدافع عنهم ويناصرهم وينفي عنهم كل ريب وشك وتهمة.

وهؤلاء الخصوم يعلمون علم اليقين أن هذا المسلم الغافل عن مقاصدهم، أكبر مكسب لهم في الساحة والمعركة.

فحينما هاجمت بالأمس مسلسل الإمام الشافعي، وانتقدت محاولة إيقاظ العامية المصرية التي لم يكن لها وجود في هذا الوقت، وإبرازي للأمر بأنه تزييف وتحريف، اعترض بعض الأصدقاء الأعزاء، بأن العربية الفصحى ذاتها لم تكن موجودة، وبالتالي لو أنهم وضعوها كلغة الحوار، فسوف يكون أيضا لون من التزييف.

والحق أن هذا الكلام غير مقبول، ويدور في منطق الأطفال، فنحن نريد أن نوقظ وعي المسلمين بدينهم ولغتهم وانتمائهم، ومحاولة اللجوء إلى لغات أخرى غير العربية الفصيحة يفسد ويضاد هذا التوجه وتلك الغاية، لم يكن وجود العامية أو القبطية هو الأساس في معترك المقال، ولكننا نلفت النظر إلى قضية كبرى ومعركة مشهودة لا ينثني عنها الأعداء ابدا ويتحينون الفرص لإشعال أوار نيرانها.

بل هي من وسائل الحرب على اللغة والدين معا والتي يتولى كبرها أناس نعرفهم بسماتهم وتوجهاتهم يقودون مسيرة الإعلام اليوم.

يقول الأستاذ العقاد: " وإنما يحارب الفصحى من يريدون محو هذه اللغة لمحو جميع المعالم التي ترتبط بها في العقيدة والأخلاق وتراث الفكر والثقافة"

انتهى كلام العقاد.. ولكن لو تكرمت أعد علي مرة أخرى من قائل هذا الكلام الذي يشبه ما نتكلم به اليوم؟

قلت لك: إنه العقاد.

الحمد لله إنه العقاد العملاق، فهو إذن ليس فكر عناصر إرهابية، ولا تنظيمات متشددة، أو جماعات محظورة، وإنما هو فكر العملاق العقاد، وكل مصري مسلم مخلص لدينه ووطنه وكتابه وهويته.

بل يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: " من أخبث المؤامرات لصرف المسلمين عن دينهم، الدعوة إلى تغيير الكتابة العربية وإن إماتة اللغة العربية تستتبع حتما موت الإسلام، فإذا ذهبت قواعد البلاغة، ثم قواعد النحو والصرف، ثم قواعد الكتابة آخر الأمر، فإن هذا التدرج منته إلى مستقرة، وهو ذهاب اللغة نفسها، وذهاب الإسلام معها، إن أي تهوين في لغة الوحي هو تفريط مخوف العقبى"

قائل هذا الكلام من أعظم علماء الإسلام ودعاته وأفقههم، ولم يكن إرهابيا أو متطرفا أو محظورا.

إن من دافعوا عن وجود العامية المصرية في المسلسل، كانت غايتهم أن الأمر طبيعي وعادي ولا يدخل تحت باب المؤامرة ولا الكيد والعداء للدين والخصومة للتاريخ.. والدنيا كلها وردي وجميلة وأيام سعيدة ونادية.

ولعل هذه الأوهام القبيحة التي نغرق فيها اليوم بسبب نيتنا الطيبة زيادة عن اللزوم، هي التي جلبت لنا الهزائم، ومنحت أعداء الهوية الفرصة أن يوغلوا في الطعن والكيد، ما داموا يعلمون أن هناك من سيقف خلهم مؤيدًا مدافعا مناصرًا بالعبث والهراء والتفريط الجائر في معاني انتمائه وهويته.

وإني لأتعجب لمن يقول مثل هذا الكلام الناعم، ويظهر لنا أن الدنيا جميلة ووردية وناعمة هادئة، أتعجب له ألا ينظر ويرى ما تعج به برامج التوك شو، فكل يوم تجن صريح وهجوم سافر على القيم والدين والثوابت والقرآن.

ألا يأخذ باله شيء من هذا كله، ليتق الله ويعتدل عقله ويدرك أن هناك من يبغض دينه وهويته ولغته ويتآمر عليها... ألا تكون كل تلك المفتريات التي خرجت علينا في الفترة الماضية كفيلة أن تؤكد وتبرهن له، أن الدنيا فيها سواد يريد أن ينقض على النور؟!

أنا لا أعلم طبيعة هؤلاء المفرطون في حسن النية، الذين يرون مراجل أعدائهم تغلي ولن تنطفئ أبدا إلا أن تنطفئ شعلة الإيمان في مصر.

إن المسلم حينما يحيا في الدنيا وهو غير مدرك لمؤامرات عدوه، وغير محيط بتدبير خصوم ملته وأنداد هويته، فقد فرط كثيرا في مسؤوليته وواجبه، بل للأسف فرط في معنى وجوده. وهذا فكر وفهم تعلمناه في الأزهر وعلى يد علماء أشربونا حب الإسلام.

المصريون زمان

قرأت من مواقف الامام عزالدين بن عبد السلام الشهيرة، والتي اصطدم فيها مع الصالح أيوب حاكم مصر، أنه لما عاش فيها واكتشف أن الولايات العامة والإمارة والمناصب الكبرى كلها للمماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب قبل ذلك؛ رأى أنهم في حكم الرقيق والعبيد، ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار؛ فأصدر فتواه بعدم جواز ولايتهم لأنهم من العبيد، واشتعلت مصر بغضب الأمراء المماليك.

ورُفع الأمر إلى الصالح أيوب، فاستغرب من كلام الشيخ ورفضه، وهنا وجد الشيخ العز بن عبد السلام أن كلامه لا يُسمع، فخلع نفسه من منصبه في القضاء، وركب حماره ليرحل من مصر، وخرج خلف الشيخ العالم الآلافُ من علماء مصر ومن صالحيها وتجارها ورجالها، بل خرج النساء والصبيان خلف الشيخ تأييدًا له، وإنكارًا على مخالفيه، ووصلت الأخبار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأسرع بنفسه خلف الشيخ العز بن عبد السلام واسترضاه، فقال له العزُّ: إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم، فلا بد أن يباعوا أولاً ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين، فلا بد أن يرد الثمن إلى بيت مال المسلمين، ووافق الملك الصالح أيوب، ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يُعرف بـ(بائع الأمراء).

لقد كان الموقف شجاعا والاصرار قويا، وكذلك الحاكم في تقديره للعالم ومكانته كان على المستوى المطلوب، لكن الملفت للنظر والذي حرك الدنيا وقلب الموازين وجعل هذا الموقف ليس موقفا عاديا، كموقف أي عالم يصر على كلمة الحق، هو ما كان من أهل مصر وتصرفهم الذي جعل الجميع يعيد حساباته ويقدر مواقفه.

لقد كان المصريون وقتها يعظمون أهل العلم ويكبرون مقامهم، ويجعلون منهم هوى تتوق إليه أفئدتهم، وحبا تهيم به نفوسهم.

لقد خرج الكبير والصغير والرجال والنساء، كما جاء في الخبر، حفاوة بهذا الامام، وشعورا بمدى الخسارة الكبيرة التي ستلحق بأهل مصر لو فارقهم هذا التقي العارف، والرباني المرشد الهادي.. وهذا

هو الجديد الفريد في مثل هذه المواقف المشابهة لصمود العلماء، حينما تحركت هذه القوة الشعبية لصف العلماء، وأعلنت النفير العام، انتصارا لعالم الدين، الذي دخلت محبته كل القلوب.

فما أسعد المصريين أن يقيم بينهم رجل من أهل الله، ووليا من أوليائه، ليضيء حياتهم بالعلم، ويملأ حياتهم بالبركة والخير.

مشهد عظيم يرجع بك قديمًا، حينما خرج أهل المدينة يستقبلون نبي الله صلوات الله وسلامه عليه، فهو الهادي البشير، والرحمة المهداة للعالمين، ولما كان العلماء ورثة الأنبياء خرج أهل مصر تقديرا للعالم الرباني الذي عرفوا مقامه وأدركوا قيمته، وهي الروح التي عدمناها اليوم، والوعي الذي فقدنا في مداركنا، فما عدنا نعظم أولياء الله أو نوقر أهل العلم أو نحتفي بسالكي طريق الحق والحقيقة.

لقد تبدلت النفوس والعقول مع كثير مما تغير من أخلاقنا وصفاتنا وطبائعنا، وتسارعنا على طلب الحياة واللهث وراء متع الدنيا، ولم نعد بحجم الإدراك والوعي الذي كان عليه الأولين، حينما اعتقدوا أنه لا خير في وطن يطرد منه العز، ولا أمل في مجتمع يصمت أن حينما يتخلى عنه ولي الله.

انظر اليوم وكيف صار نوع الحفاوة التي تحتل العقول والمهج، تراها مزلزلة لو جاء عالم لبلدة من البلدان، لما استقبلوه أو تسامعوا باسمه، ولا أعاره أحد أي اهتمام، أما لو جاءت راقصة أو عارضة أزياء، لانقلبت لها الدنيا رأسا على عقب، ولخرج إليها ذات الاصناف التي قرأنا من قبل أنها خرجت للعز، الصغار والكبار والرجال والنساء وآلاف من الرجال والتجار.

ولكن لماذا نصب جام غضبنا واعتراضنا على الناس والمجتمع وحده وكأنهم من أصابهم داء التغيير، فإن العلماء أنفسهم تغيروا وما عد منهم من هو على مستوى العز بن عبد السلام، وصرنا نرى صورا متعددة منهم يرضون الخلق ولا يرضون الله، ويبيعون دينهم بدنياهم، فرحم الله تلك الأزمان بعلمائها وناسها، نرثيها ونرثي ما آلت إليه أحوالنا.

تخبط مفتي الديار

منذ أيام ومع بداية تلك الحملة الضارية على الإمام ابن تيمية، عكف صديق لنا على الفيس، فأجهد نفسه كثيرًا وهو يعصر صفحات وروابط الإنترنت عصرا، ليبحث فيها بحثنا دقيقا متفانيا لا عن الحقيقة، ولا طلبا للإنصاف، وإنما كانت جل غايته ومكمن اهتمامه وحماسة جهده، أن يستخرج كل رابط وكل مقطع وكل مقال، يقدح ويذم في الامام لينشره ويتبناه ويروجه ويدافع عنه.

كان الصديق المحترم يأتي بمقاطع وروابط علماء الصوفية، ومفتيّ السلطان، وآراء القبوريين، التي تعرف منذ الأزل أن عدوها اللدود هو الامام ابن تيمية، والتي ناصبته العداء لا عن علم وإنما عن الهوى والبغضاء، وكان من هذه المقاطع لقاء تلفزيوني في إحدى البرامج، يستضيف الشيخ علي جمعة مفتي الديار السابق، والذي صرح بأن ابن تيمية من الضالين، وجزى الله الشيخ علي جمعة خيرا عميما، حينما وصف ضلال ابن تيمية بأنه الضلال الخفيف الذي يمكن نقاشه والتفاهم معه.

والحقيقة أنني لم أعرف ماذا أقول وبماذا أرد؟ سوى إيماني بأن الشيخ صوفي قبوري، ومن الطبيعي أن يختلف مع ابن تيمية ويتهمه بالضلال.

وقد حاولت أن أجد تبريرا للشيخ في معنى الضلال الوارد حيث ان للضلال تعريفات أخرى منها مثلا بأنه الخطأ في الرأي والضلال في الدين، ولكنها كلمة كبرى عنيفة، حينما تلقى على الأذهان اليوم، فلا تنصرف إلا إلى الضلال في الدين كما فهما العامة وكما فهمها صاحبي من كلام الشيخ، والذي سأناقشه من خلال فهمه لمعنى الضلال الذي لا يتصوره على أنه الخلاف في الاجتهاد ووجهات النظر.

وبالأمس استمعت قدرًا لحلقة الشيخ عبدالله رشدي وهو يدافع عن ابن تيمية، وفي نهاية الحلقة، استلفتني من قوله أن الشيخ علي جمعة ألف موسوعة تسمى (موسوعة الامام ابن تيمية في الاحكام والمعاملات المالية) وقال رشدي في نهاية الحلقة: انظروا في المقدمة وشوفوا ماذا قال الشيخ جمعة في الامام ابن تيمية.!! وعلى جناح السرعة وقفت أمام السيد جوجل علامة العلماء، فقلدت صاحبي في عصرته عصرا، لأبحث وأجد تلك الموسوعة، وأستجدي أي موقع يوفرها لي حتى أرى وأقرأ ماذا قال الامام جمعة في الامام ابن تيمية، لكنني فشلت.. لأن الموسوعة غير متاحة أو متوفر منها إلا صورتها فقط، وعلى الفور قمت على صفحتي برجاء لأصدقائي، إن كان أحدهم قد توفرت إليه هذه الموسوعة فيصور لي منها ما قاله جمعة في مقدمتها، حتى أكرمني الصديق معاذ راشد بعد مرور ٢٤ ساعة، فلفتني إلى أحد أصدقائه الذين نشروا مقاطع من المقدمة التي تحمل شهادة وبيانا بأن ابن تيمية إمام الأئمة وأتقى الناس وأبصر الناس وأعلم الناس وأرشد من عرفته هذه الأمة فقها ووعيا.

فرحت بهذه السطور فرحا عظيما، لا لأنها ستنصر رأيي أو توفر لي الغلب والتفوق في الرأي على صديقنا الذي نشر رأي علي جمعة في ضلال ابن تيمية، وإنما وللحق، كانت سعادتي بها أنها ربما تصور للصديق بعض الحق، خاصة بعدما يتبين له من خلال هذا الطرح، أن الشيخ جمعة لو كان يقصد ضلال الدين لا ضلال الاجتهاد، فهو مضطرب في الرأي، متناقض في الطرح، متباين في وجهة النظر، ومتضارب في

الحكم، وهي خلة لا تليق بعالم، اللهم إلا إذا كان صاحب هوى، كما هو شأن كثير من علماء السوء، الذين يرون الموجة تسير في أي اتجاه، فيسيرون وراءها على حساب الحق والحقيقة.!

وهنا أعرض لكم بعض ما قاله الشيخ علي جمعة في مقدمة الموسوعة التي أشرف عليها.!

يقول الشيخ في المقدمة:

"ويعد الإمام بن تيمية أحد الأعلام الذين بذلوا الجهد المشكور في محاولة إرجاع أحكام الله عز وجل إلي واقع الناس وإلي حياتهم اليومية ونحن اليوم في هذا العمل الذي بين يديك لسنا في حاجة الي ترجمة هذا العلم الشهير ولا إلي تكرار ما سارت به الركبان في ذكر أحوال عصره و وصف مصره"

وعما تفرد به الشيخ يقول :

"ذكر ما تفرد به بن تيمية ، ولم يؤثر عن الصحابة والمذاهب الاربعة، وقد حلت مخالفته هذه كثير من المشاكل في عصرنا الحالي ومازلنا نناقشها في مجالس العلم والندوات المؤتمرات لما لها من أهمية في حل مشكلة صيغة المعاملات في البنوك الإسلامية "

ويتكلم عن منهج الشيخ :

"إضافة إلي أن ترجيحاته وما اختاره كان مترتباً علي النظر في المذاهب الفقهية في ضوء أصول الفقه والاستنباطات المنضبطة وكان يهدف رحمه الله بمثل هذه الترجيحات إلي قطع دابر التعصب المذهبي المقيت "

وعن أصول الشيخ قال :

"ويتبين بعد ذلك في جلاء ان الشيخ لم يكن يصدر عن هوي او يتخبط خبط عشواء بل كان يبني رأيه علي الأصول العلمية الفقهية المقررة"

وبعد هذا الكلام الوارد، كيف يرى صديقنا الآن وبعد أن ألجأناه إلى حيرة بالغة، أن يصدق أحد الرأيين من كلام الشيخ؟ هل هو من الضالين أم أنه حسب ما قالته الموسوعة من المهتدين الراشدين؟

ربما يقول صديقي: لعل الشيخ تبين له الحق بعد ذلك فتراجع عن تزكية الإمام، وهذا أمر عادي في قريحة العلماء، ولكني أقول له: يمكن ذلك جدا، لكنه غير وارد أو مقبول في عقلية رجل غاص في أعماق فكر وعلم وفهم أقوال وكتب ابن تيمية، وعرفه حق المعرفة، وهو ما يؤيد أن الشيخ يقصد بكلمة الضلال أي الخطأ في الرأي وليس ضلال الدين.

حبيب العلماء

نتحدث هنا عن الوزير نظام الملك الذي كان وزيرا لألب أرسلان ومن بعده ولده ملكشاه في عهد الدولة السلوجيقية ..وكان من الضرورة أن نتناول سيرة هذا الوزير لنلفت إلى شيء هام جدا نريد التأكيد عليه والتنويه به وهو ما نشير إليه بهذا التساؤل :ماذا يحدث حينما يتحالف الحكام والعلماء، ويصير هناك تواؤم وانسجام بين الطرفين؟ وماذا تجني الأمة من هذا الحلف المبارك الذي يحترم النصيحة ويتعاهد النقد ، ويتحرى سبل الإصلاح في كل قرار وشأن من شؤونها؟

لقد كان نظام الملك من أصحاب السلطة الذي رأوا أن لا صلاح لها ولا هداية في طريقها إلا بصحبة العلماء والاسترشاد بآرائهم والاهتداء بنصحهم، فبلغ من صحبتهم والجلوس إليهم ومشاركتهم مالم يبلغه غيره من كثير من الحكام والملوك والوزراء.

كما كان للرجل أثر كبير على الحركة العلمية فقد أنشأ المدارس الدينية المتعددة كالكبرى في بغداد وغيرها في نيسابور وأخرى في طوس ورغب في العلم وأدر على الطلبة الصلات وأملى الحديث، لقد كان وزيرا صالحا وقد أطلق ملكشاه يده في كل شيء فاستطاع أن يدبر أمر المملكة أتم تدبير وقام بالأمر على أتم ما ينبغي وخفف المظالم ورفق بالرعية وبنى الوقوف.

جاء في سير أعلام النبلاء :هو الوزير الكبير قوام الدين أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي عاقل سائس خبير سعيد متدين محتشم عامر المجلس بالقراء والفقهاء .. وهنا يأتينا الدرس الرائع الذي نستشهد به ونشير إليه، حينما تكون بطانة الحاكم صالحة خيرة ، فيكون معها صلاح الحكم ومصلحة الرعية ، بل إنها قد تكون سبباً مباشراً في صنع مستقبل مشرق وغد كريم ينهض بالأمة من كبوتها ويحافظ على كيانها ومقدراتها أمام ما يعتريها من عدوان الغاشمين وطمع المحتلين المغتصبين..!

لقد أشار نظام الملك على ملكشاه أن يعين بعض القواد والأمراء في وظائف الدولة ، ولم يكن يقصد من هؤلاء القواد أصحاب الخبرة أو الأقربين أو المتمرسين أو ذوي الحنكة والكفاءة فقط، وإنما لفت نظر السلطان إلى شرط أساس في طريقة التعيين ربما ل يجعله الكثيرون في اعتبارهم وهو أن يكون هؤلاء القادة من الذين يتميزون بالدين والخلق والشجاعة والإصلاح ، فماذا يا ترى جنت الأمة من هذه المشورة ، لقد حصلت الأمة من مشورة هذا الوزير العاقل الرشيد الحكيم خيرا كبيرا ، فقد كان من هؤلاء القواد الذين وقع الاختيار عليهم (آق سنقر) وهو جد (نور الدين محمود) الذي ولي حلب وديار بكر والجزيرة، وقام من بعده ولده (عماد الدين زنكي) ببداية الجهاد ضد الصليبيين ثم قام من بعده نور الدين محمود

وهي الأسرة التي وضعت الأساس الحربي والجهادي الذي قام عليه انتصار (صلاح الدين الأيوبي) ، فكانت له مرحلة تمهيدية للغلبة على الصليبيين.

ولم يفت المؤرخ أبو شامة أن يشير إلى فترة نظام الملك من حكم السلاجقة وعدالتهم في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين) فكان مما قال : "فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لا سيما في وزارة نظام الملك فغنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها "

ومما يذكر في حسن إدارته للدولة وقبضته على زمام العدالة وحسن التدبير أنه لما توفي (ألب أرسلان) وتولى مكانه ولده (ملكشاه) انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس ، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا المال إلا نظام الملك ، وتعرض الناس منهم لأذى شديد فقام نظام الملك وأخبر السلطان بذلك وحذره من عاقبة هذه الأفعال والتصرفات وبين له مافي هذه الأفعال من الضعف وسقوط الهيبة والوهن ودمار البلاد وذهاب السياسة ، فما كان من (ملك شاه) إلا أن قال له: افعل في هذا ما تراه مصلحة ، فقال له نظام الملك: لا يمكنني أن أفعل شيئا إلا بأمرك فقال له السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك ، فأنت الوالد وأعطاه كل الصلاحيات الكبيرة ولقبه بالأتابك أي الأمير الوالد ، فظهر من شجاعته وحسن سياسته ما أثلج صدور الناس ..

لقد تحرك الرجل في هذا الموقف استجابة لرغبة الناس وخوفا عليهم، وحبا فيهم ورحمة بهم فلم يرض بظلم الرعية أو هوان الضعفاء ، ومن هنا تحرك ضد أولئك الجند الذين كانوا لا يخافون الله وألجم أطماعهم.. كان له كذلك موقفا إنسانيا مؤثرا يدلل على شفقته بالضعفاء والمساكين وحرصه على قضاء حاجات المحتاجين حينما استغاثت به امرأة ضعيفة فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها عنه بعض حجابه، فما كان منه إلا أن أنكر ذلك عليه واستعظم هذا الأمر وقال له: إنما استخدمتك لمثال هذه ، فإن الأمراء والأعوان لا حاجة لهم إليك ثم صرفه وأعفاه من وظيفته .!

لقد ذكرنا في البداية بأنه حبيب العلماء وأنه من أصحاب السلطة الذين انفردوا بحب وافر للعلماء وصحبتهم والعمل بمشورتهم فماذا كان من أمره معهم ؟

نرى هنا مدى ارتباطه بالدين وحبه لأهل العلم والملتزمين ورغبته في إيجاد أجيال ملتزمة فقد كان هواه في صحبة العلماء ومجالسة القراء والفقهاء.. كان يحب العلوم وخاصة الحديث وطلابه، وكان يقول أعلم أنني لست أهلا للرواية ، ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أي قافلتهم ، فسمع من القشيري وأبي حامد الأزهري وغيرهما ، وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس الدينية التي بناها رسالتها في تبليغ العلم وتخريج أجيال تحمل رسالته لآفاق الدنيا ، كان مجلسه عامرا بالفقهاء

والعلماء والقراء ، يقضي معهم جل وقته ونهاره ، وقيل له يوما : إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح فقال : هؤلاء هم جمال الدنيا والآخرة ، لو أجلستهم على رأسي لما استكثرت من ذلك ، ويقول ابن كثير : وكان إذا دخل عليه القشيري والجويني قام لهما وأجلسهما في مقعده ، فإذا دخل عليه أبو علي الفرندي قام وأجلسه مكانه ..وهو مالم يفعله مع القشيري والجويني فلما عوتب في ذلك قال : إنهما إذا دخلا علي قالا : أنت وأنت يطريانني ويعظمانني ويقولا في ما لا في، فأزداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر ..وإذا دخل علي أبو علي الفرندي ذكرني عيوبي وظلمي فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه ..!

وفي هذا المشهد العظيم نرى من تكريمه الكبير للعلماء، ولكن المشهد يلفت لشيء آخر أكثر أهمية وهو كيف كان الحاكم يفسح المجال والحرية للعالم أن ينقده ويقول فيه رأيه ويشير عليه بالخطأ والصواب؟! وهو ما يتندر في كثير من الحكام ، لقد جعل نظام الملك النقد أمراً محببا، فأكرم من يقوم به ويوجهه إليه وكان صاحبه أحب إليه من غيره..لقد كان يرى في النقد طريقة مثلى نحو الرقي في الحكم والعدالة ، وحجاباً عن الزلل والجور وكثير من الخطاء في حق البلاد والعباد.

أما ابن الأثير فلم يفته أن يصف نظام الملك ويصور لنا مجلسة الذي حفه العلماء من كل جانب فقال فيه : "كان عالما دينا جوادا عادلا حليما كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت ، وكان مجلسه عامر بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح "

وإذا أردنا التعرف على عدالة الرجل وحبه للرعية وشعوره بالضعفاء والفقراء والمحتاجين فلنتأمل هذا الموقف الرائع لحاكم بلغ أرقى مراتب الإنسانية والشعور والاحساس فقد كان يأكل طعامه في يوم من الأيام وبجواره أخوه أبو القاسم وعميد خراسان، وكان بجوار العميد رجل فقير مقطوع اليد ، فنظر نظام الملك فوجد العميد يتجنب ويأنف أن يأكل مع الرجل الفقير المقطوع ، فأمره بالانتقال بالجانب الاخر وقرب المقطوع غليه وأكل معه، وكان من عاداته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه ويدنيهم والموقف خطير عظيم ويبرر لنا كم كان الرجل يتمتع بمشاعر فياضة وإحساس كبير فيخشى أن يمس صاحب هذه العلة أي شعور يجرحه ويذكره بعلته ، فقام مسرعاً وقربه إليه حتى لا يتسرب إلى نفسه شيء من ذلك..

وأخيرا لم يكن لهذه النفس العظيمة إلا أن تموت موتة كريمة شريفة ، فينال صاحبها الشهادة وهو ما منحه الله تعالى إياها وفي أكرم الأيام ، ففي شهر رمضان وبعد ساعة الإفطار، كان مع عدد كبير من العلماء والفقهاء والصوفية وأصحاب الحوائج ، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند وأخبار الواقعة التي كانت بين المسلمين والفرس أيام أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) t ومن استشهد بها من

الأعيان وهو يقول :طوبى لمن لحق بهم ، وكأن الله تعالى يستمع إليه في هذه الأمنية في هذا التوقيت الذي ذكرها فيه فبعد ذلك قام قاصداً مضرب حرمه فبدر إليه حدث ديلمي أي غلام من الديلم مخادعا إيه وكأنه يستغيث به فعلق به وطعنه، فحمل إلى مرقده ، فعم الخبر وصاحت الأصوات وانقلبت الدنيا وقعدت وجاء السلطان حينما بلغه الخبر وأظهر الحزن والنحيب والبكاء وجلس عند الوزير ساعة وهو يجود بنفسه حتى مات .

وقال بعض خدمة كان آخر كلامه : لا تقتلوا قاتلي فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات فما أطهر هذه النفس التي تعفو عمن قتلها وحرمها حق الحياة .

يقول السبكي في طبقات الشافعية: " فعاش سعيداً ومات شهيداً فقيدا حميداً"

لقد حزن عليه الناس حزنا كبيرا وجلسوا في عزائه ثلاثة أيام وقام الشعراء برثائه ففما قيل فيه:

كان الوزير نظام الملك لؤلــؤة * يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزَّت فلم تعرف الأيام قيمتها * فردَّها غيرةً منه إلى الصـــدف

جحود التلاميذ

إن تعجب فليكن عجبك كبيرا من هؤلاء التلاميذ الذين يلازمون شيخهم وينعمون بقربه، ويظلهم بحنانه ومعيته، ثم يرحل عن الحياة ويخلفهم وراءه، فلا يكلف أحدهم خاطره أن يوثق مسيرة أستاذه ويؤلف عنه كتابا يخلد ذكراه، بل يكتفي من الوفاء له إذا ذكر أمامه أن يترحم عليه، وإذا زاد معيار الوفاء فيه، فليذكر له موقفا أو موقفين.

وهنا ألقي باللائمة الشديدة على هؤلاء التلاميذ الذي يقصرون في حق أساتذتهم، حينما يرون الزمن ينسدل على ذكراه وآثاره بسديم النسيان، فما عاد يذكره أحد أو يلتفت إلى اسمه في شيء.

كان الأولى بهؤلاء أن يندفعوا بالوفاء في مساره الصحيح، ويجددوا ذكر أساتذتهم، ويعرفوا الدنيا بعلمهم، وما تعلموه على أيديهم.

لماذا لا يؤلف أحدهم كتابا عن أستاذه، فيذكر من حاله ما جهله الناس ووجب أن يعرفوه؟!

وهو القصور الذي يتفلت من عاره كثير من الشيوعيين والعلمانيين والملحدين، وهم يسجلون رحلة رموزهم، ويؤلفون عن شخصياتهم الكتب والأسفار التي تحكي مآثرهم ونوادرهم، وتعرض على الدنيا كلها مسيرة جهودهم، ومواقفهم الإنسانية.

انظر للعقاد لقد ألف فيه المؤلفون أسفارا عدة عن حياته وعلمه، وضرب كل منهم في ميدان من ميادينه المتعددة، وكان أنيس منصور من أبر الناس بأستاذه حينما ألف كتابه "في صالون العقاد كانت لنا أيام".

وإذا نظرت إلى رجل كالعلامة المحقق الكبير محمود شاكر، لترى كثيرا من المتعصبين له اليوم، وهم يعلونه أرفع مواقع الإمامة في العربية والدين، لتبحث فيهم عن واحد فقط ألف عنه كتابا فلا تجد، وأنا واحد من الناس حاولت جاهدا أن أرى كتابا يتناول سيرة محمود شاكر لأتعرف عليه أكثر وأكثر فلم أجد، اللهم إلا كتاب ضعيف المستوى للأستاذة عايدة الشريف، ورغم ضعفه إلا أنه محمود لها ما فعلت، إذ تحركت عاطفتها ووفائها لأستاذها بما لم يتحرك به كثير من أتباعه ورواد صالونه.

نفس هذا اللوم هو ما توجه به العلامة البيومي رحمه الله وأنا أقرأ له في الجزء الرابع من موسوعة أعلام النهضة، حينما كان يتحدث عن الشاعر والمبدع الكبير الأستاذ حسن القاياتي، فوجه اللوم الشديد لمريدي الرجل وتلاميذه، كيف لهم أن يسكتوا فلا يكتبون عنه ويعرفون به، وفيهم من صار له في دولة القلم صيت ونباهة، كيف سكتوا جميعا عن الرجل، وقد كان في مدى نصف قرن من حياته الأدبية شاعرا مرموقا، وكاتبا لامعا، تجري الجرائد اليومية صباحية ومسائية بنفثات قلمه، أفيكون مصيره ونصيبه من الوداع هذا الجحود اللئيم.

بل ذكر البيومي ما يؤلم وهو يقول: كيف يكون شعوره النفسي في عالم الغيب حين يرى تلاميذه وقد ضنوا عليه بكلمات الوداع وإنها لأهون شيء يقال.!

وأنا لا أعلم كيف تكون نفس الدكتور البيومي نفسه، وكيف يكون شعوره النفسي وهو في عالم الغيب، ولم يسارع تلامذته للحديث عنه وتأليف الكتب في إبداعه وكفاحه العلمي، وتعريف الأمة بجهوده، أكثر من ١٢ عاما مروا على رحيل الرجل، ولم يخرج من تلامذته من ألف عنه كتابا يحفر في الدنيا ذكره، ويدوي باسمه في سمع الملايين؟ وكأن البيومي وهو ينعي على القياتي ما حدث له، ينعي في نفسه ذلك التشابه.

رحم الله الدكتور محمد عمارة والدكتور عبد الحليم عويس، فقد صمم كل منهم أن يخط كتابا عن الشيخ الغزالي، فسارع عويس ووضع كتابه (الشيخ الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه) وتبعه الدكتور محمد عمارة بكتاب (الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية) شعورًا منهما بالمسؤولية الملقاة عليهما تجاه شيخهما الذي خدم الدعوة وكان من حصونها المانعة.

واقتفى أثرهم الشيخ القرضاوي في كتابه القيم (الشيخ الغزالي كما عرفته.. رحلة نصف قرن) بل نفس الشيء فعله عمارة مع القرضاوي، وقابله القرضاوي بكتاب مماثل عنه.

وإلى من يلازمون العلماء والأدباء اليوم، اغتنموا فرصة القرب من أعلامكم، وسجلوا مآثرهم ومواقفهم، فعسى تنفعكم يوما حينما تمتطون صهوة الوفاء، فتخطوا كتابا في مسيرتهم.

محمود عمارة ومحمد عبده

كم يكون حقيرًا جدا ذلك المعلم والأستاذ الذي يضطهد تلميذه لضغينة في نفسه، وعداوة يضمرها قلبه المظلم.

وبدلا من أن يعمل على الإنصاف فيباعد بين بغضه ومستقبل طالبه، إذا به يرى حقده الدنيء عقبة أمام هذا الطالب، عازما في إصرار أن يدمر طموحه ومستقبله.

ولكن المدهش والمثير بل والمزعج، أن يحدث مثل هذا الجحود في أروقة الجامعة الأزهرية، بل وفي معقل الدعوة وعرين الإسلام، في كلية أصول الدين قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، فلازلت أتذكر وقتما كنت طالبا بها، كيف اضطهد وكيل الكلية طالبا في الدكتوراه، وعزم أن يدمر حياته ومستقبله، ولا يمنحه ما تهفو إليه غايته، ولولا أن قيض الله لهذا الطالب المكين، شيخنا الكبير الراحل فضيلة الدكتور (محمود عمارة) طيب الله ثراه، وبما كان له من قوة ونفوذ، ليدافع عن هذا الطالب ويطويه كما يقولون: تحت جناحه، لضاع الفتى ولم يحقق ما تطلع إليه.

لقد عجز وكيل الكلية الطاغية، ووقف عند حده أمام قدرة العالم الجليل، من أن ينال من طالبه، ليكون فريسة سائغة ينهشها ويقضم أشلاءها..

وبالمناسبة لقد صار هذا الطالب فيما بعد من كبار الدعاة والأساتذة الأكاديميين الذين يفخر بهم الأزهر، وله سفرياته الدعوية في الشرق والغرب، وله مؤلفاته التي لا يساويها فيها ذلك الوغد الذي كان يريد اغتياله.

شيء مقزز أن تضم البيئة الأزهرية التي تربت على قال الله وقال الرسول، مثل هذه النفوس الوضيعة التي تقودها أحقادها المظلمة، لتجور على خلق الله، وتحطم آمال الطلاب الواعدين.

ولكننا لا ننسى في ظلال هذه الصور البغيضة، صورة العالم البطل، الذي منع هذا الظلم وأوقف سعار الظالم، وأخمد بقامته عبث المتسلط، وهم الأماجد الذين يزهو بهم الأزهر، ويفخر بانتمائهم إليه.

ورحل سيدنا الدكتور (محمود عمارة) وبقي أثره واسمه ونبله ونصرته للمظلوم.. فما أجله من عالم، وما أفخمه من داعية.

ما فعله الدكتور عمارة كان موقفا نبيلا، مازال إلى اليوم يتحاكى به هذا الطالب ويذكره، لاينساه أبدا وفاء منه وإخلاصا مترحما على أستاذه الذي أنقذه من مخالب الأسد البغيض.

والأزهر الشريف لا يعدم نبلاءه، ففي ظل هذه المثل الشوهاء، نرى في سيرة كثير من شيوخه ما يدعو للإكبار والسمو، وإليك نموذجا من نبلائه، فلقد كانت هناك عداوة شهيرة بين الشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ ابراهيم الظواهري، شيخ المعهد الأحمدي، الذي كان ممن يعارضون منهج الشيخ الاصلاحي، وكان كذلك من دعاة التصوف الكبار، والمعتقدين في السيد البدوي والأضرحة والاولياء، ومعروف أن الامام محمد عبده يعارض ذلك وينهى عن تلك السلوكيات، مما كان له أثره في النفور بين الرجلين.

فماذا حدث من مشاهد النبل التي تليق بإمام كبير طاهر النفس سليم الصدر، حتى أمام أعدائه؟

يُذكر أنه حين تقدم الطالب محمد الأحمدي نجل الشيخ إبراهيم الظواهري لامتحان العالمية، وعرف أن الأستاذ الإمام سيرأس لجنة الامتحان، وقع في حيرة شديدة، فالطالب منسوب إلى اتجاه أبيه، والإمام ذو سطوة في السؤال ورد الجواب، والطالب كما يروى عن نفسه في مهب الريح، ولا شك أن الإمام لن يسمح بنجاحه.

ترى ماذا صنع الإمام مع تلميذه، والأمر أمره لأن أعضاء جميع اللجنة، يتركون له توجيه الأسئلة ومناقشة الردود، هل نكل به نكاية في أبية، وانتقاما من مخالفته له، وردا لعداوته لأفكاره؟

لقد تحدث الأستاذ الأكبر محمد الأحمدي الظواهري في مذكراته عن السياسة والأزهر؛ مفصلا ما جرى يوم امتحانه ، فذكر أنه تهيب الموقف قبل أن يلج حجرة الامتحان، وكان من عادة الطلاب أن يبدءوا بتقبيل أبدى الأساتذة قبل الجلوس، فما كاد يلمس يد الأستاذ الإمام حتى نزعها منه، مكتفيا بلمس أصابعه، ثم فاجأه بأن قال له : لقد سماك والدك الأحمدى نسبة لأحمد البدوى، وسنرى ما سيكون من شأن هذا الرجل معك.

قال الشيخ الظواهرى: كان لهذه العبارة مصحوبة بخطف يده أثناء محاولة تقبيلها، أثر سيئ في نفسي، فانقبض صدري، واسودت الدنيا في عيني، ولما طلب منى أن ابتدىء الكلام، تأخرت برهة، ثم تماسكت وأجبتُ بطريقة غير طريقة زملائي، إذا عمدت إلى جوهر الموضوع دون تعلق بالحواشي الزائدة، وأيقنتُ أنى حزت قبول الإمام، ولكن لم يظهر على وجهه ما يدل على سروره، فشق ذلك على نفسى وصممت أن أنتزع منه الإعجاب، فخطر لى أن أعاود الكلام مرة أخرى في الموضوع نفسه، فعندئذ قال الشيخ : لماذا تريد استئناف الكلام، لقد تكلمت كلاماً طيباً جيدًا، وعالجت البحث علاجاً رائعاً، والأحسن أن ننتقل إلى موضوع آخر، فكانت عبارة الإمام هذه كأنها البلسم الشافي، فاندفعت أجيب بالطريقة التي اخترتها

فقال الشيخ: إن ترتيب بحوثك وطريقة العرض، مما يُعجب ويروق . وسأتخذ معك فى ترتيب الأبحاث طريقاً جديداً، وأخذ يقلب أوضاع المسائل، ويخرجُ من علم إلى علم، حتى طال النقاش بضع ساعات على غير المألوف، وحتّى أرهقت إرهاقاً جسمانياً وعقلياً، فطلبت في نفسى شربة ماء، ولكنى سكت مهابة للشيخ، ثم غلبني الظمأ من الشيخ أن يأمر لى بشربة ماء، فقال الشيخ: أنت تستحق (شربات لا ماء ، فقد أحسنت كل الإحسان، وأرسل في طلب كوب كبير من (الخرنوب) لأشرب مع أعضاء اللجنة على حسابه، ثم قال: لقد فتح الله عليك يا أحمدى، والله إنك أعلم من أبيك، ولو كان عندى فوق الدرجة الأولى لأعطيتك إياها ، فكانت عبارته هذه حديث الناس في الأزهر، وأصبحت من أسباب سعادتى !.

ما أجمل نفسه وما أسمى روحه، بل ما أنبل ذاته وشخصه، تأتي بين يديه الفرصة لضرب خصمه في مقتل، لكنه يتعفف عن ذلك ويتسامى عن هذا الصغار، ولعله الموقف الذي لا يليق إلا بإمام مصلح كبير.

بين السعداوي والصابوني

بادئ ذي بدء أعلن أنني لا أتحدث عن الجنة والنار، ولا أعد فريقا بالجنة، وفريقا آخر أتوعده بالنار، فلا أملك مصائر العباد، ولا أوزع صكوك الغفران.

إنني فقط من أولئك الذين نذروا أقلامهم ليستلهموا العبرة من الدنيا وأحداثها وشخوصها ومواقفها، ويبينون للناس ما غفلوه أو ما خسروه من الحقيقة الكبرى والمصير المحتوم، والمآل الذي لا شك فيه.

لا تحاول أخي القارئ إن كنت من أولئك الذين يتصيدون لكاتب يعتز بهويته الدينية، لا تحاول أبدا أن تتنمر معي وتتذاكى علي وتقرأ بين سطوري أو يخيل إليك فيها ما يدلل على شماتتي وفرحي في الموت، ثم تتولى منتشيا عبر صفحتك، لتهلل وتجلجل بأن المنتسبين لهذه الهوية، قلوبهم سوداء جافية يتمنون الموت والخراب والجحيم لخلق الله.

أرى أنني الآن أفسدت عليك ما كنت تحلم به وتطمح إليه، فلا تحاول رحمك الله.

ونعود هنا للحديث أو المقارنة التي فرضتها علينا أحداث الأيام أو مجريات القدر وسيف الأجل، نعم فقد شاء الله أن يموت العالم السوري الأزهري الجليل الشيخ محمد علي الصابوني، الذي نذر حياته للعلم والقرآن والدين والدعوة ونفع الناس وهدايتهم إلى الله، وأن تموت الكاتبة الشهيرة نوال السعداوي التي قضت جل حياتها حربا على الدين وأحكامه وقيمه وتعاليمه، باسم التنوير وحرية الفكر والعقل.

والآن ذهب الجميع إلى الله، ذهبوا من الدنيا الفانية إلى الحياة الباقية، لتعرض أعمالهم على الله، فنرى من تمتلئ صفحاته بالعمل الصالح والنصرة والتأييد لهذا الدين، وبين من تغط صفحاته، بالتمرد والنفور والاعراض والتكذيب.

لقد كانت الراحلة متمردة على كل شيء على الميراث والحجاب والتعبد والزواج، وكانت صاحبة آراء شاذة وغريبة لم يسبق في تاريخ الإسلام من افتراها أو اقترحها عليه، أفكار كانت تصل في بعض الاحايين إلى حد الجنون والسفه، وللأسف كانت تجد من ينصت لها، وينشر هذيانها، ويردد أفكارها ويطبع مفترياتها، ويستضيفها في القنوات لتري مزيدا من التضليل.

فرق هائل بين الطرفين أو بين الصفحتين ولكنها الحياة نتعلم منها أن أيامنا إلى زوال، وأنه لن تغني عنا الألقاب والشهرة والتكريم، فلا تكريم إلا تكريم الله ولا حياة إلا الحياة الباقية عند مليك مقتدر.

كانت الدكتورة الراحلة ذكية أو ماهرة في عملية التلبيس على القراء والمستمعين، حينما كانت تعلن أنها ضد آراء العلماء والاجتهادات التي تفسر النصوص، وأنها ليست ضد الدين نفسه، ولكن الحقيقة لكل مطلع وعارف بدينه يدرك أن المرأة كانت تحاد الله ورسوله، وتعلن رفضها لتعاليم السماء، مهما تذاكت ومهما حورت، ومهما أولت وأوهمت.

أؤكد مرة ثانية أننا لسنا في معرض الجنة والنار، ولسنا في ميدان التشفي من نفس قبضت إلى بارئها، ولكننا في ساعة العبرة نتعظ بالمآل والمصير، وأنه مهما هللت لنا الأضواء وخدعتنا منابر الشهرة، فصائرون إلى رب كريم يحاسبنا إن أجرمنا في حقه، وأسأنا لدينه.

قد تهلل الدنيا وتقام محافل التأبين للراحلة السعداوي بينما لا تقوم دولة أو وزارة معنية بتكريم هذا الرجل الذي كان أمة وحده في خدمة الاسلام والقرآن، وقد أحسن الأزهر الذي يمثل وجهة المسلمين العلمية والدينية، حينما قام بنعي الرجل الذي خدم القرآن وسد ثغرة عظيمة في حياة العلم، خاصة وأنه أحد أبنائه ومنتسبيه، نعاه في زمن يتنكر للعلم والعلماء.

لا أخفيكم قرائي الأعزاء أن جملة لأحد المعلقين قد أحرقت قلبي، وصرفتني كثيرا إلى التأمل والاعتبار، أسوقها إليكم الآن لعلكم يطوف بوجدانكم ما طاف بي من أسى وحسرة على رخص الدنيا وتفاهتها من أن نجعل فيها شيئا من أفكارنا ندا لله ولدينه حينما قال القائل: (ولننظر كيف ستجادل الجبار حين تقف أمامه ويختم على لسانها ويعرفها مصائبها.. اللهم لا تجعل فتنتنا في ديننا)

بكته القلوب قبل العيون

كل إنسان يموت ويرحل عن الحياة فلا يبقى منه أثر وتنساه الدنيا ويحذف من ذاكرة الأحياء، إلا ذلك الإنسان الذي عاش إنسانًا، فإنه يظل حيًا بأثره ومواقفه وأخلاقه وإنسانيته، فلا يموت أبدًا حينما يتناقل الناس سيرته ومآثره ويروونها جيلا بعد جيل.

وهكذا كان العميد الخلوق المهذب فضيلة الدكتور صابر عبد الدايم رحمه الله الذي وافته المنية مؤخرًا فترحمت عليه القلوب قبل الألسنة، ورثاه محبوه وعارفو فضله ممن غمرهم بوده وقربه وتواضعه وكرمه ومروءته، وأبصروا فيه سمات الفارس النبيل.

وأمام هذا السيل المدرار من عواطف المحبين ورثاء المقربين، كان لابد لي أن أنقب عن تلك اللطيفة التي أسر بها قلوب كل من حوله ممن عرفوه وتعاملوا معه، حدثت عددًا منهم وسألتهم وتأملت حديثهم وانطباعهم حتى عرفت لماذا زرفت القلوب عليه بالأنين قبل ما ترسله مقل العيون من دموع.

إنها الإنسانية التي حاز فيها الفقيد قصب السبق، وكان فيها القِدح المعلى، فكان نعم الرجل الخلوق المهذب الشهم النبيل المتواضع اللين الهادئ الرقيق الطيب النقي المتسامح.

جمع رحمه الله كل معالم الإنسانية وخصائصها بين جنبيه، ومع كل شهادة من محب أو تلميذ، ترى لونًا مختلفًا من ألوان هذه الإنسانية العالية، التي وزعت فيه مشاربها بين الكرم والشهامة والمروءة والعطف والنجدة والمواساة واللطف والشعور بالآخرين والتواضع وخفض الجناح والإحسان والزهد فيما في أيدي الناس، نعم.. هذا هو السر الذي من أجله أحب الناس العميد الإنسان، وشعروا بوفاته أن ركنا من أركان النبل والسمو قد تصدع في مسيرة الحياة.

تواصلت مع مولانا فضيلة الدكتور الكريم (محمد صلاح عبده) وقلت له: لم تكن لي صلة أو معرفة وثيقة بالراحل فهلا حدثتني عنه أو ذكرت لي بعض شمائله؟ فكتب إلي فضيلة الدكتور كلمات لخصت منهج حياة الفقيد الذي عاش به وسار عليه بين الناس.

يقول الدكتور محمد صلاح عبده: "كان رحمة الله ورضوانه عليه قمة في التصالح مع نفسه ومع غيره فلم يكن له خصوم ولا أعداء، ولم تكن بينه وبين أحد من زملاء دراسته وعمله منافسة لأنه خارج المنافسة حرفيا دون أن يظهر ذلك عليه؛ لأنه كان متواضعا بصورة تصلح أن تكون معيارا للتواضع؛ وإن شئت فقل: لأنه كان يمثل النموذج الخلقي في الإسلام خير تمثيل.. كان سهلا لينا تقيا خفيا يتصدق بابتسامته

على جميع الناس من عرف ومن لم يعرف.. تسنم كثيرا من المناصب وتقلد كثيرا من الجوائز حتى كرمته الدولة باسمها فنال أحد أوسمتها فلم يتغير فيه شيء.

فلم يتعال على الناس ولم يتكبر ولم يتحدث من طرف أنفه أو يشمخ به على خلق الله.. بل كان كلما زاده الله عطاء ازداد تواضعا."

ما أروع الوصف وأجل الكلمات، وأوفى العبارات، التي استطاعت بمهارة أن ترسم لنا هذه المنهجية الإنسانية العالية.

ورغم تمام العبارات من عالم جليل في فقيد عالم عزيز، إلا أنني أقول لنفسي: ربما يكون الدكتور صلاح صديقا للدكتور صابر، ويمكن للصديق ألا يظهر أمام صديقه إلا بما يحمد ويستحسن، ويمكن كذلك للصداقة ألا تكون كاملة البصر بمستوى الحس الإنساني الذي يتجلى أكثر ما يتجلى بين تلامذته، فهم أقرب الناس تحديدا لمناط الشخصية، وعليهم وفيهم تظهر أمارات بطولتها وروعتها وسماحتها وكرمها وعطفها ومروءتها.

وهو ما حاولت تلميذته الدكتورة أماني هاشم عميدة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق أن تحكيه وتسجله وتعبر عنه، إذ تقول: "تعلمت منه الصبر والحلم وسعة الصدر، ما في يوم طلبت منه مشورة أو مساعدة إلا وكان رحمه الله في المقدمة، ما في يوم زار فيه كليتنا إلا وتكون هناك مناسبات علمية، تكريمية، افتتاح، تطوير ، كان رحمه الله يفرح من قلبه ويشد من أزري في كل عمل أقوم به ، يقدم التهاني والتبريكات والدعم المعنوي، والنفسي، والاجتماعي، والثقافي.

كنت في زخم العمل في يوم ما، وتواصل أستاذي معي هاتفيا وبعد ساعة من المكالمة وجدته يطرق باب مكتبي فرحت به فرحا شديدا وقلت له: لماذا لم تقل أستاذي بأنني سأشرف بلقائك اليوم؟!

أجاب: شعرت في مكالمتك بمعاناة فقلت لابد أن أحضر بنفسي لأطمئن عليك بنيتي، وكان في تلك الفترة في حالة نقاهة من جراحة في القلب. تحدثت معه وكنت في ضيق شديد وقدم لي نعم المشورة، وأوضح لي بأسلوب الشاعر المرهف طبائع الناس وكيف نتعامل مع كل طبقة من هذه الطبقات."

ولعل ما ذكر للآن من شهادة العالم الجليل والعميدة التلميذة، يرسم ملامح الشخصية بصورة عامة، ورغم ما فاح فيها من وفاء ومواساة تمس شغاق القلوب، لكنها لم تدخل إلى صلب ما أريدة من تجربة حية وموقف واقعي يترجم بتفاصيله عن هذه النفس التي حوت كما سمعنا عنها، كثيرا من مناحي الفضيلة.

الكل يوسي الدكتور صابر، الجميع يترحم حزينا على فقده، كثيرون يقولون: كانا إنسانا بكل ما تعنيه الكلمة، لكن أحدا لم يحك لي من مواقف حياته شيئا حتى وجدت الصديقة الأستاذة (نجلاء محرم) فطلبت منها إن كانت تعرف شيئا من مواقف الرجل الحياتية تدعم ما يشاع عنه من أخلاق الفرسان، لم تتوان أسعدها الله عن تلبية طلبي، حينما ردت علي بقولها:

"مساء الخيرات أخي الغالي

ما زلت في حالة تشوش ذهني بالغ.. ففقدي كبير في أستاذي الجليل..

لكني أتذكر الآن قصتين:

الأولى لطالب قروي لمح أستاذنا فيه ملامح الاجتهاد فاستدعاه ونقده مبلغا ماليا داوم عليه حتى تخرجه. وكان يتحرى طريقة تصون كرامة الطالب لدرجة أنه ذهب إليه زائرا في عيد ما ليعيد عليه ويستر المساعدة كهدية عينية وعيدية مالية.

القصة الأخرى أنه في ندوة ما جلس في مقعد أمامي كان شاغرا فجاءت طفلة صغيرة (عمرها حوالي ثلاث سنوات) تبكي لأنها كانت جالسة في ذات المقعد، وأصر أستاذنا أن يخلي لها المكان خافضا لها جناح الرحمة.. لم يأخذه كِبر المكانة وعلو القدر ورفعة المنزلة.. بل وأعطاها فوق ذلك نفحة مالية كان من عادته أن يهبها لأي طفل يلتقيه."

حينما قرأت لم أملك نفسي أن أقول مهللا: الله الله الله

ما أجمل الأخلاق وما أسعد هذه النفس؟ من يكون بهذه الرقة النادرة والشهامة المثالية؟

رحم الله الدكتور صابر عبد الدايم يونس، الذي لا أملك أمامه شخصه العظيم إلا أن أكبره وأكبر صفاته التي أسر بها قلوب الجميع، وأكبر إنسانيته الفريدة التي لا تقل عظمة عن مسيرته العلمية، وإذا كانت الكتب والمجلات والدراسات العلمية سجلت تميز الراحل الفريد، فما أحوجنا إلى تسجيل إنسانياته في كتاب رشيد، ولو لا أنني تعبت كثيرا من عمل مشابه قمت به مؤخرا عن العالم الجليل محمود توفيق سعد، لشمرت عن ساعد الجد وجمعت إنسانيات هذا العالم الشاعر اللغوي الناقد الإنسان.

القرضاوي في عيون مبغضيه

حينما يستخف علماني أو يساري بعالم من علماء المسلمين، فذلك أمر له تبريره وسببه ووجهته المعتبرة، فاختلاف الفكر والمنهج والمعتقد، سبيل لإعذار هذا الجهل والتهميش والازدراء والتقليل.

لكننا اليوم أمام حالة عجيبة وغريبة، حينما ننظر إلى قطاعات عريضة من التيار الديني وهم يسفهون الشيخ القرضاوي، ويقللون من حجمه، ويطرحون قامته في التراب، ويرون كل جهاده وكفاحه وتراثه هباء منثورا.

إنهم يتعجبون ويندهشون ويضربون كفا على كف، وهم يرون محبي القرضاوي على هذا الهيام الكبير، الذي قد يصل عند بعضهم إلى حد المغالاة، فيزداد اندهاشهم وعجبهم، فأي علم هذا الذي قدمه الرجل وأي جهد أبداه، حتى يرفعونه إلى مصاف الأئمة الأعلام.

والحق أن الأمر هنا بالنسبة لهذه القطاعات من بعض السلفيين وغيرهم في الحقل الديني، لا تختلف كثيرًا عما أشرنا إليه من أحوال العلمانيين وطبيعتهم.

ذلك لأن بعض السلفيين يرون العلم عندهم لا يتعدى كتب المصطلح والحديث وعلومه، وأي عالم في نظرهم يخوض لجة العلوم الأخرى، دون أن يكون من أهل الحديث والأثر، فهو عندهم ليس بعالم، ولا يقيمون له أي وزن واعتبار، ومن هنا كانت مفارقاتهم بين القرضاوي وغيره من علماء الحديث، التي دعتهم أن يتمادوا بكل جرأة، فينفون عنه صفة العلم، ويسلخونه من الانتماء لدوحة العلماء.

ثالثا: تأتي طبقة بعض الأزهريين الذين يملأهم الغرور والكبر والحسد على رجل منهم وينتسب إليهم، ويعد في الحقيقة مفخرة للأزهر، بل أعلم حتى من شيخ الأزهر ذاته، الذي يقبلون يده ويعلقون صوره في كل مؤسسات الأزهر، وهم من طبقة الشيوخ الذين لا يفقهون من الإسلام سوى أحكام الطهارة والغسل والحيض والنفاس، ويرفضون التنوع الفكري للعالم وخوضه ملاحم الإسلام الفكرية في صراعه مع المذاهب والرؤى المعادية للإسلام، بل يرفضون حتى أن يكون للعالم الأزهري أي انتماء لما يسمى التيار الديني أو الجماعات المحظورة التي تسير في عكس اتجاه الدولة والسياسة العامة لها.

وكما أشار بعضهم إلى نقطة خطيرة جدا وهي: أن أغلب هذه القطاعات على تنوع مشاربها حينما رأت القرضاوي وعرفته، فقد رأته شيخا جاوز التسعين، حينما خرج عليهم في قناة الجزيرة، فلم تكن له قوة الشباب من التركيز وانطلاقة العبارة، وقوة الإشارة وعرامة التعبير والحجة، وهم معذورون في هذا لأنهم لم يرو القرضاوي في شبابه، في قوته وجسارته، وبأس شكيمته، التي كونت هذه الفكرة العامة عنه لدى مريديه ومحبيه، ومن ثم جاء عجبهم من هذا الإطراء لمثل هذا الشيخ العجوز، الذي لا يثير لعاب الإعجاب عندهم بشيء مما يقال ويشاع عنه، بل يقف أحدهم حائرًا أمام أي حلقة من هذه الحلقات المتلفزة، ليحاول أن يرى أي تميز في القرضاوي، فلا يجده قد تفوق عن أي داعية أو عالم متواضع العلم

والحجم والقدر، فإذا بهم يعرجون بالتسفيه على أتباعه ومحبيه، ساخرين منهم مستفسرين عن محل الإعجاب في مثل هذا المتحدث.!

والحق أن هؤلاء جميعا لم يقرؤوا للرجل، ولم يتابعوا تاريخ نضاله ولم يعرفوا حقيقة ما قدم، وحتى لو قرؤوا فلن يفهموا، لأن مناهجهم تتقاصر دون إدراك عظمته وروعة ما قدم للإسلام، حينما تحطمت على يديه كثير من الرؤى والأفكار والأطروحات التي قامت تعادي الإسلام نفسه، فقد دحر الرجل العلمانية، والشيوعية وحارب التطرف وجماعات التكفير، وانتقد التصوف القبوري، كل هذه المعارك خاضها القرضاوي حربا ضروسا لا هوادة فيها حتى خرج منتصرا، وسد خانة عظيمة في معركة الإسلام ضد خصومه، فكان جيشا وحده وأمة بأسرها.

يأتي أمر آخر.. أن أغلب هؤلاء تربى في أحضان شيوخ لا يرددون إلا أخطاء الرجل من وجهة نظرهم في الفتاوى والاجتهادات، فرووها وحفظوها للأجيال، فخرج الصبية لا يعرفون من القرضاوي إلا أخطاءه، وإذا ذُكر القرضاوي، لا تذكر إلا أخطاءه، حتى في موته، بدلا من أن يذكروا فضائله العظيمة وخدماته الجليلة للإسلام في دحر شبهات أعدائه، راحوا يبثون منشورات عن اجتهاداته الخاطئة في وجهة نظرهم ورأي شيوخهم.

ويأتي على الوجهة الأخرى اتهام أتباعه ومحبيه لكل من خالفه، ومقابلتهم بنفس معاني الدهشة نفسها، فيتساؤلون: كيف لرجل قدم مثل ما قدم القرضاوي، أن يتعامى عنه كل محب للإسلام منتسب إلى علومه؟!

نعم لقد جاءت الفترات في العقود الماضية حينما استأسدت العلمانية ومن قبلها الشيوعية، وكادت أن تقضي على الوجود الإسلامي في أرضه، فلم تجد من يتصدى لها غير هذا الجبل الضخم الذي أهال عليها من ترابه، وابتلعها في جوفه، ولم يعد لها قوة أو مستقبل في بلاد الإسلام، كان القرضاوي من أكبر الفرسان الذي قضوا على النفوذ العلماني والشيوعي الذي تأثرت به الأجيال في فترات الستينات والسبعينات، وحدوا من نفوذه، ولولا كتبه ومحاضراته ومناظراته لصار لهذه الأفكار جذور غائرة يصعب اجتثاثها من البيئة الإسلامية.

حدثت كل هذا النضال، بينما لم يذكر لعالم سلفي واحد، أنه شمر عن ساعد الجد وتصدى لهذه الآفات التي أرادت أن تبتلع نضارة الإسلام، كانوا مزويين خافتين، لا نصيب لهم من العلم والفهم الذي يؤهلهم لهذا الصراع، فكان حسدهم كبيرا على الرجل أن مكنه الله من أعدائه، وبدلا من أن يحمدوا له

جهاده، صاروا ينقبون عن أخطائه الاجتهادية حسب رؤيتهم فيشيعونها ويروجون لها، وهي التي لا تأني نقطة في بحر من علمه وفهمه وتراثه الوافر العظيم.

لقد حرمت الأجيال الحاضرة من رؤية هذه الملاحم، ولم يروها عليهم شيوخهم الذين لا يهتمون بمثل هذه الملاحم، بل لا يرونها من الملاحم أصلا، لأن الإسلام الحق في نظرهم هو كتب المصطلح وشروح الحديث، مع أن ابن تيمية الذي يعد أعظم أئمتهم، قد نحى كتب الحديث جانبا، وتصدى لحرب الفلسفة والفلاسفة بأوفى ما يكون علما واقتدارا.

العَالِم الذي يريده المصريون

الشعب المصري يحتاج إلى خطاب إسلامي يلقيه ويمليه علماء دين ودعاة ربانيون مخلصون محترمون، يتمتعون بالنزاهة والتزام الحق والإنصاف، وأهم شئ أخبرك به وبعد تجربه وخبرة وتأمل في الواقع الدعوي، أن يكون هؤلاء الدعاة والعلماء غير مؤدلجين، بمعنى تجردهم من الانتماء، لأي تيار ديني أو إسلامي، لا عيبا في هذا التيار أو ذاك، ولكن لأن أعداء وخصوم هذه التيارات نجحوا في تكون خلفية مخيفة ومقلقة من أي توجه ديني، أو عالم ينتمي لفصيل إسلامي معين.

الشيخ الشعراوي في نظري كان هو هذا النموذج الذي يشعر كل مصري أنه له ومن أجله، وأن خطابه يسعى فقط لهدايته، دون السعي لتعزيز فكرة معينة وإزكاء تيار بعينه.

الشيخ محمد الغزالي، نال هذه المنزلة، بعد تحرره أو إعلان تحرره من التيار الديني الذي نشأ وتربى فيه، وإليه يرجع صنع هذا الاسم الكبير محمد الغزالي.

نفس الوجهة والفكرة سمعتها من شيخنا حسن أيوب، حينما كانوا يسألونه إلى أي تيار تنتمي؟ فكان جوابه:

أنا الآن عالم دين، أي لكل الناس، وليس لي توجه معين، وكذلك رفض القرضاوي حينما عرض عليه في بعض الفترات أن يكون مرشدا لجماعة الإخوان المسلمين التي نشأ فيها فكبرته ونمته، لأنه عالم ولابد لكل مسلم أن يشعر أنه له وحده.

المفكر الجسور محمد عمارة، كان عاى هذا النمط وهذه الصورة، لا ينتصر إلا للإسلام وحده، ولم يكن ينتمي لأي جماعة أو تيار، وإنما كان دفاعه، وقذائفه لا تنتصر إلا للإسلام، وبهذا نال شعبية جارفة، رغم تسلط بغض غلمان السلفية المأفونين عليه، في محاولة مغرضة لتشويه صورته.

التيار السلفي، لأنه تيار ليس له خصوم من الحكومات، نجح في استقطاب جماهير غفيرة، رغم كونه تيارا كبيرا وله صبغة وفكر محدد يريد نشره، ربما يصادم الطبيعة المصرية، لاعتماده على تأصيل الشكليات والتزامه الصارم ببعض السنن التي لا يلتزمها المصريون.. لكنه لاشك سقط اليوم بعد كثير من الاختبارات التي فضحت كثيرا من شيوخه، وعرت أفهامهم وتصوراتهم التي تصادم الإسلام الصحيح الصريح القوي، وبينت للدنيا كلها أن أغلب هؤلاء الشيوخ، يمكن أن يكونوا ألعوبة لكثير من الأغراض والأهداف، والتيار السلفي لا شك ليس كله على هذا الخرق المشين، فهناك أعلام علموا الدنيا معنى الجهاد بالكلمة، وناصروا الحق والصدق، ولو على حساب أرواحهم، وكانوا آية في العدالة والإنصاف، فلله درهم من ميامين.

نحن نريد إذن أن يخرج إلى النور هذا النموذج المحرر من الانتماء لأي تيار أو جماعة دينية، ليست لها خصوم ولا عراك أو توتر مع أي طرف سياسي أو حكومي، حتى يمهد لاستلهام معاني الإيمان، ويدعو الناس أن يلتزموا من جديد بمفاهيم الدين القويمة.

لكن المشكلة تكمن في التيارات اليسارية والإلحادية، التي تحرض الأنظمة على الدوام، ضد كل من ينطق بالإسلام الحقيقي، وتعاليمه الجادة التي تعبر عن حقيقته وغايته، بلا نفاق، أو مداهنة أو خذلان على حساب الحق.

نعم لابد للأنظمة أن تلتفت إلى هذه النقطة المهمة، وتبعد هذه الطغمة الآثمة التي تحرض على دين الأمة، وتثير ضده وضد رموزه، شبهات متتابعة، وحملات متواصلة من التشويه المستمر.

كما أن الاعتماد على علماء الصوفية، طريق يمكن أن يكون فيه الحل، شريطة أن يكون انتماء هؤلاء العلماء للصوفية الحقة المتسننة الملتزمة المنصفة، كأمثال الشعراوي وعبد الحليم محمود، لا أن يكون عالما صوفيا منبطحا وصوليا انتهازيا مجنون الفكر منحل الفتوى منحل الهوي.

َالتصوف في مصر يختلف عن التيارات الموجودة، فهو في مصر شيء مختلف يكاد يكون، صبغة دينية تعني التعبير عن المنهج الروحي.

هذا الكلام يمكن أن يضايق بعضهم، لكنه لاشك حديث يستدعي التأمل والنظر، وبعضهم ظن من حديثي أنني أستدعي صورة عالم بلا أعداء، وهي صورة تنافي طبيعة العلماء الحقيقيين الذين نفذت فيهم سنن الحق من السجن والاعتقال والتشريد، ولعلنا نلفت إلى أن العالم الذي نقصده، سيجد عداوة مرة من الملحدين، والعلمانيين واليساريين، وكفى بعداوتهم عداوة، فهم دائمو التحريض والتشويش والوخز.

أنا لا أميز عالما عن غيره، ولا أفضل تيارا عن غيره، ولا أتعمد الذم لقوم دون آخرين، وإنما أعرض وأترجم ما أعلمه من حال الناس وأراه.

كتاب من يا ترى؟

حينما كان يتعرض الشيخ محمد سيد طنطاوي قديما لهجوم وانتقاد بسبب فتاويه المعتلة وبعض أحكامه المخالفة لما استقر عليه علم الفقهاء، كان هناك من يقوم متحمسا للدفاع عنه، والتأكيد على علم الرجل ، ثم يقرع أسماعنا في النهاية بأن الرجل صاحب تفسير كامل للقرآن الكريم، وهو الجهد الكبير الذي تتقاصر دونه همم كثير من العلماء والأفذاذ.

كان المستمع والمهاجم والمنتقد يصول ويجول، وينافع ويجادل، طعنا في الرجل تارة ، وتسفيها لقوله تارة أخرى، ويظل هذا حاله إلى أن يسمع كلمة التفسير، فإذا به يقف مخزيا مزويًا خجلا خرسا.

وتمر السنون والأعوام بعد رحيل الشيخ الذي دفن في البقيع، وخلف وراءه مواقف غير مريحة، وذكريات لا يمكن أن تعد في ترجمته من باب السيرة الحسنة والآثار الطيبة.

نحن لا ننتقد رجلا رحل وأفضى إلى ما قدم، وصار مصيره بين يدي ربه سبحانه، وما كنت أحب التقليب أبدًا بشيء من النقد في سيرة رجل واراه الثرى، ولكن ما حدث كان فجيعة علمية بكل المقاييس لا يمكن التغاضي عن جريرتها والسكوت عليها أبدًا.

فماذا حدث؟

بدأت المصيبة تتكشف وحادثة السرقة ينجلي عنها الغبار، حينما قام أحد الطالب الباحث حسان آدم، بمناقشة رسالة الدكتوراه في منهج الدكتور محمد سيد طنطاوي في مسائل العقيدة من خلال تفسيره الوسيط.. من جامعة أم درمان بالسودان عام ٢٠١٧م.

وبعد حصول الطالب على الدرجة وإعلان النتيجة، منذ هذه السنوات، طلع علينا الباحث الكبير وصفي عاشور أبو زيد منذ قليل بمفاجأة من العيار الثقيل لا يمكن إغفالها أو الإعراض عن مصيبتها.

قال وصفي: " هذه رسالة حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، في هذه الشخصية وذلك الكتاب..

والبعض ممن عاصر كتابة هذا التفسير – التفسير الوسيط – يعلم أن الذي كتبه هو أستاذ أساتذة التفسير في عصره العلامة الشيخ د. أحمد السيد الكومي، وكان الشيخ محمد السيد طنطاوي يساعده فيه،

وصدرت الطبعة الأولى من هذا التفسير باسم الشيخ الكومي، ووضع اسم الشيخ طنطاوي معه على الكتاب..

فلما توفي الشيخ الكومي، أراد الشيخ طنطاوي إصدار طبعة ثانية من التفسير، وصدرت الطبعة الثانية باسم الطنطاوي فقط بعد أن قام بحذف اسم الشيخ الكومي، رحمه الله تعالى..

هذا فقط للتاريخ، ولكي لا يحدث تلبيس وتدليس في رسائل البحث العلمي، ونسبة أمور إلى غير أهلها، وحرمان أهل الفضل من فضلهم.

والذين ينكرون صدق هذه المعلومة في تعلقياتهم:

الشيخ الكومي نفسه ذكر إسهامه في هذا التفسير، وأنه كان مشاركة بينه وبين تلميذه طنطاوي، قال: "كان لكثرة الرسائل العلمية التى أشرفت عليها أكبر الأثر فى الإقلال فى مجال التأليف والنشر ومن أهم مؤلفاتى: ١. مساهمتى فى التفسير الوسيط .فهو مشاركة بينى، وبين الدكتور/ طنطاوى، وأحد أبنائى البررة، والذى قام بإتمامه بعد ذلك وحده". [من مقالة من ملتقى أهل التفسير].

وذكر ذلك أيضا د. فضل حسن عباس في كتابه: "التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث".

والمحصلة النهائية، أن الشيخ الكومي له إسهام لا ينكر في التفسير، وصدرت الطبعات الأولى من أجزائه باسم الكومي وطنطاوي، وبعد ذلك تم استبعاد اسم الكومي، وبصرف النظر عن مقدار الإسهام الذي قام به الكومي في التفسير، فهل يصح تبرير حذف اسم الرجل من التفسير؟ إن هذا عذر أقبح من ذنب!"

والآن وبعد كشف هذه الجريمة التي لم تكن يوما في الحسبان، ولم يكن من المتوقع أبدا أن تصدر من رجل ترقى فيما بعد إلى رتبة الإمام الأكبر، لابد للأزهر أن يعيد طباعة هذا التفسير باسم بذكر اسم الشيخ الكومي الذي هو أحد أبنائه وعلمائه الأبرار، وهو الدكتور الكومي، وكذلك يجب على الأزهر وقد قرر التفسير الوسيط على طلاب المراحل الإعدادية والثانوية الأزهرية، أن يعيد طباعة هذه المقررات وعليها اسم الراحل الكومي، كما كانت في طبعاتها الأولى، انتصارًا للحق وإحقاقا للصدق والصواب.

ومن العيب الكبير أن يتغافل الأزهر الشريف عن هذه الجريمة، ولا يعيد الفصل فيها ورد الاعتبار للعالم الكبير د. الكومي، صاحب الجهود الضخمة في خدمة القرآن الكريم، أهكذا يكون الجزاء ورد الجميل؟!

لقد قلت مرارًا إن السرقة الفكرية والعلمية أنكر أنواع السرقات، والسرقة الدينية العلمية أبشع أنواعها جميعًا.

فهل سرق شيخ الأزهر الأسبق جهد أستاذه الكومي ونسبه لنفسه؟

أم أننا نحتاج لجهد المتخصصين في التفسير ليوضحوا لنا الأمور؟

الشيخ الكومي يستعيد حقه

أثار مقالنا القديم حول التفسير الوسيط المنسوب للشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الأسبق، موجة سخط عارمة من المتعصبين للأزهر بحق وبغير حق، إذ أنكروا دعواي أن الشيخ استحوذ على التفسير كله منكرا حق شيخه فيه، وكان الأولى به من باب الأمانة العلمية التي افتقدها، أن يعلن في مقدمة التفسير جهود شيخه فيه وتفضله عليه بإسهامه العلمي العظيم، لكن الشيخ لم يكن بارا بأستاذه العلامة المفسر الالمعي الكبير الشيخ الدكتور أحمد الكومي.

كل ما كان لدي كبرهان على هذه الدعوى مجرد صور لأجزاء قديمة من التفسير، عليها اسم الكومي وطنطاوي، وبعض حكايات ومرويات مما دار في هذه الحادثة ممن عاصروها من رجال الأزهر الكبار، وتأكيد بعضهم لي أن التفسير كان للكومي فيه جهد ضخم وصل لثمانية أجزاء.

كان هذا الصخب منذ يومين فقط، حتى شاء الله أن أجد وأعثر على ترجمة للشيخ الكومي بلسانه هو، نشرت له في مجلة الأزهر، يروي فيها الشيخ الكومي حديثا عن نشأته ورحلته العلمية ومسيرة حياته، ولما جاء الحديث عن جهوده العلمية، كان أول شيء ذكره هو مشاركته للتفسير الوسيط بينه وبين تلميذه طنطاوي.

جاء هذا الكلام في أعظم وثيقة وشهادة أزهرية وهي مجلة الأزهر الناطقة باسمه.

وهنا ما حال المعترضين وما قولهم؟

هل يكذبون الشيخ الكومي؟

هل يكذبون مجلة الأزهر؟

هل يرون أن حديثي هذا والذي يعد جلبًا لحق رجل ضعيف تشويها للأزهر وعلمائه؟

دائمًا أسائل نفسي: ما هذه العصبية العجيبة للباطل أمام نور الحق اللهم إلا ان تكون ضربا من اتباع الهوى، كل من لديه التفسير الوسيط لابد أن يدرك أن هذا التفسير من جهد الشيخ الكومي وتلميذه طنطاوي، وليس جهد طنطاوي وحده، ويدرك قبل هذا أن طنطاوي أغفل حق شيخه ولم يصل رحم العلم بينه وبين معلمه، ومن المضحك المبكي ان البعض قال لي: لا تتكلم في غير فنك وعليك بالمتخصصين، ونسي الرجال أنني أزهري وخريج من ذات الكلية التي تخرج منها الكومي وطنطاوي، وأستطيع التمييز والبصر بما أقول وأكتب.. ثم إني لا أدري ما شأن استدعاء المتخصصين في مثل هذا

الأمر؟ هل نتكلم هنا عن معرفة المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وإعجازه، وإعرابه ورسمه، وعلم غريب القرآن، حتى نستدعي متخصصا يحكم بيننا؟

نحن نتحدث عن جريمة ضاع فيها حق شيخ من شيوخ الأزهر فهل نجد من ينافح عن تراثه من أصحاب الضمائر الحية؟

بل شطح بعضهم زاعما أنني أهلوس وراء الشو الاعلامي عبر تشويه الرموز، وحاشا لله أن ندهس سمعة الأعيان، طمعا في غرض دنيء من أغراض الدنيا الفانية.

دعاة ومناصب

هل تتخيل أن يذهب اجتهاد عالم من العلماء المرموقين إلى تأييد الحجاج في قتله للإمام سعيد بن جبير، وأنه استحق ذلك لخروجه عن الجماعة، وعدم اعترافه بالخطأ حين طُلب منه ذلك، بحجة عجيبة وهي، أنه كان خارجًا على الدولة الأموية، ولأنه شارك من قبل في أعمال الحجّاج السياسية مؤيداً وجهة الدولة الأموية، وما كان له أن يفعل ذلك.

ذلكم هو العلامة الراحل الشيخ عبد المتعال الصعيدي، وهو اجتهاد به بعض الشطط، وغموض الرؤية، وضيق الحكم.

فالمشاركة في الأعمال السياسية من عالم كبير مثل سعيد بن جبير كما قال الدكتور محمد رجب البيومي في رده على الشيخ: "تعين على دفع الطغيان، وتقف دون تجاوز الحدود، وإذا كان الحسن البصري قد اعتزل الحاكمين، قله رأيه الذي لا نلزم به سعيداً، كما حاول الصعيدي أن يلزمه بمسلك زميله، والخروج على الحاكم الظالم أمر مشروع، فكيف يكون موضع اتهام لسعيد من الأستاذ.؟!"

بعض المتدينين المتشددين يستنكرون أن يتولى العالم منصبًا دينيًا في حكم دولة لا يقبلون سياستها لأنها لا تحكم لا بالقرآن ولا يسير نهجها على أحكام الشريعة، ويتعجبون وهم ينفون عنهم صفة العلم الحقيقية، ويرددون علنا: كيف يكونون علماء ربانيين وهم يتولون هذه المناصب ولا ينكرون على أصحاب السلطة نهجهم وسياستهم!

والحق أن كثيرا من هؤلاء العلماء لهم نظرتهم الإصلاحية التي يجب أن نقف حيالها ونعلمها حتى نجد لهم العذر المطلوب، فبعضهم يرى أن توليه لهذه المناصب، من باب الإصلاح قدر المستطاع، والتصدي للأخطاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ووقف الظلم والطغيان الذي يقدرون عليه، إن قضاء مصالح

العديد من الناس الذين يدركون أنها لا تُقضى لو تولى المنصب عالم عابث متملق منافق، لا يسعى إلا مصالحه الذاتية ولا يلتفت إلى نفع الناس في شيء.

وقد رأيت عالما نحسبه على الخير والصلاح، كان عضوا في الحزب الوطني، ولما كلموه في ذلك قال: إنني عبر موقعي هذا قضيت مصالح العديد من الناس، ووقفت مواقف كلها في صالح الدين والحق، وإن كان المناخ العام لا يساعد على آمالي ورغباتي، إلا أنني قمت فيه بواجبي المطلوب.

استلفتني ما قرأته للكاتب الكبير الراحل محمد جلال كشك في تعليقه على موقف العلماء الأزهريين الذين انضموا وقبلوا التعيين في الديوان الذي أقامه نابليون عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، بأنهم كانوا يقومون بدور المعارضة السلبية في كثير من قراراته، ولم يكن وجودهم تصفيقا وتهليلا وموافقة لكل ما يريده المحتل الغاصب.

وهي نظرة تدعوا المتشددين أن يتريثوا في أحكامهم على النفوس والعلماء، فلعل وجود هؤلاء في مثل هذه المناصب يجلب خيرا ويدفع شرا، وهو نفس المنهج الذي أخذ به الشيخ أحمد حسن الباقوري، حينما ترك صفوف الإخوان المسلمين وانضم إلى التشكيل الوزاري في عهد عبد الناصر فكان وزيرا للأوقاف، وأنه قال للهضيبي إنني رأيت نفسي أن أعمل سأفيد الدعوة من خلال هذا المنصب، وقد سمعت كذلك أن كثيرا من قيادات التيار الديني كانوا يطلبون من الباقوري أن يتدخل من خلال عبد الناصر، ليتوسط لدى جوزيف تيتو ليخفف الوطأة على الإسلاميين في يوغسلافيا وخاصة الداعية المبرز علي عزت بيجو فيتش.

وبعض أصحاب النظر من هؤلاء العلماء، يرون أن نفوسهم لا تقوى على التواجد بين أهل الدنيا، أو الاستقواء على فتنة المنصب والجاه والسلطان، فيرون أن الطريق الأمثل لهم، الانغلاق والعزلة ورفض أي منصب يزج بهم في أتون الحكم، وإذا كان بعضهم فعلا رفض ذلك واعتزل الدنيا، وقاوم وأبى، فليس معنى هذا أن نظلم غيرهم ممن قبل بهدف الإصلاح.

الإمام أبو زهرة يهاجم بهاء الدين

اليوم هو ٢٩ مارس وهو نفس ذكرى ميلاد رجل من أعظم وأكبر رجالات الإسلام والعلم والأزهر الشريف في مصر، وهو العالم النحرير والحبر البحر الكبير فضيلة العلامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، الذي ولد في ٢٩ مارس من عام ١٨٩٨ وكان من أكبر علماء الدين المؤثرين في زمانه، ولم يكن مجرد عالم بسيط، أو متخصص ذو قدرات محدودة، ولكننا في هذه السطور نتناول الحديث عن رجل رهيب،

صاحب عقل خطير، وذكاء وقاد، وعبقرية ثاقبة، كان فقيه الإسلام بلا منازع، وشيخه الأكبر بلا منافس، وكان من حماة هذا الدين وحراس عقيدته.

ولكنني فوق ما أسجل من هذا التميز العلمي والتفوق العقلي، أقرر دائما أنني لا أفتخر بالعالم لمجرد العلم، ولكن داعي الفخر في أعماقي والشعور بالغبطة نحو عالم من العلماء، إنما يكون لمواقفه في نصرة الحق، والدفاع عن الإسلام والزود عن حياضه أمام الأفكار المنحرفة والحاقدين على ملته وهديه.

لم يكن الشيخ أبو زهرة رحمه الله مع علمه الكبير من الذين يمكن لهم الصمت أمام تعد سافر على الدين والشريعة، وإنما كان يبادر بالهجوم أمام أي تلوث فكري يمكن أن يتم طرحه باسم الدين.

ومن حوادث الأيام وسوالف الدهر أن سجلت لنا معركة دارت بين الشيخ محمد أبو زهرة ورمز صحفي كبير من رموز العلمانية وهو الكاتب أحمد بهاء الدين، والذي كتب أفكارا لم تعجب الشيخ أبو زهرة، فهاجمه في مجلة منبر الإسلام هجوما عنيفا قال عنه بهاء الدين: " كتب مقالا يسبني فيه سبًا مقذعًا، ويستعدى على الله والدولة وأصحاب المؤسسة التى أعمل بها، طالبًا أن تطردني من عملي، وتضعني الدولة في سجونها، وأن يسوقني الله إلى جهنم يوم القيامة"

بدأت المعركة في صيف عام ١٩٦١ عندما كتب بهاء في جريدة أخبار اليوم التي يرأس تحريرها حينذاك مقالا تحت عنوان "هذه الدنيا" تحدث فيه عن موضوع الشباب والحب وشكل العلاقات الأسرية ولفت الانتباه إلى أن التطور الاجتماعي الذي يستند إلى تطور مادي قد غير معالم الحب القديم تماما حتى وصل بهاء إلى المقارنة بين الفتاة المتعلمة العاملة وغير المتعلمة وبالتأكيد فضل الأولى فيقول بهاء "لنقارن مثلا بين فتاة لم تتعلم ولم تعمل وأبوها يعولها بصعوبة.. وبين نفس الفتاة لو أنها تعلمت وأصبحت تعمل، إنها في الحالة الثانية تستطيع أن تخرج.. أن تذهب إلى السينما.. أن تبحث عن ثوب تشتريه وعن ذوق يناسبها.. أن تختار شريك حياتها أو توافق على اختياره لها.. أن تكون لها صديقات والفرق هو التغير المادي والاجتماعي الذي حدث لها نتيجة ثقافتها وعلمها".

الكلام لم يعجب الشيخ أبو زهرة فسارع للهجوم على بهاء الدين وأفكاره ووصفه بالمنحرف ورأى أراءه التي تقول بها آثام يحمل وزرها يوم القيامة.

استفز مقال ابو زهرة حفيظة بهاء الدين فسارع إلى الرد على الشيخ مقللا من مكانته ومستهجنا من آرائه ونقده وهو النقد الذي هلل له العلمانيين وكل منحرف على ذات الطريق وزعموا في تقولاتهم أن بهاء قد أطاح بعمة الشيخ والحق أنه ما أبرز في ردوده إلا جهلا وسخفا وتلبيسا.

يقول بهاء: " «إنها المرأة.. دائما المرأة.. فقرة عابرة كتبتها عن الأسرة وعلاقة الرجل بالمرأة ووضع المرأة فى المجتمع الاشتراكى». وبدأ «بهاء» مقاله بمقدمة كتب فيها: «كثيرًا ما يحار المرء كيف يعامل هؤلاء الناس.. وهؤلاء الناس هم بعض رجال الدين الذين يريدون أن يحتكروا تفسير الدين، وبالتالى يحتكرون تفسير الحياة، الذين يحسبون أن الآيات القرآنية عجينة فى أيديهم يكيفونها كيفما تشاء لهم عقولهم المتحجرة فى أغلب الأحيان"

ولا شك أن هذا الكلام فيه من البلاهة ما فيه فبهاء يتصور أن الدين مشاع لكل أحد يمكن أن يلغو فيه بقلمه وفهمه ولا يعلم أن الدين والقرآن والتفسير، لكي تفهم كل ذلك وتؤل ما تريد منه تأويلا صحيحا لابد لك أن تدرس وتتعلم وتتقن أصول العلوم حتى تفهم ما تتحدث فيه، لكن بهاذ شأنه شأن كافة العلمانيين يحاول أن يلغي وجود العلماء ويصور للناس أن الدين مباح لكل إنسان أن يفهمه بالطريقة التي لا يريدها وهو قول منكر وفجور في الفهم والوعي.

ثم يقول بهاء : " أقول إن المرء يحار فى طريقة معاملة هؤلاء الناس، فالواحد منا يحترم فيهم أحيانًا سنهم الكبيرة، ويعذرهم فيما بينه وبين نفسه لأنهم عاشوا حياتهم العقلية أسرى بين جدران كتب معينة محدودة، لم يعرفوا سواها، ولم يدركوا من التجارب الإنسانية غيرها، ولهذا يؤثر الإنسان حتى إذا ناقشهم ألا يخرج معهم عن حدود الأدب، ولكن بعض رجال الدين هؤلاء يبرهنون، من الوهلة الأولى، على أن الدين لم يترك فيهم أول أثرا من آثاره، وهو الأدب والمناقشة المهذبة والمجادلة بالتي هي أحسن، ويحار المرء كيف يعاملهم، هل يكيل لهم بنفس الكيل أم يُقدِّر أن التطور يحطم رؤوسهم فتثور أعصابهم ويطير صوابهم"

ومن هذه الفقر يتضح أمرين أولاهما إن بهاء الدين يحاول أن يبين للناس الفقر الفقهي وعدم البصر بالواقع والدنيا وتغيراتها في فهم أبو زهرة وتصوراته، وكتب أنه وأمثاله كانوا كذلك لأنهم حبيسو الجدران بين الأسفار والكتب والمراجع، ثم بين أن هذه الكتب محدودة أي أنها لا تفي بعلم ولا تهدي لبيان، محدودة أي قاصرة.

وهذا إن دل فإنما يدل على افتراء رخيص، فهذا الرجل الذي أنتج أكثر من ٨٠ كتابا خدم بها المكتبة العربية والإسلامية، لم يكن نبت كتب محدودة وإنما كان رجلا واسع الاطلاع مهولا في العلم، وكل من قرأ لأبي زهرة يعرف ذلك ويراه بين ثنايا كتبه.

الامر الثاني يبدو أن بهاء متضايق جدا من هجوم أبو زهرة عليه مما دعاه أن يحدث القراء أنه يريد أن يتنازل عن الأدب في حربه مع الشيخ ، وما ذلك إلا لأن ألفاظ الشيخ وسطورة قد أهبت قريحته وأزعجت جنانه، ولنترك الأن بهاء الدين وانزعاجه في هذه النقطة ونوجه الحديث لعلماء الدين ودعاته

كيف يكونون ذو بأس على أعداء الدين والمنحرفين والمفرطين، فلا تأخذهم بهم هواده وأن يهبوا غيرة على دينهم ودفاعا عنه.. فهل ترى اليوم ممن يصفونهم بالعلم ويصفقون لهم في المنتديات ، هل رأيت يوما لأحدهم غضبة لله ورسوله، هل رأيته يقيم الدنيا ولا يقعدها إذا انتهكت حدود الله؟ هل رأيته يتناول قضايا المسلمين أو يهتم بأمرهم؟

ثم يقول بهاء في تسفل وقح: " «ألا تلاحظون معي أن هؤلاء المشايخ لا يكاد يعنيهم شيئا فى الوجود إلا المرأة؟.. ألا تلاحظون أنهم أكثر الناس تفكيرًا في المرأة؟! أليس هذا غريبًا حقًا؟.. ألا يحتاج هذا إلى محلل نفسى أكثر مما يحتاج إلى جدل عقلي؟! الأغرب من ذلك أن ما يعنى هؤلاء المشايخ من المرأة ليس «الإنسانية» ولكن «العورة»، المرأة في عقلهم الباطن مخلوقة حقيرة مستعدة أن تبيع عرضها لأول عابر سبيل، إذا غفل الرجل لحظة واحدة عن حراستها، المرأة في مفهومهم لا تصلح إلا لشيء واحد هو أن تسلم نفسها للرجال، ولهذا يجب أن تقام حولها الأسوار وتنفتح حولها العيون الحمراء.. حرية المرأة ليس لها معنى إلا الفساد.. مسؤولية المرأة عن نفسها لا نتيجة لها إلا الانحلال.. خروج المرأة من بيتها لا يؤدى إلا إلى أن ينقض عليها الرجال.. الجنس.. والجنس وحده يدوى فى عقولهم وباستمرار"

وهنا لا أعلم هل بهاء الدين يضحك على نفسه وهل قرأ في مقررات الغزو الفكري وبروتكولات أعداء الإسلام وكيف اعتمدوا على المرأة في تخريب المجتمع الإسلامي وكيف جعوا منها أفتك أسلحتهم في هدم نهضتها وبعثها من ركودها وتخلفها.

وإذا لم يقم علماء الدين بدورهم في الحفاظ على وضعية المرأة في المجتمع ويهبون في وجه كل من يحاول أن يسرب إليها أفكارا تهدم من عفتها ومكانتها ويجترها أن تفرط في دورها ووظيفتها وجهدها الكبير في يقظة الأمة، فكيف يكونون علماء يحترمون علمهم ويقدرون المسؤولية التي جعلها الله لهم؟

بهاء الدين يحاول التعمية والتلبيس والافتراء من حديث الشيخ أبو زهرة عن المرأة ليستنتج أفكارا أخرى يصور فيها للناس أن الشيوخ لديهم عقدة في أمر المرأة ويحتاجون إلى معالج نفسي، ولم يقل لنا بها: لماذا لا يحلل لنا بعبقريته الزاهية، لماذا يهتم العلمانيون والملحدون بالمرأة ويقيسون تقدم المجتمع من ركوده أو نهضته باسم المرأة؟ من من الطرفين لديه عقدة نفسية ويحتاج إلى معالج نفسي؟

أمر آخر أحب تسجيله وهو أنك إذا بحثت عن هذه المعركة في الانترنت فإنك لا تجد من يتحدث عنها إلا المنتصرين لبهاء من الكتاب العلمانيين والناصريين، ويحاولون التصوير بأن بهاء قد أطاح بعمة الشيخ كما ذكرت وأنه قد أهانه بقلمه، بحيث لا تذكر هذه المعركة أمام أحد إلا ويتصور أن المهزوم فيها هو الشيخ أبو زهرة، وحق لهم فعل ذلك، فهم أكثر يقظة وتركيزا وعملا واجتهادا، وقد كنا نتمنى ممن

يهتمون بالتراث الديني من يحيي لنا مقالة الشيخ أبو زهرة في منبر الإسلام ويعيد نشرها حتى نرى من المنتصر، ونتعلم من الشيخ أبو زهرة كيف نحفظ قيمنا وننتصر لديننا.

كما أحب التنوية بما آلت إليه الأمور فقد دارت المعركة والرد بين الاهرام ومجلة منبر الإسلام، فانظر قديما كيف كانت مجلة الإسلام درعا حاميا يصد عن دين الله، ثم انظر لها اليوم وقد صارت هباء منثورا، لا قيمة لها ومكانة!!

الأمانة العلمية

بعض الكتب كتب الله لها القبول في الأرض، وانداح ذكرها، وتوسع طبعها، وتعددت ترجمتها، في كل مكان من بلدان المعمورة.

وأمام هذا الإنجاز.. يعز على كثير من المؤلفين أن يشاركهم أحد من الناس فيما أحرزوه من تفوق وتميز وارتقاء وشهرة، فهذا التفرد ملك لهم وحدهم، وإذا قام أحد من العلماء أو باحث من الباحثين، بنقد الكتاب أو التعليق عليه أو تحقيقه، فإن اعتزازهم بذاتيتهم وخصوصيتهم وحفاظهم على ما حققوه من إنجاز ونجاح، يأبى عليهم أن يشيروا من قريب أو بعيد، لأي نقد أو تعليق أو رؤية أصدرها أندادهم حول مؤلفهم الذي اشتهر وعرف.

حدث هذا مع الكتاب المشهور (فقه السنة) الذي ألفه الشيخ سيد سابق في بدايات القرن الماضي، حينما وضع له الشيخ الألباني تحقيقًا لأحاديثه، أظهر فيه الصحيح من الضعيف الذي تنبني عليه الأحكام الفقهية، وحينما أرسل تحقيقه للشيخ سيد سابق؛ عارضا عليه أن ينشره مع كتابه، رفض سابق ذلك، مما اضطر الألباني أن يطبع تحقيقه مستقلا تحت عنوان (تمام المنة في التعليق على فقه السنة).

والحق أننا لا نعلم ما هي الأسباب التي منعت الشيخ سيد سابق من قبوله للأمر، ولا يمكن أن نظن به إلا الخير، لكنه لا شك كان على عكس موقف الشيخ محمد الغزالي، حينما قام الألباني بتحقيق كتابه فقه السيرة، لقد رحب الغزالي بالأمر ترحيبا كبيرا ولم ير ضررا بنشر التعليق مع كتابه لتعلم الفائدة، وكتب مقدمة عظيمة، أثبت فيها رسوخ قدم الألباني في علوم السنة، مما يتيح له هذا التدخل.

لقد كان موقف الشيخ الغزالي مشرفا جدا، ورغم أن كتابه كان مشهورا ومعروفا، إلا أنه لم يمنعه هذا، أن يكون سمح النفس سامي النظر، متعاليا عن الأثرة والأنانية، وحب الذات والاغترار والاعتزاز بالنفس.! لأن الهدف هو خدمة العلم الشريف وطلاب العلم، وهو نفس ما أدركه أبناء الشيخ سيد سابق فيما بعد، حينما وافقوا على طبع تحقيقات الألباني كحاشية على كتاب والدهم.

إنها الأمانة العلمية، والتي لا يجب أبدا أن يمتنع المؤلف عن قبولها والنزول عليها مهما تمتع مؤلفه بالشهرة والتفرد.

لقد قام الشيخ أحمد شاكر بتحقيق كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، والذي تعرض بعد نشره لتحقيق البحاثة المحقق النقاد سيد أحمد صقر، ونشره بجزئين من أجزاء مجلة الكتاب القاهرية، فقرأ الأستاذ شاكر نقده معجبا به، وأخبر صاحبه أنه سينشره في الطبعة المقبلة، ليقف القراء عليه، وصدقا وفى بما وعد، وكان المدهش في ذلك أن شاكر لم يكن موافقا على كثير مما رآه الناقد المحقق، ولكنه قبل بنشرة إفادة للقارئ وليكون على بينة من اختلاف وجهات النظر، واعترف أن هذا من باب الأمانة العلمية، ومن أخلاق العلماء.

الإمام محمد عمارة

المفكر الكبير والعلامة الجسور الراحل الدكتور (محمد عمارة) أحب جدا أن أنعته بلقب الإمام؟

لماذا لا يمنح له هذا اللقب في الوقت الذي منحناه لأناس من العلماء أقل منه شأنًا وأثرًا وحضورًا وسجالا؟

محمد عمارة كان أمة وحدة، حمل أمانة الدفاع عن الإسلام بما لا تقوى عليه كبرى المؤسسات والمعاهد والمعاقل الدينية، فكان الفارس المغوار، والعبقري التي تحطمت على يديه قلاع العلمانية واليسار.

أنا عن نفسي لن أتحدث عن هذا الرجل أو يأتي ذكره على قلمي ولساني بعد اليوم، إلا وأنعته بالإمام الملهم، فحق الرجل علينا أن نضعه في مقامه الصحيح، فقد قهر رجالا من المتمردين على الفكرة الإسلامية، لا يقوى على سجالهم أحد، ولا يستطيع أن يبزهم ويكشف عوارهم إلا قوة غالبة، تمتلك أقوى ما تجود به الترسانة العلمية من أسلحة الفكر والعقل والعلم.

قام الرجل في حياتنا وفي الفترة التي عايشناه فيها، تماما كما قام الإمام ابن تيمية في قهر الفلاسفة والبدعيين، بل قام فينا كما قام أبو حامد الغزالي الذي تحطمت على يديه دعاوى الفلاسفة والمتشدقين.

إن فقد محمد عمارة، لا يتمثل في نظري إلا أننا فقدنا حصنا عظيما من حصوننا المنيعة، التي كنا نأوي إليها إذا اشتد الخطب، وتملق الكفران، بل هو جيش بأكمله، قوي قاهر عدمنا حضوره وقت هذه المحن السوداء المتلاطمة، التي يتجاسر فيها الفجرة والمتأمرون على الإسلام وقيمه وشريعته وتعاليمه مسفهين مشككين.

استطاع محمد عمارة الذي كنت أعده رجلا ملهما، أن يدحر كثيرا من هذه المفتريات، ولم يكن رده مجرد رد يأمل ويطمح أن يكشف بعض الحق، ويجلي بعض الصدق، وإنما كان محمد عمارة في ردوده شيئا مذهلا في إبانه الحقائق وفضح الزيوف، ولا يترك الخصم المتعالم، حتى يظهر ضآلة حجمة، وصغر قامته، بل ويضحك الناس على جهله.

هكذا كان رحمه الله، وقد تميز ببعد النظر وغور الفهم، وعمق الرؤية، ودقة التناول والتحليل.

حتى العلمانيون أنفسهم، ما فرحوا بشيء في الدنيا كفرحهم بموت محمد عمارة، الذي يعلمون تمام العلم، أن موته يكشف الجبهة الإسلامية من بطلها المغوار الذي كانوا يرهبون دفاه، ويتألمون من سجاله.

رحم الله الإمام محمد عمارة

أسكتوا هذا المخرف

يجلس الحمقى الجهلاء والدراويش المغفلون ويعطون آذانهم وعقولهم وهم منتشون لرجل مخبول ينطق بكلام الزنادقة ويحيي عبارات أعداء الإسلام.

وكان من آخر شطحاته تحذيره من تفسير الإمام ابن كثير، وحجته في ذلك لا الكتاب ولا مضمونه، ولا ما يشمله محتواه من علم ثاقب وهداية راشدة، وإنما الحجة والحكم على تفسير الامام ابن كثير ترجع إلى محبة السلفيين له ومدح الوهابيين حسب تعبيره لمنهجه وعنايتهم بسِفره.!

وهكذا يتنكر هذا الدعي الأفاك للعلم ويكفر بالهدي، لا لشيء إلا أن له خصوم يحتفون به.. وأولى به لو سار على هذا النهج أن يكون ذلك أيضا رأيه في القرآن الكريم وتحذيره من كتب السنة المشهورة، لأن السلفيين أيضا يمدحونها ويعتدون بها.

ماذا بقي لنا لو أننا قبلنا مثل هذا الكلام في تفسير ابن كثير الذي هو من أجل تفاسير القرآن الكريم.

هذا منطق أهل الزيغ والضلال، بل منطق الجهلاء الأدعياء.

لقد عرفت من شيوخ التصوف من كان يعتد بتفسير ابن كثير ويعيش عليه وينتقي منه ويدرسه لمريديه، ولم تبلغ بهم أبدا هذه الدرجة من الحساسية المحمومة الجبانة والجرأة الوعرة الساقطة.

قلت مرارًا وناشدت المعنيين والمسؤولين بضرورة إخراس هذا الرجل الذي يهرف في الدين بما لا يعرف، ويشكك الناس في الثوابت والعقائد، ويسيء إلى رموز الإسلام ويشوه حقيقة الكبار من أعلام الأمة.

الراجل جاهل بكل المقاييس، يستطيع أي طالب علم أن يكتشف جهله بسهولة، فلماذا نجد من يعتد به ويحرص على إظهاره اللهم إن كان لهذا غرض دفين ونية سوء مواربة.

هل تعرف من هو الإمام السيوطي؟

الإمام السيوطي من أئمة التصوف المحترم المتزن وله ثورة معروفة على الصوفية الأدعياء، أي أنه متصوف ومحسوب على الصوفية، وهو فوق هذا من أئمة الإسلام العدول ومشايخه الكبار الذين اشتهروا بكثرة التصنيف وفي مختلف العلوم.

ماذا يقول الإمام السيوطي في تفسير ابن كثير؟

يقول: "لم يؤلف على نمطه مثله"

هذا العالم العلامة والحبر البحر الفهامة، والموسوعي الذي قل نظيره في زمانه، يقول هذا عن تفسير ابن كثير.. ثم يأتي هذا الهمل النكرة المخلول المخبول ليطعن في أعظم تفاسير الإسلام.

ولاحظ أن الامام السيوطي يقول هذا الكلام وهو صاحب تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) على نفس المنهجية التي سار عليها ابن كثير في كتابه، يقول هذا الكلام ولم تمنعه الغيرة أن ينصف الحق ويمنح الفضل لأهله وينزل تفسير ابن كثير منزلته التي عرفها المسلمون على مر الدهور والعصور.

ماذا يفرق مثل هذا الرجل عن العلمانيين والملحدين الذين يشككون في تراثنا القيم الباهر ويحاولون طمس الانتماء به، هؤلاء الناس يحمد لهم عداءهم الشجاع الذي نبصره ونعرفه حينما يعلنون هم بلا خفاء كرههم لتراثنا وديننا، نحترم ذلك منهم وفيهم.

لكن حينما يخرج جاهل يرتدي عباءة الإسلام وعمامة شيخ الإسلام ثم يطعن في كتب التراث ودرر الأئمة الهادين المهديين، فإن الأمر يستحق وقفة، ويستحق طلبا يقدم للجهات المسؤولة بتعزير هذا الرجل وإخراسه ووقف هديره النتن الذي يؤذي به آذاننا.

وأنا هنا أعرض عليك شهادات بعض أهل العلم وثناء الكبار والعدول على الإمام ابن كثير حتى تعرف قدره وعلمه وروعه تفسيره، فتتنبه وتستيقظ وتعلم وتدرك وتنصح ولا تخدعك أبدا مثل هذه الهرطقات التي يهذي بها هذا الضال المضل.

فهذا الإمام البدر العيني وما أدراك ما البدر العيني، يقول فيما نقله عنه ابن تغري بردي: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، سمع وجمع وصنَّف ودرَّس وحدَّث وألَّف، كان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتَهر بالضبط والتحرير، انتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة ومفيدة"

وقال عنه شيخه الحافظ الذهبي ولاحظ هنا كلمة شيخه، أي أن الشيخ يمدح التلميذ وتلك من النوادر حيث يقول: «الإمام المفتي المحدث البارع ثقة متفنن ومحدث متقن ومفسر نقَّاد» وقال أيضًا عنه: «له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وألَّف وناظر، وصنَّف وفسَّر وتقدَّم"

وأما ابن حبيب، فيقول عن ابن كثير: «إمام ذوي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنَّف، وأطرب الأسماع بالفتوى، وصنَّف وحدَّث وأفاد، وطارت فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير"

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي: «الشيخ العلامة الحافظ عماد الدين ثقة المحدثين وعمدة المؤرخين وعلم المفسرين"

وقال الداودي: «كان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ"

بقي أن تعلم أن هذا الكتاب لجلال قدره وعظم شأنه حظي في وقت مبكر بتحقيق واختصار العلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله، لأنه من أروع كتب التفسير بالمأثور، ففيه تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، تفسير أصيل ذاخر بالأحاديث النبوية والأقوال المرضية.

أزمة عقلية وأخلاقية

منذ الأمس استطعت أن أدرك بعمق مأساة النبي صلى الله عليه وسلم في معاناته مع المشركين، حينما كان الحق واضحا أبلجا، وهم يجادلون ويمارون إما جهلا أو عصبية.

بالأمس استطعت أن أقف على حجم الإرهاق حينما يتحجر العقل ويخاصم الأضواء، وتقف الحواجز العالية بينه وبين الفهم السليم.

بالأمس عرفت فعلا وواقعيًا معنى وتفسير بعض آيات القرآن الكريم التي وصفت المشركين بحجرية العقل وعمى البصيرة عن رؤية الحق أو قبول الإنصاف والصدق.

ما حدث من مناقشات في مقالي السابق أصاب المرء بالدهشة والعجب والغرابة، والمحزن أن من وقعوا في سوءة العصبية والعماوة، وتسربلت الغشاوة على أفهامهم وعقولهم، كثير منهم من أصحاب العلم والشهادات العلمية والشيوخ ودكاترة الأزهر.

بل المريب أن أكثر من معلق كان يكتب ويقول: إلى الله الموعد، وبصيغة مختلفة: الموعد الله.. وموعدنا الله

وكأنني والعياذ بالله أخطأت في القرآن الكريم، وطعنت في السنة النبوية، وأسأت لمقام الصحابة الكرام، أو ألحدت في تعاليم الله، أو أهلت التراب على أعلام الإسلام من علمائه المصلحين

أنا رجل كل غايته أن يعظم الإنصاف، ويظهر الحق ولو على حساب نفسه وانتسابه الأزهري، ومن المعلقين من حاول التفلسف بأن عقدي لمقارنة بين شيخ أزهري فاجر، وبين شيخ سلفي يوحي للأذهان ويصور لها أن الأزهر بغيض، والسلفيون أسما وأرقى.

ومن أصنام الأزهر من تخيلوا من كلامي أنني من أبناء التيار السلفي، ونعتوني بالوهابية، وانساق بهم الفجور والسفه لسب الإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه، الذي أحيا السنة وقمع البدعة، وكانت له جهوده التجديدية التي أشاد بها مفكرو الأزهر الكبار، وعلى رأسهم الدكتور محمد عمارة وغيره، بل عليهم مراجعة تاريخ الجبرتي ليروا ويقرؤوا ماذا قال الجبرتي في الدعوة الوهابية ورجالها وغايتها.

أظهر المقال أزمة في كبيرة في الفهم والوعي، وأزمة كبيرة قبل هذا في الإنصاف الذي يمثل الخلق والضمير والتربية، وكان الأولى بهم أن يعيبوا كتب السنة الصحيحة التي روت وسجلت أن من الصحابة من زنى وسرق، وكان الأجدر بهم وبنفس التشنج أن يقولوا مستنكرين: إن روايتك لهذه الأحاديث توحي للناس أن الصحابة زناة وسراق ولصوص.!

عجبا عجبا ما هذا الفهم الأخرق، وما هذه العقول الضيقة المتقزمة؟!

سارع أحدهم ليهدم قامة الحديث الشيخ الألباني، واعتمد على أن الرجل أخطأ في بعض الروايات، وحاول أن يصور هذه الأخطاء التي لم تكن إلى مجرد اجتهاد يؤجر عليه، بأنها فضيحة مدوية يمكن لها أن تخرجه من زمرة العلماء، ثم حاولوا الانتصار للأزهر الذي يطغى علمه على كل علم، بأن في الأزهر من هو أسما وأعلم وأرقى منه علما وقدرة وفهما وهو سماحة الشيخ الدكتور أحمد معبد، وسرعان ما أدرج المعلقون مقاطع مرئية للشيخ معبد، وهو يشيد بعظمة الألباني ودخوله لفن الحديث قبل أن يدخل الفن للأزهر بعقود كمادة مدروسة، وبيّن اختلاف المحدثين في مسائل التضعيف واجتهاداتهم فيها بأنها شيء مختلف فيه، وأعلن هن هذه الاجتهادات للشيخ الألباني قليلة جدا، بل من المذهل أن بعضهم ذكرني بالشيخ أحمد عمر هاشم وهو من أعلام الأزهر في الحديث، والذي كان يتحدث في برامج إذاعة القرآن الكريم، ثم يروي الحديث ويقول في النهاية صححه الألباني أو حسنه الألباني.

حتى ولو كان هناك من يتحمس للأزهرين ويحكم بشاهق علمهم في الحديث وتفوقهم على الألباني، يبقى شيء مهم هو مسار الحكم الأول، وهو التراث الذي خلفه كل منهم، فمن من علماء الحديث في الأزهر والدنيا كلها، خلف وأنتج تراثا علميا ضخما كما خلف الألباني لدينه وملته؟

لا يوجد.

ولكن العقول تصر على التعامي وتدفعها عصبية جوفاء مشوهة لا تليق بأصحاب العلم والنظر السليم.

وعلى جانب آخر.. سارع أبناء التيار السلفي ليهاجوا الأزهريين الذين نفوا صفة العلم عن الألباني، وسبوا ابن عبد الوهاب، وقد تبين لي مظهر خطير في ساحة النقاش، حينما ظهر أن بعض الأزهريين أكثر تشددا وسبا وشتما من بعض أبناء التيار السلفي، وهذه لا شك آفة لا تخدم الإسلام في شيء.

وبعضهم قال لي: لا أحب الجدال، ولكن أي جدال أيها العالم الفذ، ونحن نتناقش في أمر علمي، يمكن أن نصل في نهايته للاختلاف ولكل منا طريقه الذي يحترمه الآخر، والحق الذي غاب عنك وكان يجب أن تنطق به وهو أن تقول: لا أحب الهزيمة، أو لا أحب أن يخالفني أحد الرأي، هذه هي الجملة التي كان يجب بك ولك أن تنطق بها.

المقال الذي كتب في غايته الكبرى، كان يسعى إلى احترام العلماء قاطبة، ونبذ التعصب للمؤسسات والجماعات، والانتصار للحق وحده، لقد كان مقالا أخلاقيا فكريا في الدرجة الأولى، يدفع أبناء الدين على الطريق القويم، الذي يسيرون به في التعامل مع بعضهم البعض، بلا تحقير أو تقليل، ولكنه للأسف، بدلا من أن يؤصل لهذه الغاية لم تستطع الأكثرية أن تتنازل عن عصبيتها، ونسيت غاية الكلام، ورمت بنا في واد آخر، ويبقى السؤال المهم؟

هل يمكن لهذه العقول التي تنافرت أن تصطف يوما للصد عن دين الله والدفاع عن حرمات الإسلام ضد العلمانيين واليسار والملاحدة؟ أعتقد أنه لو حدث، فإنها ستكون صفوفا تحمل في راياتها غيوم الهزيمة النكراء، لأن الأجساد متوحدة والقلوب متنافرة.

وبعضهم لم يقرأ إلا العنوان وبضعة أسطر، ثم شرع بذكائه الموهوم للرد العنيف بتجن واتهام.

لقد كشف المقال عن مأساة نفسية وعلمية وأخلاقية، تحتاج إلى سنوات من التربية العنيفة، لتزيل هذه الألغام من العقول العطنة.

عالم مسلم لكنه غير مصري، تفوق في علم من العلوم، وشهدت له الدنيا كلها، فماذا يضيرني في هذا، هل تعميني الغيرة للأزهر أن أجرده وأحرمه من قيمته العلمية التي أنعم الله بها عليه، ولو أنني مسلم فاهم وعاقل، لأدركت أن تفوق هذا العالم نصرة للإسلام ودعما قويا متفردا للدعوة، وكان الأولى بهم أن يغيروا من البخاري ومسلم وكل علماء الحديث من أصحاب الكتب الستة، فلا يوجد فيهم واحد من مصر بلد الأزهر.!

بقيت إشارة مهمة يجب التنويه إليها بقوة وهي أنني حينما ضربت مثلا في مطلع كلامي بالآيات التي تتحدث عن المشركين في عنادهم وغباوتهم، وعنادهم، لا يعني هذا أنني أتهم النقاد والمتحاورين بالكفر والشرك، وأنا متأكد أن هذه التهمة ستوجه إلي لو لم أتداركها، فيبدو أننا لا نناقش عقولا، بل نناقش جماجم ملأتها الأهواء والإحن والضغائن والغباءات المدومية، ثم ترفع بعد ذلك شارات العلم وترتدي عمائم الدين.

اخلع نياشينك

لله ما أجمل التواضع، وأزهى التبسط، وأثمر الافتقار، ولله ما أمقت العجب، وأخبث الزهو، وأردأ الغرور.

في يوم من الأيام كتبت صديقة لنا تقول: أنا لا أقبل أبدا أن يناديني أحدهم باسمي مجردًا فأنا أستاذة دكتورة، وقد تعبت كثيرا حينما وصلت إلى هذه الدرجة، وليس لدي استعداد للتنازل عن لقبي، ومن لم يستطع أن يناديني بدرجتي فليخرج من صحبتي.

قرأت هذا الكلام وشعرت معه بنبرة كبر وعلو، وهي سمة لا يألفها مسلم ذاق حلاوة التواضع، وعرف أخلاق الإسلام، وأدرك حقيقة الإنسان ومآله، وتحلى بالزهد والافتقار، وقد رددت عليها وقتها وقلت: أما أنا فوالله لو صرت ملك الدنيا وناداني أحدهم باسمي مجردا، فإنني سأكون سعيدا لأن نفسي لم يجرفها تيار العجب والغرور.

وعلى ذات المسار رأيت أخرى وبمجرد أن حصلت على الدكتوراه، وكان لها أصدقاء ومحبين ينادونها باسمها مجردا، فإذا بها تكتب منشورًا بمداد الغضب تصب من خلاله سخطها على قريب منها مازال يناديها باسمها مجردا كما هي طبيعته معها، فإذا بها تأكله وتنهشه، وتعيره بأنه عاجز أن يحصل على نفس درجتها، وأنه يصر على مناداتها باسمها لأنه حاقد عليها.

رأيت هذا وحمدت الله على نعمة التواضع والرضا بأخلاق الإسلام التي تحث العبد أن يتجرد عن زهو الدنيا ووهم غرورها.

وترحمت على الأئمة الميامين الذين كان أحدهم يكتب في ختام مؤلفه فيقول: كتبه العبد الحقير الفقير إلى مولاه.

لقد أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، لكن إذا وجد من يتباهى ويتعالى بقدراته على خلق الله، فذلك ليس على صراط النبوة التي قال رائدها للمفزوع: هون عليك فما أنا إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة.!

تذكرت كل هذه الوقائع وأنا أستمع إلى الدكتور مبروك عطية في أحد البرامج حين قالت له المذيعة: الشيخ مبروك، فإذا به ينتفض ويثور ويستنكر لقب الشيخ، ويعطيها البطاقة ويقول لها: أنا مش شيخ أنا أستاذ دكتور، ويفتخر كثيرا أنه نال الدكتوراه، وبعدها الأستاذية التي كانت نتاج ١٠ بحوث.

ولكن ما أغنت عنه الدكتوراه وألقابها، هل حمته من الابتذال الأخير، والمهزلة التي خاضها مع قوم لا يليق بهم او يليقون به.؟

إن الأستاذية لم تعصمه من هذا السفه، فما أتعسها من وظيفة وما أوهنها من لقب.

ولله در القائل:

استبدلوا لفظ الفقيه بغيره ❋ ومن الغريب محدثون دكاترة

والله لو علم الجدود بفعلنا ❋ لتناقلوها في المجالس نادرة

على المستوى المقابل استمعت في فقه الرتب والألقاب إلى حديث للشيخ الراحل أبي إسحاق الحويني وهو يقول:

اترك كل هذا الكلام الذي لا يزن عند الله جناح بعوضة، كل هذه النياشين ستخلفها وأنت مسافر، لا تظن أن العلامة الحافظ المحدث الكبير لها قيمة عند الله، هذه النياشين ستخلفها وأنت راحل فاحتط لنفسك، ستقف بين يدي الله سبحانه بلا نياشين، وهل هناك أعلى نيشانا من أمير المؤمنين؟ خلعها عمر وقال لابنه: ضع خدي على التراب، وقال: لا تقل أمير المؤمنين فإني اليوم لست أميرا للمؤمنين، الحاكم أو الملك أو الرئيس لا قيمة له عند الله.. اخلع نياشينك" واسترسل الشيخ رحمه الله في بكاء الخاشعين المخبتين.

يقول أحد تلامذته: في يوم ما كانت مهاتفة طويلة بيني وبين شيخنا أبي إسحاق الحويني رحمه الله حول كتاب "المجروحين" للإمام الحافظ ابن حبَّان رحمه الله وكان في آخر المحادثة أن قلت لشيخنا رحمه الله: يا شيخنا لي طلبٌ عندك في الدنيا.

فقال: خير بأمر الله.

فقلت: يا شيخنا لا يعلم الغيب إلَّا الله فلو كنتَ من أهل الجنة وكنتُ من أهل النار عياذاً بالله فبالله تعالى اشفع لي عند الله تعالى.

وقتها سكت الشيخ رحمه الله وقال: أغرَّك أن قال الناس الشيخ المحدِّث العلَّامة الحويني إلى آخر هذا الكلام الفارغ؟! والله أنا إلى الآن لم أُسْلِم إسلاماً يرضي ربي ثم بكى وانتحب وبكيتُ وانتحبتُ واستأذن وانتهى الكلام والحُدُق قد امتلأت بالبكاء.. ثم في اليوم التالي كانت محاضرة (اخلع نياشينك).

ثم إني مازلت إلى اليوم أتعجب وأتندر من بعض أصدقائنا وقد نال أحدهم درجة الماجستير، فإذا به يسارع إلى إعلان نفسه بأنه الدكتور فلان، وهو بعد لم ينل درجة الدكتوراه، فلماذا هذا التعالي ومدح الذات وإطراء النفس؟ قد تكون بداخلك عقدة أو مبعث شعور بالنقص، ولكن لا تستجب له أو تطيعه، جاهد نفسك وتحلى بأخلاق الكبار، وتجرد من كل ما يعيب ذاتك ويشعر الناس بأنك من أهل العجب والكبرياء.

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر* إلى صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه * إلى طبقات الجو وهو وضيع

وأرى كذلك أئمة وأكاديميين كبارا يحمل أحدهم درجة الدكتوراه والأستاذية ثم لا يعرف نفسه إلا بأنه فلان، تواضعا وسموا وافتقارا، انظر مثلا إلى العلامة الكبير والمحقق العملاق فضيلة الدكتور النبوى شعلان لا يعَّرف نفسه او صفحته إلا بأنه النبوي شعلان، وهو صاحب التحقيقات الوفيرة، والأعمال الزاخرة المبهرة.. وغيره كثيرون على هذا الخلق، إذا حدثت أحدهم فلا يضيره إن ناديته باسمه أم بدرجته فكلاهما لديه سواء.

كنت أهاتف المستشار القدير بهاء المري يوما وهو القاضي الكبير، واحكي له عن صديقي الذي صار قاضيا وقد امتعض مني وتنكر لحالي حينما داعبته وقلت له: (ازيك يا واد يا أحمد) لم أكن أعلم أن صاحبي صار قاضيا، لكن ضيقه الشديد كان باديا، وهنا رد عليَّ المستشار المري بقوله: والله ولا شيء فيها حين يناديني صديقي بمثل هذا، فبيننا ود وذكريات تبرر هذا النداء.

وهذا لا شك من فعل الطبائع السوية السامية، أما من تسيطر عليه عقد النقص فلا يمكن أن يستسيغ هذه الأخلاق.

إنها أخلاق الكبار لا دنايا الصغار.

وهنا يطل بخاطري هذا الأزهري المتمصوف الذي يسمي نفسه نور الدين ويسمي موقعه الالكتروني بموقع العالم العلامة، وأسائل نفسي أمام هذا العته فأقول: أي غرور بغيض يتيه فيه الرجل، وهو مسلك أبعد ما يكون عن الصوفية الأماجد الذين كانوا يدفنون أنفسهم في يقولون في أرض الخمول.. إن هذه

أمراض نفس تطل من جبين أصحابها رغما عنهم، ووجدت من تلاميذ السوء من روج لها وأزكى منطوقها.

ولله در القائل وكأنه كان يقصده ولم يره:

تسمى بنور الدين وهو ظلامه ** وهذا بشمس الدين وهو له خسف

وذا شرف الإسلام يدعوه قومه ** وقد نالهم من جوره كلهم عسف

رويدك يا مسكين سوف ترى غدا ** إذا نصب الميزان وانتشر الصحف.

بل تذكرت الدكتور أسامة الأزهري وهو يتحدث عن الشيخ محمد عبد الباعث ويقول مطريا له وهو في حضرته: "سماحة العلامة المحدث المفسر المسند الكبير، المنور الولي الصالح، حافظ صحيح الإمام البخاري سندا ومتنا، سيدي العلامة المحدث"

كل هذا والرجل يسمع وينتشي ويطرب لهذه الألقاب الرنانة التي تشعره بمجد الدنيا.. فأية صوفية هذه؟!

وأنا لا أعلم هل انعكس الوضع فصار الحويني السلفي هو المتصوف ، وصار الصوفية هم المتسلفة من عشاق الألقاب؟!

وأين هذه الفعال من أخلاق السلف رضوان الله عليهم؟

قال شخص للإمام المحدث أبو إسحاق السبيعي يوما: أأنت الشيخ أبو إسحاق؟ قال لا أنا أبو إسحاق

وكان العماد الحنبلي إذا سمع عليه جزءا وكتبوا على ظهره: سمع على العالم الورع، نهاهم عن ذلك.

وقال بعضهم يوما للهكاري شيخ الإسلام: أنت شيخ الإسلام، فقال : بل أنا شيخ في الإسلام

وكان البلخي إذا نسبه أحدهم إلى الحكمة قال: لهفي على زمان ينسب فيه ناقص مثلي إلى شرف الحكمة.

وكان الامام النووي يسميه أتباعه محيي الدين، وكان لا يرضى أبدا عن هذه التسمية ويقول: إني لا أجعل أحدا في حل ممن يسميني بمحيي الدين.

وكان بعض الشافعية إذا جاء ذكره يقول: قال يحيى النووي، فلما سئل عن ذلك قال: إنا نكره أن نسميه باسم كان يكرهه في حياته.

وكان شيخ الإسلام النميري لا يرضى أن يلقبه الناس بتقي الدين، ويقول: ما أنا بشيء، وما مني شيء.

يقول الشيخ بكر أبو زيد: "إن مبدأ هضم النفس، واللصوق إلى الأرض، ونحوهما من مكارم الأخلاق من حلية المسلمين عامة، وأهل المعرفة والعلم منهم خاصة"

وفي الختام نقول: حنانيك يا دكتور مبروك لا تنزعج كثيرا من لفظ الشيخ وتتباهي بأستاذيتك.. اخلع نياشينك كما خلعها أبو إسحاق. كما لا أخفيك أنني سعيد لأنك تتنكر للقب الشيخ وأتمنى أن تهجره بالكلية فلا تتحدث في الدين أو تفتي السائلين، فإن الحوار مع حسن شاكوش وسعد الصغير صار أكثر نشوة لنفسك من تعليم الناس أمور دينهم.

المحتويات

مقدمة ٤
قمم مهملة ٧
الصورة التي انبعثت بعد ٤ عقود ١٠
الأزهري الذي أحبه طه حسين ١١
تمنيت التلمذة على يديه ١٤
لقد أخطأت يا رشيد ١٧
في حضرة الشيخ حسن أيوب ١٨
وأخيرًا هوى النجم ٢٠
أحترم هذا الرجل ٢٤
كرامة يسري أم كرامة البهي؟ ٢٦
محاولة اغتيال داعية ٢٨
في رثاء أديب الدعاة ٣٢
رحيل المقاتل الجسور ٣٧
من الذي أهان العمامة؟ ٣٩
قبلت اليد المعجزة ٤٠
مهندس الدعوة في اليابان ٤٢
حينما تخدعنا السطور ٤٤
الفارس الذي لا يذكره أحد ٤٦
فقط لأنه عالم دين ٤٩
أوقفوا هؤلاء المردة ٥١
بين هوجو والحكيم ٥٢
أنا أذهب إليه ٥٤
نسف القصة السخيفة ٥٦
إنهم لا يمثلون الأزهر ٦٠
أئمة الأزهر يُحرجون الغلاة ٦٤
عميد وفنان ٦٧
تجديد الخطاب السلفي ٦٩
يُطل علينا من قبره ٧١
الشيخ الشعراوي مربيًا ٧٤
يشمتون في الشعراوي ٧٥
الإمام كما لم نعرفه من قبل ٧٧
المتحرشون بالحوائط العالية ٧٩

الأنصاري يواجه الغوري ٨١
قصة شيخ أزهري نذل ٨٣
المعركة الحقيقية ٨٥
المصريون زمان ٨٧
تخبط مفتي الديار ٨٨
حبيب العلماء ٩١
جحود التلاميذ ٩٤
محمود عمارة ومحمد عبده ٩٦
بين السعداوي والصابوني ٩٨
بكته القلوب قبل العيون ١٠٠
القرضاوي في عيون مبغضيه ١٠٢
العَالِم الذي يريده المصريون ١٠٥
كتاب من يا ترى؟ ١٠٧
الشيخ الكومي يستعيد حقه ١٠٩
دعاة ومناصب ١١٠
الإمام أبو زهرة يهاجم بهاء الدين ١١١
الأمانة العلمية ١١٥
الإمام محمد عمارة ١١٦
أسكتوا هذا المخرف ١١٧
أزمة عقلية وأخلاقية ١١٩
اخلع نياشينك ١٢٢